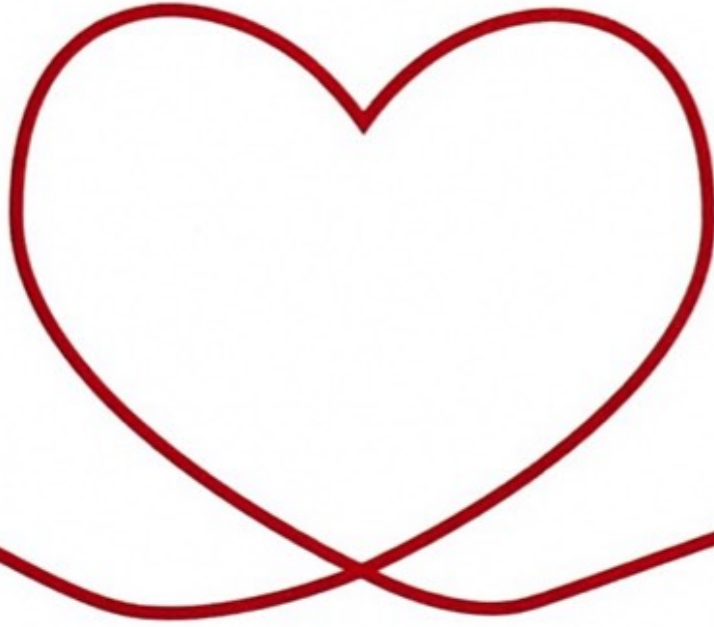


تتارل يبيان

اللقاء



كيف يكتشفنا لأنفسنا
ويفتحننا على العالم

ترجمة وتقديم
د. مصطفى حجازي



شارل بيبان

اللقاء

شارل بيبان

اللقاء

كيف يكشفنا لأنفسنا
ويفتحنا على العالم
مقاربة فلسفية نفسية

ترجمة وتقديم

د. مصطفى حجازي



المركز الثقافي العربي

الكتاب

اللقاء

تأليف

شارل بيبان

ترجمة

د. مصطفى حجازي

الطبعة

الأولى، 2022

الإيداع القانوني:

2022MO0913

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9920-657-37-2

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء - المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 - 0522 307651

فاكس: +212 522 305726

Email: markaz.casablanca@gmail.com

العنوان الأصلي للكتاب:

Charles Pépin

La Rencontre

© Allary Éditions, 2021

All rights reserved

نُشر بالاتفاق مع

Allary Éditions

وبالتنسيق مع وكيلهم المعتمد

2 Seas Literary Agency

إلى إميلي

المحتويات

- تقديم المترجم 9
- المقدمة 21

القسم الأول: علامات اللقاء

- 1 - أنا مضطرب: حين تتصدع قوقعتي الذاتية 27
- 2 - أنا أتعرف عليك: حين تشبه الصُّدفَةُ القدرَ 38
- 3 - لديّ فضول تجاهك: حين أرغب في اكتشاف عالمك 46
- 4 - أنا أرغب في الانطلاق: حين يمدّني الآخر بجناحين 54
- 5 - أنا أكتشف وجهة نظرك: حين أمرُّ بتجربة غَيْرِيَّتِكَ 62
- 6 - أنا تغيّرت: حين يصنع الآخر منّي كائنًا آخر 80
- 7 - أشعر أنني مسؤول عنك: حين يكشف لي الآخر طبيعتي الأخلاقية 100
- 8 - أنا أحيّا: حين ينقذ الآخر حياتي 107

القسم الثاني: شروط اللقاء

- 1 - الخروج من القوقعة الذاتية: فلسفة الفعل 121
- 2 - لا تتوقّع شيئاً محدداً: في مديح التوفر والانفتاح 139

3 - إسقاط القناع: قوة القابلية للانكشاف 162

القسم الثالث: الحياة الحققة لقاء

1 - اللقاء خاصية إنسانية: قراءة أنثروبولوجية 185

2 - أنا ألقاك، إذاً أنا موجود: قراءة وجودية 195

3 - لقاء السر الخفي: قراءة دينية 201

4 - لقاء الرغبة الذاتية: قراءة تحليلية نفسية 207

5 - لقاء الآخر كي نلتقي مع ذاتنا: قراءة جدلية 220

- استنتاج عام 229

- المراجع التي قام عليها هذا الكتاب 233

تقديم المترجم

يشكل هذا الكتاب لمؤلفه شارل بيبان، مع كتاب القطيعة: كيف تُغيّرنا في العمق للمؤلفة كلير ماران، وكلاهما كاتب وفيلسوف، ومن نشر المركز الثقافي العربي، المحورين المتكاملين والمتفاعلين لإحدى جدليات الوجود الإنساني الكبرى. وهي جدلية الرباط الإنساني، في تلاقيه وانفصاله، وفي تقاربه وتألفه وتباعده، وفي الارتباط والقطيعة، والحب والبغض، وفي صراع غريزة الحب والحياة والبناء مع غريزة الموت والإلغاء والتدمير اللتين قال بهما فرويد. فغريزة الحب هي الارتباط والشراكة الإنسانية والنماء، ويقابلها غريزة التبعاد والتنكر وصولاً إلى الإبادة الفردية والجماعية وإبادة الذات حين ترتد غريزة الموت عليها، وإبادة الآخر حين تتوجه غريزة الموت إليه. ولقد لخص لاكان هذه الجدلية أجمل تلخيص حين أجاب تلميذه مصطفى صفوان على سؤال هذا الأخير خلال إشرافه على تحليله النفسي قائلاً إنه بين اثنين «لا يوجد سوى الكلام أو الموت»، فإما اعتراف بالآخر ولقاء معه، وإما تنكر له ولإنسانيته مما يفتح باب الصراع المميت بينهما.

اللقاء بما هو التعبير عن الرباط الإنساني والاعتراف بالآخر الذي يشكل المدخل إلى الاعتراف بالذات، هو مكوّن قاعدة ارتكازي في الوجود الإنساني، وبفضله يصبح الإنسان إنساناً ويدخل في قانون اللغة والكلام المؤسس لدخوله في الثقافة. التعلق هو نقطة الانطلاق في تكوين كيان ذاتي. ولقد أفاض المحلل النفسي الإنجليزي جون بولبي هو وزملاؤه، ومنذ ستينيات القرن العشرين في تبيان أهمية هذا الرباط الإنساني المؤسس، خلال أعمالهم الهامة على الأطفال المحرومين عاطفياً. فالعلاقة مع الأم والأب والأخوة من بعدها هي الشرط والممر الملزم للنمو المعافى على الصعد النفسية والعاطفية والعقلية والاجتماعية. وأي اختلال أو قصور في هذا الرباط والتعلق الوثيق ما بين الأم والطفل سوف يؤدي إلى اختلال النمو المعافى، حيث يتناسب هذا الاختلال الذي قد يوقف النمو بشكل خطير مع درجة اختلال العلاقة العاطفية والحسية-اللمسية واللغوية ما بين ثنائي الأم-الطفل. وفي المقابل فإن وثوق الارتباط وغنى التفاعل الحسي اللمسي العاطفي اللغوي هو الذي يطلق طاقات النماء لدى المولود الجديد.

أثبتت الأبحاث الحديثة، في هذا المجال، أن هناك لدى المولودين الجدد من بني الإنسان والحيوانات العليا على حد سواء، آلية عصبية للارتباط تتحرك وتَفَعِّل من خلال الرباط الوثيق ما بين الأم والطفل خلال احتضانها للطفل وإرضاعه من الثدي ومناغاته والابتسام له، مما يطلق آلية الارتباط الإنساني

لديه بما هي المدخل لانطلاق عملية النمو المعافى .
والأمر ذاته ينطبق على اللبونات في علاقتها مع صغارها .
فمن خلال لعق الأم لصغيرها وإرضاعه واحتضانه تنطلق آلية
الارتباط لديه والدخول في بنى جنسه . وتبين الملاحظات أن كلاً
من الأم والطفل هو فاعل ومحرض في الآن عينه في تفعيل هذا
الارتباط . وإذا اختلت هذه العملية وتنكرت الأم لمولودها فسوف
يكون مصيره الموت . كذلك فإن صغار الحيوان والطيور تتعرض
عادة للموت حين الانفصال عن أمهاتها .

وأما صغار بني الإنسان فيتعرضون للإصابة بالأمراض
وتتدنى المناعة لديهم ، كما يتأخر نموهم على جميع الصعد ،
ويدخلون فيما يشبه التَّوَحُّد وانعدام القدرة على التواصل . وحين
يكبرون فسوف يتعذر على الغالبية الكبرى منهم إقامة علاقات
عاطفية واجتماعية متينة مع الآخرين .

يُشَبَّه أحد العلماء الذين درسوا تفعيل الارتباط الإنساني بين
المولود وأمه بنوع من الثنائي المتناغم مستعملاً تعبير «ثنائي
التانغو المتناغم» خلال الرقص . فالأم تحرض الطفل فيستجيب ،
وهو بدوره يحرضها فتستجيب ، وبذلك يلتقيان ويقوم الارتباط
بينهما حيث يجدان ذاتيهما فيه : الأم تجد أمومتها ، والطفل يجد
ذاته في علاقته الوثيقة (بل الدمجية في البداية) معها . وتنطلق
عملية الارتباط والتعلق هذه منذ بداية الميلاد وحتى نهاية الحياة
الجنينية . فالجنين يرتاح لنبضات قلب أمه وينزعج في الرحم حين
تصاب أمه بالتوتر . ولقد ثبت من التجارب أن الطفل يتعلم لغة

أمه بسرعة أكبر من تعلم أي لغة أخرى، لأنه يأنس لنبرات صوتها وهو في الرحم، ويفضلها على نبرات أي صوت آخر. كما يأنس لرائحة صدر أمه فيرتاح ويهدأ ويرضع جيداً وينام جيداً وبالتالي ينمو جيداً.

فالعلاقة والارتباط هما الأساس في التكوين الإنساني وبالتالي دخول الصغير في إنسانيته. إذ بقدر ما يشبع عاطفياً تتكون لديه الطمأنينة القاعدية. والإشباع العاطفي لا يعدو كونه رسوخ اللقاء ومتانته بما هو وثوق الرباط الإنساني والاعتراف المتبادل بالآخر وبالذات.

تبين هذه الأبحاث المستفيضة حول الرباط الأولي خطأ ما ذهب إليه فرويد من قول بالنرجسية الأولية، حيث يكون الطفل غارقاً في عالمه الذاتي. اتضح أن هذه النرجسية ليست أولية بل إن العلاقة والرباط الإنساني القائمين على اللقاء الوثيق والمتناغم هي المكون الأساسي لدى البشر. وقد يرجع ما قال به فرويد من نرجسية أولية منغلقة على الآخر إلى تأثيره بشيوع الفردية في المجتمع البرجوازي الغربي الذي أجرى ملاحظاته وأبحاثه عليه، وذلك في تاريخ سابق على قيام الأبحاث اللاحقة منذ الستينيات وحتى أواخر القرن العشرين والتي أثبتت ميدانياً ومخبرياً وعيادياً أولوية الارتباط الإنساني والحساسية الفطرية للقاء والعلاقة. التمايز والانفصال والاستقلال وحتى القطيعة كلها تحدث لاحقاً بعد تأسيس العلاقة والارتباط.

وتظل العلاقة قائمة وبأشكال مختلفة حتى بعد القطيعة التي

تُكوّن فعل نماء واستقلال، أو فعل تحرر من علاقة خانقة ومعوقة لنماء الكيان الذاتي، أو أسى على فقدان ارتباط عزيز على النفس. حتى في القطيعة العدائية الجذرية، فإن صورة الآخر التي يتم التنكر لها تظل حاضرة في الخلفية بمثابة قيمة سالبة تصب عليها كل المثالب والشُرور.

فالفعل العدواني غالباً ما يتخذ طابع النداء الاحتجاجي لانتزاع الاعتراف من قبل الآخر الذي يُعتبر بمثابة المتنكر للحق في الوجود.

كان لاكان، المحلل النفسي الشهير، أبرز من أضاء على النقص المؤسس للكيان الإنساني، بمعنى التوق إلى الآخر المكمل للذات، واللقاء وإقامة الرباط معه. تلك هي الرغبة في اختلافها عن الحاجة. فهذه الأخيرة قابلة للإشباع، من قبيل الجوع والعطش وبقية الحاجات الأساسية. بينما أن الرغبة مربوطة بالآخر وبالعلاقة معه. فكل رغبة هي رغبة في اعتراف الآخر بنا، وكل إنسان يرغب في أن يكون موضوع رغبة الآخر، وكل إنسان يُحب أن يُحب أي أن يحظى بالاعتراف الإيجابي من قبل الآخر. ومن هنا تأتي أهمية اللقاء على اختلاف ألوانه ودرجاته، لقاء مع الآخر الذي يساعدني على اكتشاف ذاتي والتعرف عليها من خلال غيريته التي تتقبلني في تمايزها عني. ومن هنا تأتي بلاغة اللغة العربية في الكلام عن الوحشة والمكان الموحش الذي يخلو من اللقاء مع الآخرين والحرمان من الاستئناس بالتواجد معهم. وعكسها الأُنس والاستئناس للذات

يُدخلان الراحة إلى النفس من خلال اللقاء الذي يوفّر الطمأنينة والراحة وعذوبة العيش بصحبة الآخرين، مما يدعى بالصحبة الطيبة. ويرى بعض فقهاء اللغة أن مصدر كلمة «إنسان» من «أنس» أي اطمأن وارتاح للقاء والرباط الإنساني، حيث تجد الذات ذاتها. وهو ما يؤكد ما ذهب إليه لاكان من القول بالنقص المؤسّس للكيان الإنساني الذي يتوق إلى لقاء الآخر والارتباط معه. ولذلك يحتل كل من الود والخلة هذه المكانة في العواطف الإنسانية. فالود لغوياً هو خالص الحب والرقّة والرأفة والرحمة. والخلة (الخليل والخلان) هي رفقة الروح والجسد والدرب.

وهكذا فاللقاء لا يعبر فقط عن بدء علاقة أو انطلاقها، وإنما قد يكون عبارة عن لقاء ثانٍ أو إحياء لعلاقة أولية من مراحل طفولتنا أو حياتنا السابقة. يتجلى ذلك في المواقف الاجتماعية حيث يحدث تجاذب أو نفور عضوي مع شخص ما حتى قبل التعرف عليه، أو المرور بخبرة معه، وكذلك حتى قبل معرفة ما يكفي عنه وعن خصائصه ومواقفه وسلوكاته التي تُتخذ عادة بمثابة المعيار للحكم على الأشخاص وتقرير التقارب معهم أو التباعد عنهم. إننا هنا بصدد شعور عفوي بالارتياح أو النفور، وبالتالي بالسعي إلى التقرب منه أو الابتعاد عنه. تحدث هذه الظاهرة لأنها تحيي في النفس ذكرى علاقة أو خبرة سابقة موجبة ومحبة أو سالبة ومنفرة تم كتبها أو تناسيها. من قبيل انجذاب الفيلسوف الفرنسي الشهير ديكارت نحو الأشخاص المصابين بالحول، من دون أن يدري لذلك سبباً أو يجد له تفسيراً، والذي أتى المؤلّف

على ذكره في عمله هذا . كان ديكارت قد أحب في طفولته فتاة مصابة بالحول ، ومرت السنون وطويت مسألة علاقة الحب هذه ردحاً طويلاً من الزمن . وإذا بديكارت يدهش لانجذابه الودي نحو الأشخاص المصابين بالحول ، حتى أتى الظرف الذي تذكّر فيه تعلقه بتلك الفتاة . وذلك هو لقاء ثانٍ يشكل إحياءً للمكبوت والمنسي وبشكل عفوي لا يمر بمرحلة اختبار للشخص الجديد ، واتخاذ موقف إيجابي منه .

الكثير من اللقاءات العاطفية والغرامية ، وحتى التقارب الوجداني بين الأصدقاء والرفاق تمثل عودة إلى اللقاء الماضي ، أو ما يسمّى بالتحليل النفسي «عودة المكبوت» . تحدد عودة المكبوت هذه خياراتنا العفوية في الانفتاح والتقرب من أول لقاء ، وإذا بالحوار يسير هيناً ، وإذا بالعلاقة تزداد تقارباً ووثوقاً ، وإذا باللقاء يتعزز ويتحول إلى علاقة غرامية أو صداقة ومودة ذات طبيعة نوعية . نلتقي في هذه الحالة بمن يمثل صورة علاقة سابقة محببة إلى النفس ، أو علاقة حامية أو حانية ، أو علاقة مع صورة مثالية عن ذاتنا تكوّنت بمثابة مثل أعلى في طفولتنا ؛ من قبيل التماهي بأب أو أم أو أخ أكبر أو أصغر كنا نجد فيه مرآة ذاتنا .

كذلك هو الحال في حالات النفور العفوي التلقائي الذي يؤدي إلى الشعور بالبرود الوجداني تجاه الآخر . وإذا بالحوار ينقطع معه منذ اللحظات الأولى ، بحيث نميل إلى الانصراف عنه . يمثل الآخر في هذه الحالة صورة علاقة ماضية تم تناسيها

بالكبت أيضاً. وهي صورة خبرة سيئة أو تجربة وجدانية محبطة مع أب أو أخ أو رفيق دراسة أو معلم، أو أي شخص آخر يحمل ملامح تمثل صورة سيئة عن خصلة نكرها في ذاتنا، أو في الآخرين ونقاوم الوعي بها.

يدخل ذلك كله في جدلية التعاطف و/أو النفور العفوي في لقاءاتنا مع الآخرين. وهو إن دلّ على شيء فإنما هو يبين لنا مدى تأثير علاقاتنا التاريخية على لقاءاتنا وعلاقاتنا الراهنة. وهي أمور قد ندهش لها حاضراً، وتثار في نفوسنا التساؤلات عن أسباب تعلقنا التلقائي بشخص أو أشخاص من نوع محدد، أو على العكس أسباب نفورنا منهم وميلنا إلى التبعاد عنهم. وكلها أمور قابلة للتحليل والوعي بدوافعها الدفينة في لاوعينا. وعندها تصبح أكثر واقعية وعقلانية في لقاءاتنا ومصيرها لجهة نموها وترسخها، أو على العكس حيادها وموضوعيتها؛ وسواء تم ذلك في اللقاءات وجهاً لوجه، أو هو تم على المستوى الافتراضي في اللقاءات على وسائل التواصل الاجتماعي.

كتاب بيان عن اللقاء، الذي بين أيدينا، يتسم بالتشويق وبساطة العرض والإكثار من الأمثلة التوضيحية للموضوع المطروح. وهي أمثلة مأخوذة من وقائع وروايات وأفلام حقيقية يسردها بالأسلوب الروائي الذي يبرع فيه. ويعود ذلك إلى كونه مهنيّاً أستاذاً للفلسفة في نهاية المرحلة الثانوية، يقرب موضوعات بحثه إلى أذهان طلابه، في ابتعاد كبير عن تعقيد العروض الفلسفية المجردة. ومما يزيد من قدرته على العرض المشوّق أنه

روائي، كتب عدة روايات واسعة الانتشار، مما أعطى لنصه المعروف في هذا الكتاب مسحة وجودية روائية قريبة للأفهام، وبعيدة عن التنظير.

يتكوّن الكتاب من أقسام ثلاثة. يعالج في أولها علامات اللقاء في أسسه وتأثيراته على الذات والآخر، فاللقاء الأصيل يصدع القوقعة الذاتية التي ينعزل الفرد ضمنها، وينغلق على العالم. إنه اللقاء الذي يمثل فرصة الانفتاح على الآخر وعلى العالم، وما يحمله هذا الانفتاح من صور اغتناء التجربة الوجودية. كما أن اللقاء يثير الفضول الشخصي لاكتشاف عالم الآخر والمرور بتجربة الغيرية التي تفتح باب معرفة الذات من خلال المرأة التي يمثلها لنا الآخر.

وإضافة إلى معرفة الذات والآخر هذه، فإن اللقاء يزودنا بإمكانات جديدة للانطلاق، وكأن الآخر الذي نلتقي معه حقاً يزودنا بجناحين، ويصنع منا كائناً آخر لأنه يغيرنا. فليست هناك علاقة حقة لا تغيرنا، وإلا فستظل لقاءً عابراً. فاللقاء الحق يجعلنا نكتشف ذواتنا في الآن عينه الذي نكتشف فيه الآخر وتمايزه عنا. كما أن اللقاء الأصيل يكشف لنا مسؤوليتنا تجاه الآخر، شريكنا في الإنسانية، والتزامنا بهذه الشراكة.

أما القسم الثاني فلقد أتى بعنوان «شروط اللقاء». وأولها الخروج من القوقعة الذاتية، ومن الانكفاء على الذات والانغلاق على العالم وعلى الآخرين. وهو ما يتطلب التوفر والانفتاح على الآخر مما يتمثل في الاستعداد لاستقبال عالم الآخر وإعطائه

الفرصة كي يدخل إلى عالمنا، وهي ذاتها تمثل إعطاء الفرصة لذاتنا كي تنفتح على العالم فتنمو وتغتني من خلال الغيرية. ويتدّرج شرط التوفر والانفتاح في إسقاط القناع لإتاحة الفرصة أمام تجلي الذات الحقيقية. إذ إننا نَصْنَع عادة في حياتنا اليومية بمختلف الأقنعة المهنية أو أقنعة الانتماءات الاجتماعية الشائعة. وتكون النتيجة أن نعيش على المظاهر التي تخفي الذات الحقيقية خلف هذه الأقنعة التي تزيّف الوجود. الأقنعة تجعلنا نعيش حياة برانية نسعى إلى تجميلها. إلا أن هذه الأقنعة لا تعدو كونها دفاعات نفسية تحرم ذاتنا الحقيقية من عيش كيانها الأصيل خلف أقنعة التجميل والتزييف الوجودي. وبذلك نحبط طاقات تفتح الذات الأصيلة.

ويأخذنا شارل بيان في الجزء الثالث من هذا العمل بعنوان «الحياة الحقة لقاء» في جولة فلسفية كاشفة وممتعة لنظريات اللقاء. بدءاً من اللقاء والعلاقة والارتباط بما هي مكوّن إنساني أصيل في طبيعتنا كبشر، مما عرضنا له في بداية هذا التقديم، ومروراً بنظرية جان بول سارتر الوجودية في اللقاء والتي أعطاها عنواناً بليغ الدلالة: «أنا ألقاك، إذاً أنا موجود». ومنها يعرج على القراءة الدينية للقاء بعنوان «لقاء السر الخفي» في العلاقة مع الإله. ويتحوّل بعدها إلى لقاء الرغبة الذاتية من منظور التحليل النفسي الفرويدي واللاكاني، مما تم الحديث عنه بدوره. وينتهي عرضه لنظريات اللقاء بالقراءة الجدلية بين الذات والآخر. فلا اعتراف بالذات إلا من خلال الاعتراف بالآخر وباعتراف الآخر

بنا، بمثابة الشرط المؤسس لكياننا الوجودي. هذه القراءة الجدلية تلقي أضواء كاشفة على الوجود الإنساني الذي لا يقوم بذاته في البدء، بل لا بد له من اعتراف أولي به من قبل الآخرين، مما أشرنا إليه في العلاقة الدمجية البدئية مع الأم واعترافها به مما يطلق آلية النمو وتفتح الإمكانيات الممهدة لنشأة الكيان الذاتي. وحتى في مراحل الحياة اللاحقة لا تقوم الذاتية ولا يقوم الكيان إلا من خلال الاعتراف المتبادل بين الذات والآخر، وبالتالي الاكتشاف المتبادل للآخر وللذات في آن معاً. تلك هي جدلية الوجود الإنساني. وأما ما دأب عليه الفكر الغربي من ترويج لصدارة الفردية ومركزيتها واستقلالها عن الآخر وعن الجماعة والنحن، فلا تعدو كونها شطط يجانب الصواب. فعزلة الإنسان الغربي وسجنه في فرديته المفرطة والتي روج لها الفكر الغربي بمثابة الأنموذج المثالي، أدت وتؤدي بشكل متزايد إلى شيوع ظاهرة الغفل الاجتماعي⁽¹⁾ والعزلة وما تولّدانه من حالات الاكتئاب والضيق متزايدة الانتشار، حتى أنها أخذت تشكّل الآفة النفسية الكبرى في مجتمعات فرط الفردية.

وفي المقابل، فإن فرط الانفتاح والذوبان في النحن الجمعية وهيمنتها في مجتمعاتنا المشرقية، فإنها تولّد بدورها حالات

(1) الغفل الاجتماعي (Anomie sociale): مصطلح وضعه دوركايم ويدل على حالة الضياع الفردي وسط بيئة اجتماعية تفتقر إلى الروابط والتعارف وبالتالي الصلات والتآزر: لا أحد يعرف أحداً، وكلٌّ معزول في عالمه الخاص. (المترجم)

استلاب الذات وضياع الكيان وتفردّه والانسياق في القطيعة الاجتماعية. وهي بدورها حالات يتعين الوعي بها وحسن توجيهها لصالح نماء الفرد والجماعة وإطلاق عملية العطاء المتبادل.

وإذا كان لنا من اقتراح مقدمه للقارئ العربي، فإنه يتمثل في قراءة هذين العاملين في اللقاء وحالاته والقطيعة وألوانها، إذ إنهما يشكلان قراءة متكاملة تحيط بشكل مثمر وفائق الغنى بجدلية الوجود الإنساني الكبرى، فهماً ووعياً وتفتيح آفاق الفكر والعمل.

د. مصطفى حجازي

المقدمة

يقدر العشاق أحياناً مدى ما ينعمون به من حظ من خلال استعادة شريط لقاءهم، مع شيء من الانفعال ومسحة من الخشية. إذ كان يكفي حدوث أتفه الأشياء، من قبيل اختلاف موعد القطار، أو الصعود في عربة أخرى من عرباته... كي لا تتلاقى مساراتهم.

ومع ذلك، فإن نظرة مدققة بعض الشيء سرعان ما ستكشف لنا أن لقاءهم لا يعود إلى مجرد مصادفة سعيدة. فالجلوس جنباً إلى جنب على مقعدين متجاورين ليس سوى مجرد فرصة؛ إذ إنها تجرأت بأن تبدأ مناقشة، وهو من جانبه عرف كيف يستقبل غير المتوقع ولا المخطط له هذا، فهي امرأة ليست من النوع الذي يتطلع إليه بشكل مسبق. غريبان انفتحا على تبادل الحديث، وإذا باللقاء قد حدث.

فهذا الرجل وهذه المرأة اللذان يستقلان القطار السريع المنطلق بسرعة 300 كلم في الساعة، كان بالإمكان أن لا يلتقيا

أبداءً، لو كانا منطلقين في مسارين متوازيين يسيران بسرعة فائقة؛ فهي وظيفة عليا ذات مسار مهني منتظم، وهو من ناحيته طبيب عظام له زبائن كثير. وقد كان يكفي تلاقي عدة عناصر ملائمة كي يلتقيا وكي تحدث المعجزة. فهل لاحظت توتره؟ إذ تلقى قبل صعوده إلى القطار مخابرة من الطبيب العقلي الذي يتابع حالة ابنه، ولم يحاول أن يخفي قلقه عندما سألته الجالسة بقربه عن سببه. لقد نزع قناعه وباح لها بما يقلقه. وهي من ناحيتها انغمست أكثر فأكثر مع هذا الشخص المجهول وفتحت له قلبها بشكل لم تكن تعتقد أنها يمكن أن تقدم عليه. لقد تكلمنا من دون أقنعة، ومن دون تمثيل أدوار اجتماعية.

هذا اللقاء الذي بدا أنه فعل الصدفة أصبح إذاً ممكناً من خلال مواقفهما المتبادلة. وينطبق الأمر ذاته على لقاءات الصداقة أو اللقاءات المهنية: فالصدفة ليست سوى نقطة الانطلاق، وليست هي التي تتحكم بمصيرنا، بل هي تُؤلِّد. لقد كتبتُ هذا الكتاب كي أبين أن بالإمكان جعل الصدفة حليفاً لنا، وأن بالإمكان الاستعداد لاستقبال غير المتوقع. سواء في قطار أو في متجر كبير، وسواء خلال إحدى الأمسيات أو في المكتب، وسواء على موقع تعارف إلكتروني أو في حديقة عامة.

إلا أن ذلك يفترض امتلاك رؤية واضحة عن آلية اللقاء وقوته، وفهم ماذا يعني الفعل، والتوفر، والانفتاح.

وبغية تحقيق ذلك، سوف نُسائل مفكري القرن العشرين

الذين درسوا العلاقة مع الآخر، على غرار ما فعله هيغل،
والروابط الأساسية التي يمكن أن تُنسج بين كائنين. فمن
سيغموند فرويد، إلى مارتن بوبر، وإيمانويل ليفيناس، وجان بول
سارتر، وسيمون فايل، وكذلك آلان باديو، كلهم سوف
يساعدوننا على رسم ملامح فلسفة اللقاء. وكذلك كل من
الروائيين، والمسرحيين، والرسامين، والسينمائيين الذين أخرجوا
لنا لقاءات جميلة -من قبيل ماريفو في مسرحية لعبة الحب
والصدفة، ولويس أراغون في رواية أوريليان وألبرت كوهن في
رواية جميلة السيّد، وكلينت إيستوود في فيلم جسور مقاطعة
ماديسون، وعبد اللطيف كشيش في فيلم حياة أديل... - كلهم
بلوروا هذه الفكرة في أعمالهم.

كما سنأتي على ذكر الإضاءة الخاصة التي تقدمها أعمال
هي ذاتها ثمرة لقاءات حاسمة وتذكرنا أنه حتى العباقرة في هذا
المجال هم مدينون للآخر. ألا نعرف أن بيكاسو لم يكن يرسم
رائعته غرنیکا لولا الإلهام الذي استمدّه من صديقه إيلوار؟ وأن
عمل كامو بعنوان الإنسان المتمرّد يعود إلى هيام هذا الكاتب
بالممثلة ماريا كاساريس؟ وإلى أي حد تغذى كل من فولتير
وإيميلي دو شاتليه من بعضهما بعضاً، لكتابة كل من كانديد
وخطاب حول السعادة؟ وأن أغنية يوم مثالي لم تكن لترى النور
من دون العشاء النيويوركي ما بين ديفيد بوي ولو ريد؟

وعندما نقدر مدى أهمية اللقاءات، فسوف تتكون لدينا نظرة

أخرى عن الأعمال الرائعة التي تغذيها، وعن حياتنا ذاتها. إننا معتمدون على الآخرين. واللقاء ليس مجرد توافق، أو بديل ثانوي، وإنما هو يمثل ضرورة أساسية لنا، إذ إنه يشكل شخصيتنا؛ وهو في لب مغامرة وجودنا. وكما سوف نراه، فليس للقاء مجرد القوة التي تجعلنا نكتشف الحب، والصداقة أو يقودنا إلى النجاح، وإنما هو يكشفنا لأنفسنا ويفتحنا على العالم. تلك هي قوته وسره: أنا بحاجة إلى الآخر، وإلى لقاء الآخر كي ألتقي مع ذاتي. ويتعين عليّ لقاء ما هو ليس أنا كي أصبح أنا ذاتي.

القسم الأول

علامات اللقاء

1

أنا مضطرب

حين تتصدع قوقعتي الذاتية

أن تلاقى أحداً ما، يعني أن تهتز وتضطرب. شيء ما يحدث، لم نختره شخصياً، ويفاجئنا على حين غرة: إنها صدمة اللقاء. في اللغة الفرنسية، تأتي كلمة «لقاء» (Rencontre) من الفرنسية القديمة «مواجهة» (Encontre) والتي تعبر عن «واقعة الاصطدام بشخص ما على دربنا». إنها تُحيل إذاً إلى صدمة مع الغيرية: أي كائن يتواصلان، ويتصادمان، وإذا بمسار كل منهما يتحول. يمكن لفردية شخصية أن تُصادف أخرى من دون أن تضطرب: وهو ما يبرهن عندها أنه لم يحدث تلاقٍ، وإنما مجرد عبور بالجوار. ليس هناك ما هو أكثر مدعاة للدهشة في الواقع، وللارتباك أحياناً، وما هو أكثر صعوبة على الاستيعاب، من اختلاف الآخر. فكيف يمكنني أن لا أتزعزع حين ألقاك، أنت الذي تفلت من استيعابي لك لأنك آخر مختلف تحديداً، ولأن لك تاريخاً آخر، وأسلوباً آخر في رؤية العالم وفي الإحساس بالأشياء؟ فإذا بقيت جامداً لا أتاثر، فمعنى ذلك أنني بالكاد رأيتك أو أنني لم أر فيك سوى مجرد مرآة تعكس ظلي الإنساني.

غالباً ما يأتي هذا الاضطراب من صدمة بصرية: فحين رأت أنا كارينينا الأمير فرونسكي في محطة للقطار، لم تكن تعرف عندها شيئاً عنه، إلا أنها اضطربت في الآن واللحظة، حيث تميز هذا الأمير عن بقية المسافرين. فما الذي أثر فيها هكذا؟ هل هو ظهور هذا الآخر الذي أحست بقوته، وتفردته؟ أم أنها أحست بتلك الحركة الجوانية في نفسها، وذلك الاندفاع الذي لم تكن مهياًة له؟ ممكن أن يستدعي هذا الاضطراب عدة حواس في الآن عينه: يبدو لنا أحياناً أننا لم نكتشف، في حالة من الانبهار، كائناً معيناً، قبل الإحساس الرائع بنعومة بشرته، وقبل إحساسنا باستجابته لملاطفتنا وقبلاتنا، وكلامنا الرقيق. كما تدل بعض العلامات في الاضطراب الغرامي، كم أن هذه الحالة تأخذنا على حين غرة: تسارع ضربات القلب، تردد في التعبير، جفاف الفم، تعرُّق، تعطل لغة الكلام... وأمام قوة تسارع الحياة هذه، يستجيب جسدنا العاجز عن السيطرة على هذا التسارع، وكأنه بحاجة إلى وقت لتمالك أحاسيسه. أحياناً يتمثل الأمر في مجرد نبرة صوت تحركنا، فتوقظ فضولنا، وتثير في نفوسنا ذكريات منسية، إنه صوت من الماضي، من طفولتنا، هو الذي ينادينا. إذ حين سمع كريستيان بوبان صوت بيير سولاج لأول مرة في الهاتف، وحتى من دون أن يتلقيه جسدياً، ذكر أنه كان أكيداً أنه قد التقاه في تلك اللحظة. يروي هذه اللحظة في كتابه المكرس لصداقتهما بعنوان بيير: «أي متعة هذه [...] يحملها [صوته]، وأي دهشة يشعر بها سولاج تجاهك وتجاه ذاته». كما يمكن

لهذه الزعزعة النفسية أن تتخذ كذلك طابعاً فكرياً: وهكذا فإن بيكاسو الذي لم يكن يكثرث للسياسة، والذي كان يلتقي إيلوار منذ سنين عديدة، حين حدثه هذا الأخير، في أحد الأيام من عام 1934، عن انخراطه في الحركة السلمية، تفتحت عندها لدى بيكاسو رؤية سياسية للعالم. في هذه اللحظة بالذات، تلاقى أخيراً مع الشاعر حقاً، وليس كمجرد لقاء عابر. كذلك، يمسننا الآخر في الصميم أحياناً، على غرار أحد الثنائي الأكثر أسطورية في النصف الثاني من السبعينيات: حيث تم تلاقى كل من ديفيد بوي وإيغي بوب ليس على أساس وحدة حال موسيقية، بل إثر تأثير بوي في المقام الأول بمحنة إدمان إيغي وعزلته.

ومهما كان الشكل الذي يتخذه هذا الاضطراب، والذي يتراوح ما بين مجرد إحساس ووصولاً إلى حالة الدوار، فهو يعلمنا كيف يمكن للحياة أن تفاجئنا أحياناً: يتعين علينا الآن أن نقر بالواقع، فنحن لا نملك دوماً زمام الأمور. إذ تحتك فرادتان، من عالمين مختلفين، إحداهما بالأخرى. ولا ندري بعد ماذا سينتج عن ذلك (حيث سيتخذ إبداع بيكاسو زخماً آخر بعد وعيه السياسي، وأما أنا كارينينا فسيكون مصيرها الموت...)، إلا أن الواقع هو أن ذلك قد حدث. وإذا كنا غارقين في وهم أننا وحدات تكتفي بذاتها، وتعيش مستقلة غارقة في هويتها وعاداتها، وإذا بنا نصحو فجأة على واقع آخر. إذ يضطرب ما ننعم به من ارتياح وراحة بال. ونشعر عندها أننا نتطلع إلى وضع آخر، مما يولّد الإثارة والقلق في آن معاً. يحملنا

اضطرابنا في الآن عينه نحو الآخر الذي يدهشنا، ونحو ذلك الجزء من ذواتنا الذي يفلت منا، والذي نحن عنه غافلون. إذ يُفاجأ بيكاسو حين التقائه بإيلوار بمثالية هذا الشاعر وبالصدى الذي يجده في ذاته من هذه المثالية. ففي اختلاجات المشاعر والأحاسيس، قد ندهش بالآخر، وبجماله، واشتعال رغبته، بمقدار ما ندهش أحياناً بما يثار في نفوسنا من أحاسيس. وفي الأساس، كأننا بصدد لقاءين في آن معاً: أي لقاء غيرية الآخر، واللقاء مع غيريتنا ذاتها [ما كنا عنه غافلين في ذواتنا]. يكتب آرثر رامبو في رسالة إلى بول ديميني، في العام 1871، قائلاً «أنا هو آخر». يتعيّن أحياناً أن نلتقي حقاً الآخر كي نفهمه، وكي نحس به في نهاية المطاف. فاللقاء مع الآخر في هذا الآخر كي نكتشف أن هناك آخر في ذاتنا ونتحقق من أن هذا الآخر في ذاتنا هو ذاتنا الحقيقية مقارنة بما كنا نعتقده عن هذه الذات البرانية. كم نحن بعيدون عن عبارة «أنا مسرور بلقائك» المرائية التي نطلقها أحياناً كي ننهي موعداً يدخل الملل في نفوسنا، إذ إنه لم يحرك لدينا أي مشاعر أو اضطراب.

لقد أخرج كلينت إيستوود ولادة وقوة هذا الاضطراب، وهي القصة التي وضعها الكاتب روبرت جيمس وولر بعنوان جسور مقاطعة ماديسون، في فيلم سينمائي مؤثر. تمثل فيه ميريل ستريب دور امرأة من جذور جنوب إيطالية، مقيمة منذ عقود في آيوا في أميركا مع زوجها وولدين بلغا سن المراهقة. وحيدة في

المزرعة طوال أربعة أيام، حيث ذهب زوجها وابناها لحضور مباراة ثيران، التقت فرنشيسكا [اسم الممثلة في الفيلم] مع روبرت الذي يعمل مصوراً لدى ناشيونال جيوغرافيك خلال قيامه بإجراء تحقيق حول جسور أيوا التاريخية، وهي جسور مسقوفة مبنية من خشب ومطلية بدهان مميز للمنطقة. عاشا معاً مغامرة متفجرة عاطفياً غيرت لها وجودها. بعد هذه الأيام الأربعة -التي شكلت فترة مجنونة بدا أن كل حياتها تكشفت فيها-، وبعد تردد مضمّن، قررت فرنشيسكا أن لا ترحل معه وتترك منزلها، وتركته يرجع وحيداً. إلا أن ما تقاسماه من تجربة ملتهبة سوف يصاحبها إلى الأبد، ويغذي كل من أيام حياتها في المزرعة، والمتمثلة في روتين ربة منزل تقدّر زوجها وتحترمه، بعيداً عن ولعها المتفجر مع روبرت والذي تعيشه بمثابة كنزٍ حميم - مغامرة تدرج في أحلام الصبا في إيطاليا التي تركتها وراءها للعيش في أيوا مع زوجها وأولادها. ولقد طلبت في وصيتها أن يُنثر رماد جثتها في نفس المكان الذي نثر فيه رماد روبرت عند جسر لقائهما في أيوا.

في صميم هذه الأيام الأربعة التي أمضيناها في الكلام، والضحك، والتنزه، والاستحمام وممارسة الجنس، تجلّى جوهر هذا اللقاء في ملاحظة لفرنشيسكا تستعيد فيها الشعور بالاضطراب الذي ألم بها: «لم أعد أعرف نفسي، لدي الإحساس بأنني لم أعد أنا ذاتي... وفي الآن عينه، أشعر بأنني لم أكن أنا ذاتي فعلاً كما أنا الآن.» الاضطراب يتخذ هنا طابع

الدوار المطلق. فما تفعله لا يشبهها من حيث المبدأ. إذ لا تمنى مطلقاً خيانة زوجها الذي ليس لديها ما تأخذه عليه، إلا أنها راحت تنطفئ في حياتها معه، متباعدة تدريجياً عن ذاتها الحميمة، وغارقة في تكرار مهام الروتين اليومي. اللقاء مع روبرت كان أكثر كثافة وجدانياً، إذ لم تستطع مقاومة الموجه التي غمرتها فجأة، مستعيدة ذكرى شبابها في إيطاليا، ومزاجها المنطلق، وأنوثتها المتوقدة، وقوة جذوة الحياة في داخلها. فكل ما كانت نسيته من ذاتها وكيانها، تحت وطأة هذه الحياة الرتيبة الغارقة في «التفاصيل اليومية»، استيقظ فجأة أقوى مما كان سابقاً، وذلك لأنها التقت أحداً [روبرت]، ولأن عيني هذا الرجل ركزتا عليها وأشعلتا مشاعرهما. لقد سألتها هذا المصور التائه عن طريقه، وإذا بها تجد طريقها بدورها. وبالطبع، فهي ترفض التخلي عن كل شيء من أجله، وأن تذهب بعيداً عن أولادها، وأن تسبب إهانة لزوجها قد لا يستطيع تجاوزها. إنهم يسكنون في مزرعة تعود ملكيتها لعائلة زوجها منذ أكثر من مائة سنة، في قلب ريف حيث الكل يعرف كل شيء عن الكل، في وسط من المتشددین حيث تُؤلَّد أي خيانة زوجية عشرات السنين من الأقاويل والإدانة والنبذ. لا يجوز لنا إذاً أن نحكم عليها لأنها رفضت الانجراف في حب يقول عنه روبرت: «هل تعتقدین أن ما يحدث لنا، يحدث للعديد من الناس؟». وكما يدعونا الفيلم إلى إدراكه، فإنها تبقى في دخيلة نفسها وفيه، كما يستمر هذا اللقاء عبر حبها الذي يدوم، ولهذا البعد من كيانها الذي

اكتشفته خلال هذه المغامرة. بدا لها حب من هذا القبيل مستحيلاً، وللمفارقة فإن هذا الحب تحديداً هو ما أتاح لها من خلال إغناء حياتها الداخلية الجديدة، أن تستمر في زواجها من هذا الرجل الشريف الذي ينقصه الأساس العاطفي. وبفضل هذا اللقاء مع روبرت، وفي خضم ما ولّده هذا اللقاء من اضطراب في نفسها، اكتشفت أنها شخص آخر، وهذا الآخر الذي اكتشفته أصبح ذاتها الحقيقية التي ستصاحبها إلى الأبد. لقد خاطرت بخوض تلك التجربة الخارجة عن حياتها الطبيعية، وبعيش تلك الأيام الأربعة التي اتخذت طابع الأبدية وأعادت إحياء العاشقة الإيطالية الشابة في نفسها. أصبحت تعرف الآن أن الحلم يمكن أن يتحقق، وأن هناك في الحياة حالات فرح عميقة وتناغم وجداني سام، واستبداد قلب فائق، وليس مجرد روتين الحياة اليومية وقضاياها.

يكتب رينيه شار في عمله بعنوان الكلمة في الأرخبيل ما يلي: «يجب أن نضع أنفسنا خارج ذاتنا، على حافة الدموع وفي دائرة المجاعة، إذا أردنا أن يحدث شيء ما خارج عن المألوف، شيء مخصص لنا تحديداً». هذا تعريف جميل جداً لاضطراب اللقاء. ومع أنها لم تترك كل شيء من أجل روبرت، إلا أن هذا ما فعلته فرانثيسكا: وضعت نفسها خلال تلك الأيام الأربعة، «خارج ذاتها»، أي خارج هوية ربة المنزل الجامدة ذات الوجود الرتيب. لقد خاطرت بالانخراط في الدموع، وقد حدث فعلاً

«شيء يخرج عن الشائع المألوف»، شيء من أجلهما فقط، صدمة سوف تنتشر موجاتها في حياتهما حتى الممات، تبدو بمثابة انبثاق الحياة الحقة.

هذه القوقعة التي تتصدع في اضطراب اللقاء هي عادة قوقعتنا الاجتماعية [الوجه الذي نقدمه للآخرين في حياتنا الاجتماعية]. فإذا كانت الأنا العميقة تتصف بالتعقيد، والتحوّل، والغموض في الجزء الأكبر منها، فإن الأنا الاجتماعية هي على العكس أكثر بساطة، وجموداً. إنها ضرورية لعضويتنا الاجتماعية، إلا أنها تختزل وجودنا الحقيقي في المظاهر. إنها تظهر في بطاقة هويتنا، أو حين نقدم أنفسنا انطلاقاً من وظيفتنا المهنية، حيث نفتح النقاش بالسؤال: «وأنت، ماذا تفعل في الحياة؟» وهو ما يشكل مدخلاً سيئاً للتعارف، إذ هناك خطر اختزال الآخر في مجرد مهنته، وما يصحبها من مكانة. وهذا ما يمكن أن نطلق عليه تعبير «الصمغ الاجتماعي»: إذ يلتصق غالباً بجلدنا، وبمظهرنا، فيعيق حريتنا، وقدرتنا على الانفتاح على الآخرين، بل على ذواتنا أحياناً. إنه يربك تحركاتنا، ويضفي الغموض على أحكامنا، ويطمس فضولنا الإنساني. فكم من الرجال والنساء يحكمون على أنفسهم بالوحدة، بسبب عجزهم عن انتزاع أنفسهم من هذا الصمغ الاجتماعي الذي يلتصق بكيانهم؟ يقدّم الآخر نفسه لهم، مع إمكانية حدوث قصة تجمع بينهما، إلا أنهم لم يروا هذا الآخر، ولم «يعتبروه» حتى: إنهم لم يتيحوا لأنفسهم فرصة ملاحظته، متجنبين بذلك إمكانية اللقاء

وما يولّده من اضطراب، لأن هذا الآخر لا يتماشى مع معاييرهم الاجتماعية، ولا هو يندرج ضمن الخانات الاجتماعية المفضّلة لديهم. ولكن لحسن الحظ، فإن بعض اللقاءات تنتزعنا من هذا الصمغ الاجتماعي، محدثة صدمة قادرة على تصدع قوقعتنا. سيكون لهكذا لقاء عندها القدرة على خلق صدع في هذا «الأنا» الاجتماعي، مضيفاً مساحة من الحرية على هوية متجمدة.

«تعال، سأخذك معي»

مساحة الحرية نفسها تهب في مسرحية ماريفو لعبة الحب والصدفة، هذه المسرحية التي تخرج اللقاء ما بين سيلفيا ودورانت، اللذان رتبت عائلتهما زواجهما. طلبت سيلفيا، التي رُتِبَ زواجها من دورانت، من أبيها أن تلتقي بعريسها الموعود لأول مرة، وهي مقنعة بلباس خادمتها، وبحيث تتمكن من ملاحظته عن قرب دون أن يتعرف عليها. إلا أنه كانت لدى دورانت الفكرة ذاتها: حيث لبس ملابس خادمه كي يقدم نفسه لسيلفيا. وبالرغم من هذه الأقنعة، حدث الافتنان بين الاثنين، فأغرم أحدهما بالآخر. أخذهما اضطراب اللقاء العاطفي على حين غرة، رغم المظاهر التي تقنعا بها. إنها قوة اللقاء: إنه يملك القدرة على محو التوقعات، وإبطال التنبؤات، وإعارة خلط الأوراق. توقعت سيلفيا أن تكتشف خطيبها الموعود، وإذا بشخص آخر، تظن أنه خادمه، هو من يثير فضولها. والأمر ذاته بالنسبة لدورانت الذي يسأل الخادمة عن سيدتها ولكن يتبين له

أن الخادمة هي من تثير إعجابه. وخلال كلامه معها، تكتشف سيلفيا أنها قد اضطربت وقالت لنفسها: «على كل حال أعتقد أنه يسليني...» وعندها اعترف لها قائلاً: «أردت أنا ذاتي أن أكلّمك عن شيء آخر، ولكنني لم أعد أدري ما هو»، وهي من ناحيتها اعترفت له بالأمر ذاته: «كان لديّ من ناحيتي شيء ما لأقوله لك، إلا أنك أربكتني ولم أعد أدري ماذا أقول أنا أيضاً». وأعلنت عدة مرات أنها ستغادر، إلا أنها لم تتمكن من ذلك. تُبيّن لنا هذه المغادرة المسرحية التي تأجلت باستمرار الاضطراب المربك والممتع في آنٍ معاً.

من خلال اكتشافها لمشاعرها تجاه من اعتبرته خادماً دورانت، تعجبت من مقدار افتنانها به: «يا له من رجل بالنسبة لمجرد خادم!» وأخذت تعقّل نفسها: «لقد تنبؤوا لي بأن لا أتزوج سوى رجل ذي مكانة عالية»، ولكن لا جدوى، فحجج العقل لا تعود تنفع حين يخفق القلب. الحالة الاجتماعية ليست قَدراً: ذلك ما تذكرنا به بعض اللقاءات الفريدة. كم يمكن أن يكون هذا الانسلاخ عن الصمغ الاجتماعي محدثاً للمعارضة، ومولداً للارتباك في أحيان كثيرة. إلا أن سيلفيا أسعدها أن يكون دورانت جديراً بذلك. إذ إنها كانت أول من أدرك أن الفكرة ذاتها خطرت لهما، واكتشفت قبله هويتهما الحقيقيتين، وهلّلت لرؤيته وقد افتنن بمن كان يعتقد أنها خادمتها: «إذ يجعلني الثمن الباهظ الذي سوف يدفعه كي يحسم أمره أكثر تقديراً في نظري: إذ يعتقد أنه سوف يغضب والده إذا تزوجني، كما يعتقد أنه سوف

يخون جاهه ونسبه. تلك مسائل كبرى للتفكير فيها: سوف أكون مفتونة بانتصاري. إلا أنه يتعين عليّ انتزاع انتصاري هذا، وليس أن يقدمه لي...». فحتى ولو كانا من المستوى ذاته، وتزوجا تبعاً لرغبات عائلتيهما، فإن الاضطراب الذي يشعران به في هذه اللحظة يصدع هويتهما الاجتماعية: إنهما يطيعان اندفاع قلوبهما الذي يعتبر «غير لائق اجتماعياً»، وهو اندفاع أكثر إثارة ولذة لأنه يشكّل خرقاً للمعايير الاجتماعية.

فمن خلال زحزحة الأنا الاجتماعي، وتشويش وضوحه، وخلط حدوده، وأحياناً من خلال كشف الاصطناع، والخديعة، فإن اللقاء يعطي حق المكانة للأنا العميق الكامن. ومن هنا ذلك الإحساس بالغ الشدة الذي يحدثه في خضم الاضطراب، بأننا نحيا بكثافة، نحيا أخيراً. عندها لا يعد الأنا العميق يسمح بأن يُطمس من قبل الأنا الاجتماعي، بل هو يطغى عليه فجأة. يشير الاضطراب إلى الطريق الذي سرناه، في وقت قياسي أحياناً. كل شيء بدأ بالسؤال: «وأنت، ماذا تفعل في الحياة؟». أما الآن فنسمع صوت فرانس غال واقترحها المربك يرتفع قائلاً: «تعال، سأخذك معي».

2

أنا أتعرف عليك حين تشبه الصدفة القدر

يزيد إحساسٌ غريبٌ بالبداهة الاضطرابَ أحياناً. فأنا لا أعرف هذا الشخص الذي قابلته للتو، ومع ذلك فأنا متأكد: أنه هو. يمدّنا هذا الإحساس بنوع من الثقة تجاه المجهول الذي لم يعد مجهولاً حقاً. نلتقي شخصاً بالصدفة، ولكن كأنه كان يتوجب علينا أن نلقاه، وكأننا كنا على موعد معه.

يشكل انطباع الألفة هذا الذي نشعر به لأول مرة، برفقة شخص أصبح عزيزاً علينا، تجربة مشتركة. نشعر مباشرة بالارتياح معه، ويكون التفاهم متبادلاً. وهذا ما يُدخل الحيرة في النفس على الأقل: إذ كيف يمكن أن نشعر بالارتياح مع شخص غريب أكثر من ارتياحنا مع أناس نعاشرهم منذ أمد بعيد؟ يبدو وكأننا، من خلال هذا اللقاء، نستعيد الصلة مع إنسان معروف منّا؛ وكأننا بدلاً من أن نتعرّف على الآخر، فإننا سبق لنا أن عرفناه. فلدينا الانطباع أحياناً، منذ أول محادثة، بأننا وجدنا «توأماً الروحي»: إذ نتأثر بالأغنيات ذاتها، ونضحك للنكات ذاتها، ونمتعض من التصرفات نفسها. كل شيء يجري هيناً،

ومن دون بذل أي جهد، كل شيء ينساب انسياباً. وهو ما يدعو للتساؤل حول ما إذا سبق لنا أن كنا إخوة وأخوات... إذ بالكاد التقينا فإذا بنا نشعر برباط شبيه برباط القرابة، وبحالة عجيبة من القرب والتجاور.

فكيف يمكن للجديد والغريب أن يبدوا لنا مألوفين إلى هذا الحد؟ هذا اللغز يشكل لب هذا الكتاب. ولب أغنية الكلمات الزرقاء التي أداها كريستوف وعاد إليها آلان باشونغ والتي هي:

سأقول لها الكلمات الزرقاء
تلك الكلمات التي تجعل الناس سعداء
قصة حب من دون كلام
لا تعود بحاجة إلى الرسميات
وكل الخطابات المطولة والتافهة
ومهما كان أسلوبها يمكن
أن تحد من حرارة أشواق تلاقينا من جديد.

يروى هذا الكلام، الذي كتبه جان-ميشال جار، قصة رجل لا يجرؤ على التودد إلى امرأة، فيتخيل لقاءهما. فهو يراقبها، ويتردد. ويعود فيتنظرها دوماً في المكان ذاته. لم يجرؤ أن يكلمها بعد، ولكنه يتصور الكلمات التي يمكن أن يقولها لها، أو يتجنب البوح بها. فلماذا إذاً الكلام عن «تلاقٍ من جديد»؟ ماذا يلتقي من جديد بالضبط؟ قد تكون نظراتهما قد تلاقى، أو تكوّن لديه الانطباع بأنه يعرفها نظراً لطول مراقبته لها. إذاً، هو فعلاً

«يلتقي بها من جديد». ولكن ربما يستعيد كذلك شطراً من ذاته، من طفولته، من تاريخه، من عالمه السابق، أو من بعض الرجال والنساء الذين شكلوا كيانه... قد تبلغ صدمة اللقاء أحياناً حدّاً بحيث يتكوّن لدى الشخص الانطباع بأنه يكتشف معنى وجوده نفسه الذي قد يكون تباعد عنه - أي حقيقة قدره. إنه لم يسمع صدى صوتها بعد، إلا أنه يؤمن بما يحس به من داخله؛ ويثق بهذه الأحاسيس.

قال بول إيلوار: «ليس هناك صدفة، وإنما هناك مواعيد لقاء». قد يتمثل الأمر بموعد مع الآخر، أو موعد مع الذات أو المصير، وكلها موضوعات عزيزة على هذا الشاعر السوريالي. في كل الحالات، فإن شعور البداهة هذا - أو بصياغة أخرى شعور التَعَرُّف - هو ما يشير إلى أن اللقاء هو في طور الحدوث. أنا أتعرف عليك، أنت الذي لست غريباً عني. أنا أتعرف على ذاتي بمعنى أنني أعيد العثور عليها، أنا، أو شيء آخر أحبه، ذكرى بعيدة، أو حالة سبق لي أن خَبَرْتُها. أو أتعرف على مصيري الذي كان مخبأً تحت قناع الصدفة، بمعنى أنني أميط اللثام عنه. تتجلى إشارة اللقاء عندها في هذا الانطباع بأننا على موعد أبعد ما يكون عن مجرد الصدفة المحض: إذ يبلغ إحساس البداهة حدّاً بحيث يتخذ العفوي العارض مظهر القدر المصيري. حتى قد يحدث لنا أن نشعر في التعرف على آخر بنوع من الامتنان، لما يقدمه لنا الوجود عندها. أنا لا أعرف هل أنا ألاقيك أنت، أم أنني ألاقي ذاتي، أو مصيري، أو الثلاثة في آن

معاً. إلا أن البَيِّنَة البديهية جلية: هناك لقاء، وتعرّف، وهما تعبيران نقدر الآن قوة تعدد معانيهما.

لقد سبق لي أن رأيتك في مكان ما

«أعتقد أنني سبق لي أن رأيتك في مكان ما»، ذلك ما يقوله أحياناً المتحرش المفتقر إلى الإلهام العاطفي. هذه المقاربة المبتذلة، والتي يجب أن نُقِرَّ أنها غالباً ما تتصف بالسماجة، تفصح مع ذلك عن شيء من الحقيقة المتضمنة في كل لقاء: أي ذلك الانطباع بأنه سبق لنا أن عرفنا الآخر.

حتى يمكننا أن نؤكد أن هذا المتحرش يستدعي رغماً عنه إحدى أطروحات مينون لأفلاطون. يستكشف هذا الفيلسوف، في هذا الحوار الذي يتواجه فيه كل من مينون وسقراط، لغز التعرّف ثانية من خلال تحليله للقاء مع إحدى الأفكار. فمن أين يأتي ذلك الانطباع، في اللحظة التي نفهم فيها شيئاً ما لأول مرة، ونقوم بصياغة فكرة بوضوح، بأن هذه الفكرة بديهية، وأنه سبق لنا معرفتها؟ لماذا يشير فهم فكرة ما الإحساس بأننا بصدد إعادة اكتشافها؟ يشرح أفلاطون المسألة قائلاً إن المعرفة هي في الحقيقة إعادة التعرّف على هذه المعرفة، أو إذا أردنا استعمال كلماته ذاتها إنها «استعادة ذكرى من حياة سابقة». وتبعاً لهذا الفيلسوف، فإننا قبل أن نولد و«نحل» بجسدنا الفاني لمدة حياتنا الأرضية، كنا نَمَتْ إلى عالم الأفكار الأزلية، وهو العالم الذي نستعيده ثانية عند الموت والخلاص من حدود أجسادنا الفانية. وهكذا فإن فهم

فكرة ما هي في الواقع إعادة التعرّف عليها، كما سبق لنا أن عرفناها بشكل جلي وأزلي قبل أن نحل في جسدنا الأرضي. وهكذا فلقاء فكرة ما، هو نوع من العثور عليها من جديد.

حب سولال الصاعق لآريان في بداية قصة جميلة السيد (*Belle du Seigneur*) تحمل بدورها مذاق تلاق من جديد. يعبر أسلوب ألبرت كوهن المتألق بشكل جميل عن قوة هذه البديهة، وما يمكن أن تحمله من اضطراب لتلك الكائنات المزعومة أنها تتحلى بالتعقل والعقلانية التي نحن عليها:

«في تلك الأمسية في فندق الريتز، وهي أمسية القدر، ظهرت لي، نبيلةً بين جمع من المنحطين الذين يجرون وراء النجاحات والمتعطشين لحب الظهور، كانت ذات جمال أخاذ، وتفردنا هي وأنا من بين ذلك الجمع [...] ها هي، غير المتوقّعة والمنتظرة في آن معاً، وقع عليها الاختيار رأساً في أمسية القدر تلك، وقع عليها الاختيار من أول رفرفة لرموش عينيها الطويلة [...]. يقضي الآخرون أسابيع وأشهرًا كي يتمكنوا من الحب، أو القليل من الحب، ويتطلب الأمر منهم الكثير من اللقاءات والاشتراك في الأذواق والتوددات. أما بالنسبة لي، فكانت رمشة عيون كافية.»

كانت آريان غريبة تماماً بالنسبة لسولال ولكنه لم يشك لحظة واحدة: لقد التقى لتوه بالمرأة التي ستصبح زوجته. كان يكفي مجرد لحظة، مجرد «رمشة عيون». ولم يكن يحتاج لأي حجة أو

تفكير ولا لأي كلمة حتى . تعرّف سولال في آريان على تلك التي ستمحو كل الأخريات : «غير المُتَوَقَّعة والمنتظرة» . غير المُتَوَقَّعة لأنها تبرز فجأة، والمنتظرة لأنه يتعرف على تلك التي يرغب فيها، والتي قادتته إليها كل حياته الماضية، والتي كان بالتالي على «موعد معها» . لقد تعرف على «أُمَسِيَّة القدر» هذه في حين أنه تواجد بالصدفة في فندق الريتز .

ويتابع سولال قائلاً : «قولوا عني مجنوناً، ولكن ثقوا بي . مجرد رمشة عيون، ونظرت إليّ دون أن تميزني، وإذا بي أمام المجد والربيع والشمس والبحر الدافئ ومياهه الشفافة قريباً من الشاطئ، وإذا بشبابي يعود لي، وإذا بالعالم يولد من جديد، وعلمتُ أن لا أحد قبلها، لا أدريان، ولا أود، ولا إيزولد ولا أي واحدة من الأخريات في ريعان شبابي ؛ كلهن كُنَّ في خدمة قدومها ويعلنون عنه . نعم، لا أحد قبلها، ولا أحد بعدها» .

هناك فعلاً شيء «مجنون» في قوة هذه البديهة . إذ نمضي حياتنا في التردد، ولكن بعض اللقاءات لها القدرة على تخليصنا، بإشارة واحدة أحياناً، بمجرد «رمشة عيون» . فماذا توقظ فينا، مما لا يترك من مجال للشك؟ بماذا نلتقي عندها؟ بشيء، «بالحياة الحقة» على الأرجح، التي سوف نعاود الكلام عنها . نترك أنفسنا ننساق، رغم المخاطر . وفي خضم هذه المخاطرة، يطمئننا نوع من الشعور بالألفة، إننا على ثقة من الأمر . نشعر أننا في مكاننا في هذه الحالة من المجهول، وتلك هي العلامة بأننا التقينا بأحد حقاً .

يصور عبد اللطيف كشيخ في فيلم حياة أديل ، الحائز على السعفة الذهبية في مهرجان كان لعام 2013 ، لحظة التجلي هذه . كانت أديل تسير في الشارع عندما أبصرت إيما . على الرصيف ، هناك موسيقي يعزف على آله . كان شعر إيما أزرق وقصيراً ، وتمسك فتاة أخرى ذات شعر قصير أيضاً من كتفها . وعندما مرت أديل بجانب هذا الثنائي ، التفتت إيما نحوها ، كما التفتت أديل نحوهما بدورها - وتلاقت نظراتهما . تابعت إيما طريقها متأبطة ذراع صديقتها . إلا أن أديل جمدت في مكانها في وسط الشارع في شيء من الذهول . حتى أنها كادت تتعرض للدهس من قبل سائق دراجة نارية ، كما زمر سائق سيارة لتنبيهها . اعتقدت أديل أنها منجذبة إلى الرجال ، فهي عاشرت للتو شاباً من صفها الدراسي . إلا أن ما استحوز عليها الآن ، وفاجأها وطمغى عليها . . . يتمثل في بديهة : هذه البنت تحوز إعجابها . وجرفت هذه الرغبة التي لم تكن تعيها ، والتي طالما تجنبته قبل لحظة اللقاء هذه . وجدت نفسها مضطرة للاعتراف بما كانت تعرفه في صميم ذاتها دون أن تعيه : إنها تحب البنات . لقد التقت للتو بإيما . وبالتالي فإنها تعيش اضطراباً مزدوجاً . إذ تعرض وجودها للانقلاب رأساً على عقب . وبعد عدة أيام ، التقت بإيما من جديد في إحدى علب الليل برفقة أحد أصدقائها . سألتها إيما «ماذا تفعلين هنا؟» حين رأتها وحيدة في ذلك المكان . فأجابتها أديل «لا أدري ، لقد تبعت أحدهم ، أنا هنا بالصدفة» . ابتسمت لها إيما وقالت إن هذا النوع من الأماكن «غير مناسب لها

تماماً»... في حين أن إيما تشعر أنها في مكانها هنا، بين أصدقائها، وأنها تألف التواجد في هكذا مكان. إنها تكبر أديل بعدة سنوات، وهي واثقة من نفسها مع بعض الاعتداد بالذات. وليس هذا فقط. وإنما استمرت بالابتسام لأديل: «ليس هناك شيء اسمه الصدفة.»

3

لديّ فضول تجاهك

حين أرغب في اكتشاف عالمك

هناك فضول في ابتسامة إيما، في النظرة التي ألقتها على أديل. فأديل أصغر سناً ولا تعرف طقوس علبة الليل هذه. إنها تأتي من عالم آخر. وجودها في هذا النادي، واختلافها الصارخ يحيران إيما التي تريد أن تكتشف هذه الإنسانية، كما تشعر بالانجذاب نحو المجهول. هذا الفضول تجاه الآخر، وتجاه عالم الآخر القابل للتخمين، يمثل علامة دالة على اللقاء، مختلفة عن السابقة. إذ لسا هنا بصدد الإحساس الغريب بالقرب من كائن آخر، الذي كان مجهولاً بالنسبة لنا قبل لحظة، وإنما نحن بصدد الرغبة في الذهاب نحو اختلافه عنا، حتى ولو لم يكن مألوفاً لنا: نحن ننجذب لِمَا هو غريب عنا.

أن نلتقي شخصاً ما يعني أن نجد أنفسنا على عتبة عالم جديد، مأخوذين بالرغبة في اكتشافه؛ إنها دعوة للسفر. قد يكون سفرًا في الجغرافيا أو الثقافة حين يكون الآخر من عالم مختلف، أو هو يأتي من محيط مختلف - أي يحمل باختصار وعداً بولوج «الغريب المختلف». إلا أنه يمكن أن يحدث كذلك في قلب

الوسط الاجتماعي-الثقافي المألوف ذاته. فالفكر يمكن أن يحدث من خلال عبور الحدود الوطنية أو من خلال مجرد عبور الشارع، بالذهاب نحو آخر جد بعيد عنا أو قريب منا. فعالمه هو، على كل حال، مختلف دوماً، إذ بمجرد أن يلفت نظرنا، فإنه يقدم وجهة نظر مغايرة.

يصوّر فيلم سيدني بولاك الخروج من أفريقيا الحائز على سبع جوائز أوسكار، الهيام الغرامي ما بين الروائية كارن بليكسن التي تلعب دورها ميريل ستريب، ودينيس فينش هاتون المغامر، الذي يؤدي دوره روبرت ريدفورد. يتخذ اللقاء ما بين هذه الأريستقراطية الدانماركية والصيد الإنجليزي، طابع الصدمة بين الثقافات، وتجابه عالَمين مختلفين. فهي تلك الغنية مالكة المزرعة، وهو ذلك الطيار عاشق الحرية. هي تدير في مزرعتها عشرات الموظفين، بينما هو يقود زورقه وحيداً. إنها روائية كلاماً وكتابةً على حد سواء، بينما هو من الصامتين. نشعر في النظرات المتبادلة بين ميريل ستريب وروبرت ريدفورد، ومنذ البداية، ولادة ذلك الفضول المدهش. لسنا هنا بصدد حب من أول نظرة، وإنما بصدد رغبة شديدة ومتبادلة في اكتشاف الآخر. حدث لقاءهما في غابات أفريقيا. توقف القطار الذي كانت تسافر فيه كارن في محطة كي يُحمّل فيه دينيس أنياب فيلة. البارونة لم تنزل من القطار، والصيد لم يصعد إليه. إنه مجرد تبادل بعض الكلمات بينهما، وإذا بالقطار ينطلق من جديد.

كلمات بالكاد تكفي لتوليد رغبة في معرفة المزيد أحدهما عن الآخر. وخلال مغامرتهما الغرامية، نرى هذا الفضول يتصاعد، ذلك أن لغز الآخر يبدو صعباً على الاختراق: وكلما حاولا جلاء هذا اللغز أكثر، تزايد غموضه. ذلك هو بالفعل موضوع الفيلم الحقيقي الذي أُخرج كي يجعلنا نشعر بمدى عمق لغز الآخر. وهكذا نشاهد ثلاث مرات مشهد كارن ودنيس يتناولان العشاء على ضوء الشموع. يشكل تكرار المشهد ذاته نوعاً من المخاطرة: إذ يمكن أن يُؤلّد الضجر لدى المشاهد. ولكن شيئاً من هذا القبيل لا يحدث، لأن سيدني بولاك يطلعنا على تفرعات وتعدد وجوه هذا الفضول لعالم الشخص الآخر. فهو يبين لنا كيف يتغذى ويغتني من المعلومات جد المحدودة، ومن لحظات الصمت، وما لا يقال، وكيف يدفع برغبة شهوانية إلى الانبثاق كان لها مقدماتها. في مشهد آخر، تروي كارن قصة بعد تناول الوجبة بينما ينظر إليها دنيس بصمت: فهي لا تتكلم عن نفسها مباشرة، وإنما من خلال روايتها، يدخل شيئاً فشيئاً في عالمها. وفيما بعد، وفي مشهد أصبح شهيراً، يغسل دنيس شعر كارن بماء مأخوذ من جدول أحد الأنهار. وحين توجه نظرة عينيها نحو دنيس، تذهب فجأة بعيداً في الخيال. يحرص بولاك دوماً على تصوير هذا الفضول كي يأخذنا إلى مكان آخر ويدعونا إلى قلب اللقاء الخافق. «تعال، سأخذك» في رحلة إلى عالمي.

«أنت لا ترغب أبداً بشخص ما أو بشيء ما»، يشرح لنا

جيل دولوز في ألف باء دولوز، عند الحرف D الذي يشكل الحرف الأول من مفردة الرغبة بالفرنسية (Désir). إننا نرغب في «مجموع». أو بتعبير أدق: نحن نرغب «ضمن مجموع». إننا نرغب في عالم بأكمله، ذلك العالم المرتبط بالكائن الذي التقيناه، والذي لا نتبيّن في البدء إلا ملامحه الأساسية، عالم مكوّن من عادات، وإيماءات، وأصدقاء وأعداء، وانفعالات، وإدراكات، وذكريات... يُلخّض جيل دولوز مجازاً طوره مارسيل بروسست في عمله بعنوان في ظل فتيات في ريعان الصبا: «إننا لا نرغب بمجرد امرأة، وإنما بمنظر طبيعي كامل مغلف في هذه المرأة.» اللقاء، هو أن نرغب في بسط هذا المنظر كي نتمكن من التنزه فيه. وأن نحب الفكرة القائلة بأن ذلك سوف يستغرق وقتاً، وأننا لا نعرف ماذا سنجد فيه تحديداً وبشكل مسبق. كما يقول دولوز كذلك: «أن نرغب يعني أن نبني ترتيباً، أن نبني طاقماً متناسقاً» حول موضوع الرغبة. الفضول والرغبة لا يتعاملان إذاً مع الآخر كمجرد موضوع، وإنما يشملان كل هذا الترتيب، وكل هذا الطاقم المتناسق المبني حوله. لديّ فضول تجاه كل عالمك، وكل ما يتعلق بك، ويتمحور حولك.

يتمتع هذا الفضول تجاه الآخر بفضيلة معينة: إنه يستمر. نحن دوماً على تواصل مكثف، وننادى من كل صوب، وتقاطعنا إشعارات الهاتف الذكي من دون توقف، وبالتالي نحن في خطر فقدان حس الديمومة، وصياغات القضايا والأمور، والتعمق في الأشياء والروابط. وحيث يتشتت فضولنا فيما لا يُعد ولا يحصى

من الأشياء، فإننا نتعرض لخطر عدم التركيز على أي شيء والاهتمام به؛ فالفضول يتطلب توفير الوقت الكافي له. أن نلتقي أحدهم، يعني اكتشاف عالم رحب قد لا نستطيع أبداً الإحاطة بكل أبعاده، كما يعني أن نشعر بفضول ذاتي لا ينضب بسرعة وسهولة، وأن نفهم أيضاً أن لغز كائن آخر لا يمكن أن يُكتشف خلال بضعة أيام محدودة. ذلك ما يمثل وسيلة للإفلات من الهياج والتشتت المميز للعصر الذي نعيشه، كما يمثل أحد أجمل وعود اللقاء. فأي سعادة، وأي مفاجأة أن ننتزع في النهاية من هذا التشتت والتبعثر بواسطة قوة الفضول المُلِحِّ والمستمر.

كان سيدني بولاك حتى قبل أن تخطر بباله فكرة فيلم الخروج من أفريقيا، قارئاً جاداً لعمل كارن بليكسن بعنوان المرأة الأفريقية، سيرتها الذاتية، وكذلك لمجموعة القصص بعنوان طرائف القدر. كان يأمل في متابعة استكشاف عالمها، وتعميق اللقاء الفكري معها، والتعرف بشكل أفضل على تلك التي طالما أحب كتبها. فقرر حينها أن يُخرج سينمائياً ذكرياتها. ووُلِدَ الخروج من أفريقيا من ذلك الفضول تجاه عالم الآخر، وليس مستغرباً بالتالي أن يرويه في فيلمه بهذه الدرجة من الجودة.

عشت لقاءً من هذا القبيل مع أستاذاً في الفلسفة في شهادة الثانوية العامة، والذي أصبح فيما بعد أحد أقرب أصدقائي إليّ؛ ولقد حضرْتُ بعد خمس وعشرين سنة شعائر جنازته ودفنه. فأن

أقابل برنار كليرتيه، كان يعني أولاً وقبل كل شيء اكتشاف عالم بأكمله، يعاشر فيه أفلاطون وهيغل بالطبع، ولكنني فهمت فيما بعد أنه كان يعاشر على قدم المساواة منتجي النبيذ الفاخر من بوليني-مونتراشيه وسافيني-لي-بون [مناطق في وسط شرق فرنسا مشهورة بنبيذها] ولاعبي التنس المشهورين، وبحارة منطقة بريتاني - وهو عالم نتجول فيه بسيارة فولكس فاغن غولف حمراء قديمة، ونقرأ فينومينولوجيا الروح لهيغل، كما نقرأ جريدة الفريق عن أخبار كرة القدم. كنا كثيراً ممن يدينون لهذا الأستاذ الذي جعلنا نحس بهذا الاندفاع الحيوي للكائن نحو مجالات المجهول، ونكتشف ببساطة الفضول. فلقاء مادة أو معرفة، يصحبه غالباً لقاء كائن آخر، وهذا الفضول الذي يثيره هذا الكائن الآخر تجاه مادته لا ينفصل عندها عن الفضول الذي يتولد لدينا تجاهه. فهل كنت فضولياً ومهتماً إلى هذا الحد بفكر هيغل أو سبينوزا لو لم أكن فضولياً ومهتماً بشخصية برنار كليرتيه؟

في نظرة استرجاعية إلى الوراء، أعتقد أنه ليس بإمكانني أن أفصل الاهتمام بالفلسفة الذي أيقظه في نفسي عن لقائي معه، وعن سخريته وتهكمه على غرار شباب الضواحي (إذ كان يعمل في مخزن في سوق الجملة في باريس في شبابه)، وكذلك محاكاته للمغني غينسبور، وحالات غضبه التي تتصف بالصبيانية وسجائر الغولواز التي كان يدخنها في قاعة الصف. لم يكن عالم سبينوزا ينفصل عن عالم برنار كليرتيه؛ إذ وَجَدْتُ فجأة حينها ألف سبب وسبب كي لا أركز على ذاتي وقيافتي. لم أكن أعرف

ذلك حينها، إلا أن هذا الفضول كان يتوسع باستمرار خلال سنوات صداقتنا. ولسخرية القدر، إذا بها تتغذى يوم دفته بعنصر جديد، دفعني إلى إعادة قراءة جزء كبير من تاريخه الشخصي. إذ خلال قيام أشقائه بتأبينه، عرفت عنصراً من حياته لم يبح لي به، وهو عنصر يتناقض كلياً مع تاريخه كما دأب على روايته لي. إذ حتى في مماته استمر برنار كليرتيه في إثارة الحيرة في نفسي... فالفصول تجاه عالم الآخر يمكن حتى أن يدوم بعده.

فلنعد إلى لقائنا الأول الذي كان قبل صف نهاية الثانوية، في باحة المدرسة، أتمكن اليوم من فهم ما هو الرباط الذي عُقِدَ بيننا في تلك اللحظة. كان يتناقش مع بعض تلامذته المدخنين مثله. صدف أن كنت بالقرب ووجدت نفسي منخرطاً في هذه المناقشة. وقبل أن يدخل إلى قاعة دروسه، سألني في أي صف كنت وتبادلنا بعض الأحاديث السريعة. كنت في الصف الثاني الثانوي الفرع العلمي: وبالتالي فلن يكن أستاذاً للفلسفة في السنة التالية لأنه كان لا يُعَلِّم إلا طلاب الفرع الأدبي... أتذكر أنه كان ينظر إليّ وهو يأخذ نفساً من سيجارته عندما كنا نناقش رواية الغريب لكامو. كنت مبهوراً بهذه الرواية، بينما كان من جانبه أكثر تمايزاً. كانت له تلك النظرة التي أصبحت من بعد مألوفة لي، حافلة بالابتسام وبالتعب، وكذلك بالرقّة، مما يعطيك الانطباع أنه يقرأ فيك، وبعمق. وحين تركنا الساحة وتوجهنا إلى قاعات الدرس، اقترح عليّ ضاحكاً أن أغيّر مساري، وأن ألتحق بالفرع الأدبي. كما أضاف نكتة حول أستاذ الفلسفة الذي سوف

ينتظرني إذا ما استمررت في الفرع العلمي : «إنه مصيبة حقاً، لقد كان أحرى به أن يعمل في نادٍ بصيف»، وأطفأ سيجارته بقدمه على درج السلم المؤدي إلى قاعات الدراسة.

وبعد عدة شهور، اتبعت نصيحته وغيّرت مساري إلى الفرع الأدبي. لقد كان لدي فضول كبير تجاه عالم برنار كليرتيه بحيث قررت الانخراط في مغامرة الالتحاق به.

4

أنا أرغب في الانطلاق حين يمدني الآخر بجناحين

يطلق اللقاء أحياناً مشروعاً جديداً كذلك . فعالم الآخر يهمننا أقل من كل ما سوف يمكننا بناؤه معاً . وتتمثل العلامة الدالة على اللقاء عندها في تلك الإثارة التي يولدها فينا هذا المشروع : تلك الرغبة في الانطلاق والانخراط العاجل ، والثقة بأننا سوف نشكل معاً فريقاً متضامناً لتحقيق أشياء كبرى . إذ يمدنا لقاء الآخر بجناحين ، حيث سنضم مواهبنا كي نخلق معاً كائناً أكبر من مجموع أجزائه ، أي سنبرهن أن $1 + 1 = 3$.

لا يُفسّر ذلك بل يُعاش ، ويدرك ، ويتم الإحساس به : فاللقاء يولّد رغبة ، ويفتح مجالاً للإمكانات الجديدة التي يجب الانخراط فيها . يكتب آلان قائلًا : « يتمثل سر العمل في الانكباب عليه » . معك ، أنا لا أتردد ولا ثانية واحدة ، وأريد أن أقيم هذا المشروع ، وأن أوّسس هذه الشركة . معك ، أريد أن ألتزم ، وأن أناضل . معك ، أريد أن أنجب طفلاً . إذ إنه عند كائنات العلاقة الذين نحن منهم ، سوف يكون الانخراط في مشروع أو في قضية مشروطاً غالباً بلقاء أصيل . قد أكون فكرت

بالالتزام، وقد تكون هذه الفكرة تعتمل في نفسي منذ فترة، إلا أن لقاءنا هو ما أطلقها: فالدليل على أنني لاقيتك، يتمثل في كوننا انطلقنا معاً.

في سيرته الذاتية بعنوان حياة، يشير كيث ريتشاردز إلى لقاءه مع ميك جاغر في العام 1960، على رصيف محطة دارتفورد، في ضواحي لندن. كان عمره سبع عشرة سنة حين تعرف على ذلك الوجه في مقابلة: «كنت أمسك إحدى إسطوانات تشاك الموسيقية عندما اقترب مني شاب سبق أن عرفته في المدرسة الابتدائية [...]». كان لديه كل الإسطوانات التي أنجزها تشاك بيرى، وكذلك إسطوانات كل من جيمي ريد، ومادي ووترز، وتشاك، وهاولن وولف، وجون لي هوكر [...]. وباختصار، كان هذا الشخص الذي في المحطة يدعى ميك جاغر». تناقشا للحظات واتفقا على لقاء ثانٍ كي يلعبا بعض أنغام البلوز لكل من بودي هولي، وأيدي كوكران، وتشاك بيرى... وما كادا يعزفان حتى فرضت البديهة ذاتها، إذ سرعان ما اتفقا، وشعرا بلذة لا توصف: لا بد لنا إذاً من الانطلاق وتكوين فرقة. فكلاهما موسيقيان، ومعتادان على العزف مع أشخاص متنوعين. إلا أن ما شعرا به في ذلك اليوم كان مختلفاً تماماً: إذ تكون لديهما الانطباع غير المسبوق بأن مجال جديد من إمكانات ينفتح أمامهما، وأن قدرة أحدهما تزداد من قدرة الآخر، من مجرد لقاءهما معاً. فأن تكون لدينا قدرة لا يعني أن نأخذها من

الآخرين، وإنما أن نعطيهم إياها. ذلك ما تبيّنه كبريات اللقاءات المهنية: فعندما تحدث الشراكة الجيدة، فإن قدرة كل طرف تزداد، وذلك تبعاً لقانون يخرج عن منطق الحساب والذي يتخذ عندها شكل $1 + 1 = 3$. وبعد فترة وجيزة، انضم إليهما برايان جونز، وهو عازف غيتار من محبي مودي ووترز، والذي رغب أن يسمي فرقته رولينغ ستونز، تكريماً لذكرى إحدى أغنياته الشهيرة...

لن تكون العلاقة بين ميك جاغر وكيث ريتشاردز سهلة دائماً: ففي سيرته الذاتية، سوف يأخذ كيث ريتشاردز على ميك جاغر نرجسيته، وتنطحه لقيادة فرقة الستونز، ورغبته في السيطرة على كل شيء، وفي كونه أصبح المسافر الدائم الباحث عن الظهور والشهرة والذي خان بذلك روحية الروك، والمحامي لعالم الوجاهة، وذلك على عكس كيث ابن العامل الذي حرص على التشبث بأصوله... سوف يكون هناك بينهما دوماً نوع من التنافس، وخصوصاً أنهما يؤلفان الأغاني معاً أحياناً، وكل منهما بمفرده في أحيان أخرى. إلا أن حدسهما الأول سوف يتأكد ويترسخ من خلال إنجاز ستين ألبوماً، وحفلات عملاقة، وأغانٍ جعلت منهما إحدى أهم فرق موسيقى الروك في كل العصور: فتضافر مواهبهما ولّد إبداعات مميزة. إننا بصدد أكثر من مجرد تشارك وأكثر من إضافة مواهب إلى بعضها البعض: نحن بصدد لقاء حقيقي. فيكفي أن نستمع إلى بعض أعمالهما الشهيرة كي نتحقق من تلك الخيمياء الغامضة التي لا تُفسّر بمجرد تحليل نوع

من التكامل . فالأمر ليس مجرد تناغم صوت ميك جاغر مع تقاسيم الغيتار واللباس ، ولا مجرد تكامل طاقة ميك الشهوانية مع تراخي كيث ولا مبالاته . ذلك أن كلا منهما مُغَنٍّ وعازف غيتار في الآن عينه فلو كانا يتكاملان فقط ، ل بقي كل منهما في موقعه . إذ أحدث لقاؤهما نوعاً من المعجزة : حيث حلق صوت ميك جاغر على تقاسيم غيتار كيث ريتشاردز وترك أثره المميز في النفوس . فمن خلال لقاؤهما ، اندمجت طاقاتهما كي تولد أعمالاً فريدة تفجر رغبة مجنونة في الحياة . ويمكن الإحساس بشكل أفضل بقوة هذا اللقاء من خلال التصوف وليس من خلال مجرد الجمع الحسابي ، فلا ندري في النهاية تحديداً ما هو سر هذا النجاح الباهر . وكرمز لهذا الثنائي الذي تحول إلى وحدة ، أصبح «جاغر/ ريتشاردز» التوقيع المشترك لأغاني كل من ميك وكيث المنجزة معاً ، وتلك التي ألفها كل منهما بمفرده ، وذلك تماماً على غرار «لينون/ ماك كارتني» في فرقة البيتلز . إذ يتم تجاوز الفردية والتفوق عليها من خلال هذه التوليفة الفريدة . وإنه لمن المثير التفكير من خلال إعادة الاستماع إلى بعض أغانيهما الشهيرة ، أن هذه الأغاني لم تكن لتوجد إطلاقاً لولا هذا اللقاء على رصيف محطة قطار في ضواحي لندن ، وأنها نشأت من شعور الإثارة الذي غمرهما أول مرة عزفا معاً .

إننا نستمع إلى أغنية للستونز وليس إلى أغنية لميك جاغر وكيث ريتشاردز ، تماماً كما نستمع إلى أغنية للبيتلز وليس إلى أغنية لبول ماكارتني وجون لينون . فموسيقاهما تتيح لنا أن نفهم ،

وبشكل ملموس، ماذا يعني أن «نكون معاً» بمثابة جمع يتجاوز عناصره. ويمكننا جميعنا، على غرار كيث أو ميك، أن نشعر، حين نلتقي أحداً، أننا سوف نخترع شيئاً ما. وتبرهن لنا هذه الإثارة أننا لسنا متعلقين بشخصنا المحدود وحده، ولا بمجرد مهارتنا وحدها، بل إننا نتطلع إلى خوض مغامرة جماعية تجعلنا أكثر قوة. وبفضلها، سوف نتجاوز ذواتنا، بالمعنى النبيل للكلمة: أي أننا سوف نخلق شيئاً أكبر من كياناتنا الفردية.

وما ينطبق على فرقة موسيقية ينطبق من باب أولى على الثنائي الزوجي أو الغرامي. فكيف يمكننا أن نكتب أن «الواحد والواحد يساوي ثلاثة» من دون التفكير بإنجاب طفل؟ وكيف يمكننا التفكير بـ «كل يتجاوز مجموع أجزائه» من دون التفكير بالأسرة؟ وإذا كانت اللقاءات الغرامية تبدأ عادة بإحساس بالاضطراب، وشعور بالبداهة أو فضول جميل تجاه الآخر، فإنها يمكن أن تتعمق، وأن تجد دفعة جديدة أو حتى حقيقة مغايرة في هذه الرغبة في الانطلاق في مغامرة معاً: تكوين أسرة، إنجاب طفل، أو حتى مجرد العيش سوية، وترك عالمنا الذاتي كي نخلق عالمنا معاً.

قد يحدث أحياناً أن نفضل عاداتنا الشخصية المريحة، وتلك الحياة المركزة حول فرديتنا، وهمومنا ومشاغلنا ورغباتنا. إذ إن التفكير بالعيش معاً أو بتأسيس أسرة قد يقلقنا أكثر من أي شيء سواه، حتى أنه يدفع بنا بعيداً عن احتمال العيش معاً: إذ إننا نرى فيه سلسلة من الضغوط والإرغامات والمسؤوليات التي لا

نرغب في تحملها ولا حتى قدرة لنا عليها. ولكن حين نلتقي الشخص المناسب، فإننا نتجاوز، وبشكل فوري أحياناً، كل هذه القيود، وتتبخر كل مخاوفنا، وتتلاشى كل هواجس قلقنا. وتتمثل علامة اللقاء عندها في شعور الحرية الوليدة هذه. وانطلاقاً من ذلك، تبرز الرغبة لدينا في الإقدام على المغامرة. وذلك لأننا لم نعد وحيدين. ولأننا وجدنا الشخص المناسب، فإن الانطلاق في المغامرة يصبح أكثر إثارة وشوقاً من كونه مقلقاً. وعندما يُحدث اللقاء آثاره هذه، وفي غمرة هذا الحماس المستعاد، وهذه الجرأة المتجددة، يتبين لنا كم كنا مخطئين في اختزال وجودنا إلى فرد يواجه العالم لوحده. كنتُ خائفاً من الانطلاق لأنني لم أكن أرى إلا ذاتي في مقابل العالم، إلا ذاتي ومسؤولياتي، وذاتي وقلقي... ولقد نسيت أن الجوهرى يمكن أن يأتي من خارج ذاتي. ونسيتُ أن الطبيعة العلائقية هي الطبيعة الحقة المميّزة للإنسان. ونسيت أنه لا تنقصني المهارة أو الخصال القادرة، ولا حتى الشجاعة... وإنما ما ينقصني، بكل بساطة، هو أنت. أنت ذلك الكائن الذي ليس هو أنا، وإنما الذي من دونه لا يمكنني تحقيق ذاتي.

منذ حدوث اللقاء، لا يعود الجوهرى يتمثل فيما سوف أحققه أو لا أحققه، وإنما هو يتمثل عندها فيما سوف نحققه معاً. ومنذ اللحظة التي أحس فيها بإمكانية اختراع جماعي، فإنني أتخذ مسافة تخلصني من مخاوفي أو حالات قلقي المتعلقة بماضي وتاريخي، كما تفعله أنت ربما مع مخاوفك وقلقك. هنا

يشتغل سحر المعادلة التي تنص على أن $1 + 1 = 3$ أي أن ألف يلتقي بباء وألف وباء يصبحان أكثر من مجرد ألف + باء. فلقاءك يفتح لي مستقبلاً، أشعر أنه قد نبت لي جناحان كي أطيّر إليه. صحيح أنني كنتُ أدعي أنني لا أريد طفلاً، لكن لم أكن قد التقيتك بعد، وإنما أن ننجب معاً طفلاً فذلك أمر مختلف تماماً. أن ننجب معاً طفلاً يغيّر كل شيء، فسنكون مسؤولين معاً، ونتحمل القيود معاً، ونصبح والدين معاً. ذلك ما يشبه المغامرة أكثر مما يشبه العبء. حين ألاقيك، أكتشف قوة الحرية فيّ التي كنت أجهل قوتها. كل شيء في هذا المسار الجديد يشير إلى تجاوز كياني الشخصي المحدود: فالمشكلات والمخاوف لم تعد مقتصرة عليّ وحدي، والطفل أصبح طفلنا وليس طفلي وحدي. وإذا لم أفكر أبداً بترك مدينتي، أو بلدي، وإنما الآن صرت أخطط للعيش معك في مكان آخر نربي فيه أطفالنا، فما ذلك إلا نتيجة للقاء الذي تمثل هذه المشاريع الدلالة عليه.

وبالطبع فإن إنجاب أطفال أو تأسيس أسرة لا يتضمن بالضرورة أن يكون هناك لقاء حقيقي. ففي القرن التاسع عشر، على سبيل المثال، كان بعض الأزواج ينجبون الأطفال وهم بالكاد يعرفون بعضهم بعضاً، بينما يعيشون حياتهم الغرامية خارج إطار الزوجية. ويمكننا راهناً اتخاذ قرار إنجاب طفل من خلال التلقيح الاصطناعي، ومن دون لقاء «المانح» أو من دون التفكير بالزواج... كما يحدث كذلك أن يجعل مشروع تأسيس أسرة - الناتج أحياناً عن ضغوط المجتمع، خاصة في الأوساط

المحافظة - اللقاء ذا مرتبة ثانوية. ولكن عندما يُؤلّد اللقاء الرغبة في إنجاب طفل، ويكون هذا اللقاء في أساس مشروع الإنجاب ويجعله مرغوباً، فإن هذه الرغبة الشديدة في الإنجاب تعبّر عن قوة اللقاء ذاته: ففي قلب هكذا لقاء، نحس باتقاد إمكانية أن واحداً زائداً واحداً يساوي ثلاثة.

وفيما بعد، وحين يعطي اللقاء ثماره، فإننا نتذكر بشوق ذلك الحماس الأولي، وتلك اللحظة التي بدا لنا فيها كل شيء ممكناً. وسنصبح عندها مثل ميك جاغر وكيث ريتشاردز اللذين يتأملان والعرق يتصبب من وجهيهما آلاف الحضور الذين يرددون أغنياتهما. وسوف نصبح مثل كل الآباء السعداء برؤية أولادهم يكبرون ويستقلون عنهم. وسنشعر بالفرح يملأ قلوبنا لأننا أنجبنا ما يتجاوز أشخاصنا.

5

أنا أكتشف وجهة نظرك حين أمرُّ بتجربة غَيْرِيَّتِكَ

أن نلتقي أحداً ما، يعني اكتشاف وجهة نظر أخرى حول الأشياء، كما يعني المرور بتجربة تغيير في علاقتنا بالعالم. فمنذ أن التقيتك، لم أعد في مركز عالمي، ولم أعد تلك الوحدة المستقلة التي تدرك العالم من موقعها الذاتي وحده. أنا أرى الأشياء الآن من خلال نظرتك أيضاً. وحين يبرز أحد أخبار الساعة، يتكوّن لدي الانطباع أنني أعرف كيف ستلقاه. أحضر محاضرة من نوع ما، وأتخيل الأفكار التي توحىها لك. أستمع إلى أغنية وأحمن ما إذا كانت تحوز على رضاك. وحين نذهب إلى السينما سوياً، أستطيع أن أرى الفيلم بعينيك كذلك. وحين الخروج من القاعة، غالباً ما تؤكد لي حدسي بأنك قد تأثرت بأحد مشاهد الفيلم. وكوني قد التقيتك وتبنيت وجهة نظرك حول العالم لا يمنعني من أن أحتفظ بنظرتي، وذوقي ورؤيتي الخاصة، إلا أنها تكون قد اغتنت بنظرتك أنت. وهكذا أكون قد شاهدت الفيلم مرتين، مرة بعيني والأخرى بعينيك. ومنذ أن التقيتك، أصبحت أرى العالم كله مرتين، بعيني وبعينيك.

وكون المرء لم يعد يشكل «مركز» عالمه هو مثير ومربك في آن معاً. إنه مربك لأنني أصبح منتزِعاً من أسلوبِي المعتاد في رؤية الأشياء. وهو مثير لأنني أستوعب العالم عندها بشكل مغاير: أي أكتشفه بعيون غير عيوني. «الآخر يسرق عالمي مني»، هكذا يكتب سارتر واصفاً تجربة الغيرية الأليمة هذه، والتي قد لا تحدث مباشرة. بل يتعين تكرار تجارب تغيير النظرة هذه كي نصل بالتالي إلى وجهة نظر الآخر. يشير اكتشاف الغيرية هذا إلى أن اللقاء قد حدث فعلاً وبدأ يُحدث مفاعيله.

نحن نعرف، بالتأكيد، أن الآخر موجود، ولكن التلاقي معه حقاً، والمرور بتجربة اختلافه عنا، يتطلب المزيد. أنا أعني وجود الآخر حين يسد طريقي في السيارة، إلا أنني لا أكون قد التقيت معه في هذه الحالة. أكون واعياً بوجوده حين يضطرنني عملي للتعاون معه، إلا أنني قد لا ألاقيه بالضرورة، في هذه الحالة. وحتى في ممارسة العلاقة الجنسية، الآخر موجود معي، ولكن لا شيء يكفل أن يتم اللقاء الفعلي في كل مرة.

وفي المقابل، عندما يصبح هذا الأخير حبيبي، أو صديقي، أو قريني، وعندما لا أعود أستطيع أن أعيش حدثاً ما من دون أن أخبره من خلاله في الآن عينه، عندها أعرف أنني تلاقيت معه حقاً: وهنا أعيش ديمومة تجربة غيريته، واختلافه عني حقاً.

إنها لتجربة غريبة فعلاً: فإذا كان الآخر آخر حقاً، فكيف

يمكنني عندها أن أضع ذاتي مكانه؟ أولاً يشكل اختلافه فجوة تمنعني من الوصول إليه، وفهمه، ولقائه؟ أوليس اللقاء مع الآخر مستحيلاً بالأساس؟ ولكن لحسن الحظ تبين لنا التجربة العكس: لا يشك معظم الأصدقاء، والعشاق، والمحبين مطلقاً أنهم قد تلاقوا... ولكن كيف لنا أن نتأكد أن هذا اللقاء حقيقي فعلاً، وأننا لسنا بصدد أن نتوهم ونخدع أنفسنا؟ يتم ذلك تحديداً من خلال ملاحظتنا، يوماً بعد يوم، أننا قادرون على الخروج من التمرکز حول ذاتنا: وكلما نجحنا في رؤية العالم من خلال عيني الآخر، فإننا نُكذِّبُ هذه الاستحالة النظرية. فالحياة أقوى من النظرية: ففي كل مرة يتجلى لي العالم بشكل مغاير لأنني أكتشفه من خلال عيني، أعرف تماماً أنني التقيتك.

فلنحلل مع الفيلسوف آلان باديو ماذا يحدث في اللقاء الغرامي: «الحب [...] هو بناء، إنه حياة تُصنَّع، ليس فقط من وجهة النظر الأحادية، وإنما من وجهة النظر الثنائية». ويتطلب هذا البناء، ككل بناء آخر وقتاً: الوقت اللازم لاكتشاف الآخر، وإلى أي حد يرى الأمور من زاوية مختلفة. إذ «لا ننتهي أبداً من الإحاطة بالآخر»، كما يكتبه آلان باديو بشكل جميل. كيف يمكن المخاطرة في اكتشاف هذا العالم من دون حب، أو من دون صداقة؟ كيف يمكننا هكذا محاولة المستحيل: أي أن نرى العالم بعيني كائن آخر؟ كي نأمل في الوصول إلى ذلك، يجب التحلي بمشاعر تدوم: مشاعر صداقة أو مشاعر حب. ومن دون هذه

المشاعر، فإن التجربة العقلانية في تغيير وجهة النظر ستستحيل ببساطة. فمن دون صداقة أو حب، سوف نكون عاجزين عن خوض تجربة الغيرية هذه.

ذلك هو المعنى الملغز لتوكيد أفلاطون القائل: «من لم يحب أبداً لا يمكنه أن يتفلسف». وإذا تَمَثَّلَت الفلسفة بالخروج من سجن الذات في رأيها الخاص كي تتعلم التفكير «ضد المنحى الذاتي»، فإن الحب يدخلني عندها في الفلسفة لأنه يعلمني أن أضع ذاتي في مكان الآخر، ورؤية العالم انطلاقاً من وضعية تتمثل بالاختلاف والمغايرة وليس بالهوية والأنيّة. وإذا لم أعد أر الأشياء كما هي، انطلاقاً من هويتي وحدها، أي «من وجهة نظر الواحد الفريد»، وإنما انطلاقاً «من وجهة نظر الثنائي»، فيعني ذلك أنني التقيتك، وأن الحوار قد بدأ. ذلك الحوار الذي يستمر في كل مرة نناقش فيها فيلماً حين الخروج من قاعة السينما، وفي كل مرة نتحقق فيها من الفارق في رأيينا حول موضوع عام، ونقيس إلى أي مدى نحن مختلفان. هذا الحوار الذي يبدأ عادة وبشكل أكثر تكراراً قبل اللقاء الفيزيقي، سواء على الهاتف أو أمام شاشة الحاسوب، وسواهما من وسائط الاتصال المتزايدة الانتشار، واستطالة هذه الدردشات ومدتها قبل أول موعد للقاء تتيح لنا في النهاية أن نألف بشكل أفضل وجهة نظر الآخر.

وعملياً، يمكن للانفتاح على وجهة نظر الآخر أن يبدد

العديد من حالات سوء التفاهم، وإنهاء العديد من الأزمات. فلنتخيل زوجاً جرحاً مشاعره لأن زوجته قبلت دعوة شخص آخر إلى الغداء. يشغل هذا الأخير نفس منصبها في شركة منافسة - فالنقاش معه يمكن أن يؤدي إلى نتيجة مفيدة -، إلا أنه سبق له أن حاول التودد إليها. يأمل الزوج أن تصد زوجته هذا الرجل بحزم. فتناول الغداء معه يعني في نظر الزوج أنها تشجعه، وتبدي استعدادها لأن تلعب اللعبة معه. عندها يشعر الزوج بالخيانة، لأنه لم يتبنَّ وجهة نظر زوجته. فهي لم تنسَ محاولات التودد منها، وإنما فضلت تجاهلها في مقابل أن لا تفوتها فرصة نقاش قد يكون مفيداً في العمل؛ وبالتالي فهي تتصرف وكأنه لم يتودد لها أبداً. إذ هي لو امتنعت عن الاختلاط بكل من يمكن أن يتودد لها، فإن شبكة علاقاتها سوف تنحسر بشكل كبير. إنها تتجاهل بالتالي إصرار هذا الرجل، وبحيث لا تكون الدعوة من النوع الذي يخشاه زوجها، وكذلك كي لا تُختزل في مجرد امرأة مرغوبة جنسياً. فإذا تبنى الزوج وجهة نظر زوجته، فإنه سوف لا يسيء الظن بها. ومن خلال تغيير المنظور، يتخلص الزوج من شعوره بالخيانة.

من خلال حواراته الفلسفية، التي تتخذ شكلاً جديداً ينافس المسرح اليوناني القديم، يشني أفلاطون على اللقاء: فتجابه وجهات النظر المختلفة تنتج فكراً وتتيح لكل طرف أن يتقدم، وأن يفتح على موقف الآخر، من دون التنكر للموقف الذاتي،

وإنما ينخرط في تعميقه وإغنائه. ليست أجمل حوارات أفلاطون، بالمناسبة، تلك التي يتغلب فيها سقراط بسهولة على محدثه، وإنما هي تلك التي تتواجد فيها مختلف وجهات النظر، الجديرة بالاعتبار، على قدم المساواة - كما هو الحال في السفسطائي، أو المأدبة.

كما يتمثل الأمر في كل من لقاء الصداقة أو الغرام في أن نجعل الآخر موجوداً بجانبنا، في غيريته المختلفة عنا. يكتب آلان باديو قائلاً: «العدو الرئيسي للحب، ذاك الذي يجب أن أتغلب عليه، ليس الآخر، وإنما هو الأنا، «الأنا» التي تتمسك بالهوية ضد الاختلاف، والتي تريد أن تفرض عالمها ضد العالم المصفى والمعاد بناؤه من خلال منظور الاختلاف». إذا التقيت ولم يعدل هذا اللقاء نظرتي للعالم، وإذا كنت متعلقاً إلى هذا الحد بـ «أناي الذاتي» وأستمر في رؤية العالم كالسابق، فهذا يعني أنني لم ألتقك فعلاً. أنا تعايشت معك، لسنوات مديدة ربما، وإنما دون أن أعيش تجربة غيريتك المختلفة عني.

يتابع باديو قائلاً: «[الحب] هو عرض وجودي: أن تبني عالماً من وجهة نظر غير متمركزة حول الذات». فعندما ألاقبك، أكتشف أن العالم يمكن أن يعاش بطريقة مختلفة عن الوعي الفردي المنعزل، «وبحيث إن العالم يولد، ويصبح، بدلاً من أن يكون مجرد ما يملأ نظرتي الشخصية. فالحب هو دوماً إمكانية المشاركة في حضور ولادة العالم».

يطرح باديو مسألة العالم المرئي، والمدرك، الذي يستقبله الآخر. أنا أحضر ولادته منذ اللحظة التي أصل فيها إلى وجهة نظره، ولو جزئياً. ووجهة النظر هذه ربما توقظ أيضاً وعيي بوجود العالم: ذاك الذي نتشارك كلانا في عيشه، فيما يتجاوز فروقات الإدراك بيننا.

إذا كان الحب «بناءً»، ففي استمراره يتجلى اللقاء بكل قوته: فالانبهار الحقيقي ليس في الحب الصاعق الأولي وإنما هو يتمثل في قضاء الوقت اللازم لمحاولة «الإحاطة باختلاف» الآخر، والاكتشاف المبهر أنه هو الآخر مَرَكَزاً، وذاتاً، ونقطة ملاحظة غنى العالم.

يشير ديكرت، في تفكيره حول خلق الله للعالم، عملية «خلق مستمر»، قائلاً إن الله لا يكتفي بمجرد خلقه العالم مرة واحدة وإلى الأبد: وإنما هو يتابع خلقه من دون توقف. كذلك فإن لقاء الآخر لا يتم ببساطة في لحظة محددة وحيدة وإنما حين نتابع، على غرار استمرار خلق الله للعالم، كل يوم الذهاب لملاقة الشخص المحبوب، وتعميق تجربتنا لغيريته. وهكذا يمكننا أن نفكر بتاريخ حب لا يعرف الزوال، وإنما، على العكس، يتجلى، ويتوسع من خلال استكشاف اختلاف الكائن الحبيب. فاللقاء يتحول إلى دعوة لمتابعة اللقاء: إذ كلما اقتربت من لغز الآخر، كلما أفلت هذا اللغز مني. ولأن الآخر هو غيرية كاملة الكيان، فإن كل ما أفهمه شيئاً فشيئاً منه لا يؤدي إلا إلى

زيادة الافتنان بما يفلت مني . وكأنه كلما انحسر اللغز (أنا أعرفك أكثر فأكثر)، ازداد في الآن عينه (لأن لغزك يستعصي على هذه المعرفة). هنا أيضاً يتعين علينا تجاوز المقاربة الحسابية كي نتوصل إلى مقاربة سحر اللقاء.

حب البناء في مقابل حب الذوبان

يضعنا مفهوم الحب بمثابة بناء، واستكشاف الفارق مع الآخر، على مسافة ألف ميل مما يمكن أن نسميه الحب «الذوباني». في هذه الحالة الأخيرة، التي تشيع بشكل مثالي عند المراهقين، بدلاً من البقاء اثنين مستقلين والتحقق كل يوم أكثر فأكثر إلى أي حد يبقى الآخر آخر، فإننا نطمح في الحب الذوباني إلى أن نصبح واحداً، وأن نذوب في الثنائي العاشق، فنشعر بالأحاسيس ذاتها، ويكون لنا الرغبات والأذواق ذاتها، والحيوات ذاتها، ونكون دوماً وفي كل مكان على طول الموجة ذاتها. ونحلم بهذا الذوبان باعتباره يجسد الشكل الأسمى من الحب. ونستخدم غالباً تعبير «نحن» بدلاً من «أنا» من قبيل - «نحن لم نحب هذا الفيلم مطلقاً» - ونحرص على تقديم أنفسنا للعالم بمثابة ثنائي أكثر من كوننا فرديتين قائمتين بذاتيهما، كما نجد فكرة الذوبان هذه فائقة الجمال والرومانسية: إذ «نحن نحب أحدهما الآخر إلى درجة أننا لم نعد نشكل سوى كيان واحد».

إنما، ما يشكل أهمية فرد ما هو أن يكون هو ذاته، منفرداً في

لغزه وتعقيده، وحين يحظى هذا الفرد بفرصة أن يكون محبوباً، فإنه يُحِبُّ بصفته فرداً قائماً بذاته، فلغزه الفريد هو ما يجذبنا إليه. أما إذا ذاب في الآخر وتلاشى في الثنائي الغرامي، وإذا أحس وفكر كالآخر، يفقد عندها تَفَرُّدَهُ، وحسه النقدي، ويفقد بالتالي فتنته. ويضاف إلى ذلك أن ذوباناً من هذا القبيل غالباً ما يتصف بعدم المساواة بين الطرفين: إذ يتلاشى أحدهما في الآخر، وإذا أصبح الاثنان كيانه واحداً، فذلك لأن أحدهما هيمن على الآخر، ومحاه. ويحدث هذا التلاشي للواحد في الآخر أحياناً «بموافقته» أو أكثر من ذلك، من خلال توقه إلى ذلك. وإذا لم يكن يحب ذاته بالقدر الكافي، وإذا كان معتمداً إلى هذا الحد على الآخر بحيث لا يستطيع أن يوجد بذاته، فإن الثنائي يفاقم من هذا الذوبان في الآخر. في مقابل فكرة الحب الذوباني هذه وما تحدثه من خراب ممكن، يقدم لنا آلان باديو رؤية للحب أكثر معاصرة، تتسم بالرومانسية بدورها، وإنما بمعنى آخر. ليس رومانسية التلاشي أو نسيان الذات في الذوبان الكلي، وإنما رومانسية أكثر واقعية، وفعلية، تتمثل في انبهار متجدد على الدوام بلغز الآخر الكياني. يبقى الآخر، في هذه الحالة، كيانه آخر رغم كل ما أعرفه عنه، ورغم حياتنا المشتركة وعاداتنا، وكذلك رغم تقاربنا وتجاورنا وتواطؤاتنا، وكذلك رغم كل الحب الذي أكنه له.

فلنحذر إذاً هذه التعابير التي تبدو فيها أننا نذوب أحداً في الآخر، والتي نشير إليها بمثابة ثنائي يتكلم بصوت واحد،

ولنحذر من هذا «النحن» الذي يهدد بإنكار تمايزنا الجميل .
ولنحرص بقدر ما نستطيع على كنز هذه الغيرية بدلاً من تركها
تذوي في مذاقات «النحن» التي تتصف دوماً بشيء من الهزلية .
لا يجب أن يمثل الحب ذاك المنزل الذي تتلاشى فيه الفوارق
بيننا ، وإنما بالأحرى ذلك الصرح الذي لنا فيه مكانتنا ، والذي
نُكرّم فيه ، ونستكشف ونحظى بالحب والتقدير .

لا شك بأن فرانشيكا ، بطلة فيلم جسور مقاطعة ماديسون ،
استمرت في رؤية جسور أيوا بعيني روبرت ، ومن خلال عدسة آلة
تصويره ، حتى دون أن تتبعه وتعيش معه . لم يصبح كل من
فرانشيكا وروبرت ثنائياً زوجياً ، بل انفصلا بعد أن عاشا فترة
عابرة مبهجة وفاتنة . إنهما لم «يذوبا» الواحد في الآخر ، وإنما
هما تلاقيا فعلاً وانفتح كل منهما على الآخر ؛ وحتى في غيابه ،
وبعد مرور سنوات عديدة ، بدا لهما العالم من خلال عيني الآخر .

إيميلي دو شاتليه وفولتير ، واللقاء المستمر

قدّم لنا كل من إيميلي دو شاتليه وفولتير في عصر الأنوار ،
مثالاً جميلاً للقاء الغرامي الذي عاشه بمثابة تجربة غيرية مديدة .
هي كانت أرسطوقراطية ، وهو كان بورجوازيّاً . وكانت ذا تكوين
علمي - حيث ترجمت إلى الفرنسية للمرة الأولى المبادئ
الرياضية لعالم كان وقتها شبه مجهول : أي نيوتن . أما هو فكان
فيلسوفاً وكاتباً مسرحياً - ووجد من خلال إيميلي دو شاتليه

الفرصة لفهم الفيزياء والرياضيات بشكل أفضل. «أنا أدرس فلسفة نيوتن من خلال عيني إيميلي، والتي لحسن حظي أكثر وداً بما لا يقاس من نيوتن»، ذلك ما كتبه فولتير قائلاً لصديقه موبرتيوس. تشارك العاشقان الشغف ذاته بالدراسة، كما تشاركا موهبة في الجد واللهو معاً. إلا أنهما، في تعميق الفوارق المميزة لكل منهما، سوف يعيشان خلال أربع عشرة سنة، في قصر سيراي الذي يملكه زوجها، والذي تباهى بإسكان فولتير صاحب الفكر فائق التألق، وغير مبالٍ بحرية هذه المرأة التي تزوجها زواجاً عقلانياً عندما كانت في التاسعة عشرة من العمر. كانت أربع عشرة سنة حافلة بأيام بأكملها مكرسة للدراسة والمناقشات، إضافة إلى حفلات عشاء للنخبة الاجتماعية يتدافع إليها كل من موبرتيوس وریشيليو، مع عرض مسرحيات لفولتير في مسرح أُعد من قبله في القصر، وتتوج بليالي غرامية، بعد إرواء عطش المعرفة واستعادة السكينة. إنها أربع عشرة سنة من اكتشاف العالم من خلال عيني أخرتين، غير العينيّن الشخصيتين.

لم يفهم فولتير، في بداية قصتهما، الدوافع الحقيقية لإصرار إيميلي العنيد على العمل، وهذا الولع بالعلوم الذي جعلها تمضي ليالي بطولها في الدرس، مما يهدد صحتها، ولكنه جعل منها المرأة الوحيدة في القرن الثامن عشر التي تُنتخب لعضوية أكاديمية العلوم في بولونيا. وسوف يكتشف أن تفرغها للرياضيات والفيزياء بهذا التفاني يندرج ضمن معركة نسوية.

ولأن المرأة في القرن الثامن عشر لا يمكنها الادعاء بالقدرة على حكم البلد، ولا الدفاع عنه، ولأن الصالونات الأدبية كانت حكرًا على وجهاء مجتمع يفضلون التندر والسخرية على الأدب، لم يتبق لامرأة طموحة إلا خوض غمار العلوم. تلخص إيميلي دو شاتليه ذلك في عملها بعنوان خطاب حول السعادة: «حب الدرس أقل ضرورة ولزومًا لسعادة الرجال منه لسعادة النساء. إذ لدى الرجال ما لا يُحصى من الإمكانيات كي يحظوا بالسعادة، مما تفتقده النساء كلياً. ففي حوزتهم العديد من الوسائل الأخرى لتحقيق المجد، ومن الأكيد أن طموح الواحد منهم في أن يجعل مواهبه مفيدة لبلده ولخدمة مواطنيه، إما من خلال مهاراته في فن الحرب، أو في الحكم، أو التفاوض، هو أقوى بكثير من ذلك الطموح الذي تتطلبه الدراسة؛ بينما أن النساء مستبعدات، من خلال وضعهن الأنثوي، من أي نوع من المجد، وحين يحدث، بالصدفة، أن توجد إحداهن من صاحبات الروح العالية، فلن يبقى لها سوى الدراسة كي تعزيها وتعوضها عن كل أشكال الاستبعاد وكل حالات الاتكالية التي يفرضها عليها وضعها». يكتشف فولتير، من خلال لقائه بإيميلي دو شاتليه، وجهة نظر أخرى حول المعرفة والطموح، وكذلك حول عصره، ووجهة نظر أخرى حول العالم، أي عالم امرأة، وعالم نسوية - إذ هي إحدى أوائل النسويات في تاريخ فرنسا.

كما تُمارَس تجربة الغيرية هذه على صعيد الطبائع والسلوك: «إيميلي الرائعة» ذات طبيعة متفجرة عن عمد. إذ لها رغبات لا

يمكن لرجل واحد أن يشبعها، فتطلب أحياناً من موبرتيوس أو آخرين أن يلتحقوا بها عندما يكون فولتير مشغولاً بعمله. أما فولتير فهو سليل البرجوازية حيث المرأة يجب أن تكرّس نفسها لأسرتها وأولادها وزوجها. تريد إيميلي دو شاتليه من ناحيتها، على غرار بعض النساء من النخبة الأرستوقراطية، أن تتشّق نسيم الحرية الذي يهب على العصر، وتسكر من الإقبال على كل المعارف وكل المسرات. إنها تحب فولتير ولكنها لا تمت إليه ولا تتقيد به. كانت تجربة الغيرية هذه مؤلمة في البداية بالنسبة لكاتب رواية كانديد. حتى ليمكننا الحديث عن صدمة الخروج من التمرکز حول الذات نظراً للاختلاف الجذري في وجهات النظر بينهما. فإيميلي دو شاتليه هي أكثر بكثير من مجرد امرأة عالمة: إنها امرأة قوية، وحرّة، ومولعة بأعمال نيوتن ولوك، تماماً كولعها بالحجارة الكريمة والمقامرة. وهو ما استدعى من فولتير بعض الوقت وتطلب منه الكثير من الحب، إلا أنه توصل في النهاية إلى تبني وجهة نظرها: لقد قبل في النهاية حرية إيميلي - حتى أنه أخذ يعتز بها.

وفي النهاية، فإن تجربة الاختلاف هذه تجري بالطبع على صعيد الأفكار. فإيميلي دو شاتليه متفائلة على طريقة لايبنتز - وهو تفاؤل يبحث في مجال الرياضيات عن مبرر وجود إله خلق «أفضل العوالم الممكنة». لا تتطابق هذه الطريقة في رؤية الأشياء من وجهة نظر الكل، ومن الحد من سلبية الأشياء في «أفضل العوالم الممكنة» مطلقاً مع رؤية فولتير. فاعتباره ناقداً شديداً

للأديان، ومفضلاً التهكم على الدغمائيات، والنصوص المختصرة على المطولات والمنظومات الكبرى، لا يستحسن فولتير مطلقاً التفاؤل على طريقة لايبنتز. وبالتالي سوف يحافظ على موقفه مع محاولة تفهم موقف عشيقته.

يمكن قراءة رواية كانديد الساخرة على ضوء هذا الفارق المستمر والذي كانت تتم مناقشته معها. إذ من خلال التهكم القاسي في هذه الرواية على تفاؤل لايبنتز، نال من تفاؤل عشيقته بالضرورة. ففي حين تتتالى مشاهد العنف (من معارك دموية، وزلازل أرضية، وحالات اغتصاب...) تتكرر بتهكم جملة لايبنتز القائلة: «كل شيء على أحسن ما يرام في أفضل العوالم الممكنة». يستخدم فولتير المبالغة المفرطة للسخرية من الاتجاه المتفائل المميز للفلسفة الغربية؛ وهو لم يتبن بالتالي مفهوم العالم الذي تبنته إيميلي دو شاتليه. إلا أننا نخمن أنها حاولت إقناعه بذلك؛ ويمكننا أن نتخيل نقاشاتهما في قصر سيراى. ويبدو أن بعض حجج إيميلي قد أثمرت بعض الشيء، قبل أن يتم رفضها. إذ من دون حبه لها، ومن دون هذا الاهتمام برؤية مخالفة لرؤيته، من المحتمل أن لا يكون فولتير قد أعار أدنى قدر من الاهتمام لتفاؤل لايبنتز؛ ومن الممكن أنه ما كان ليكتب رواية كانديد أصلاً. إذ يمكننا أن نكتشف وجهة نظر الآخر من دون أن نتبناها بالضرورة.

والأمر ذاته بالنسبة لإيميلي دو شاتليه: فهي حاولت طوال أربع عشرة سنة وضع نفسها مكان فولتير، الذي سُجن في

الباستيل مرتين، وتعرض للضرب المبرح وكأنه من المجرمين على يد خدم روهان شابو، كما اضطر غالباً للهروب من باريس، وأُجبر على الذهاب إلى المنفى في إنجلترا، فلم يكن قادراً على تليين مواقفه، والتخفيف من غلواء حرية فكره للحفاظ على أمنه وعلى سعادتهما معاً. لم تكن رسائل فولتير الفلسفية تعجب السلطات مطلقاً وكذلك بالنسبة لإيميلي ولو بدرجة أقل. فهي التي كانت معتادة على ارتياد كل بلاطات أوروبا وكل الصالونات، اكتشفت شكلاً من الجذرية الفكرية التي لم تكن لتستوعبها. كانت تبقى مستيقظة ليالٍ بأكملها، ينتابها القلق، دون أن تدري ما حلّ بالرجل الذي تحبه. وإنما تمكنت تدريجياً، أن تضع نفسها مكانه: فهو لا يشبه هؤلاء الأرستوقراطيين الذين ترعرت بينهم، مستقرة بارتياح على قرون من السيطرة الاجتماعية؛ بينما تعيّن عليه أن يثبت كل شيء دون أن يكون لديه وقت ليضيعه. وحين عودته من إنجلترا، أصبح فولتير أكثر انتقاداً للنظام الملكي الفرنسي، حيث كتب أنه اكتشف بلد التسامح في إنجلترا، وهو بلد لا يشبه فرنسا في شيء. لم تصبح إيميلي راديكالية مثله، إلا أنها أصبحت تفهمه بشكل أفضل؛ كما أخذت تجد في راديكاليته مسحة جمالية. كان أفلاطون على حق حين قال: دون أن نحب، كيف يمكننا أن نعيش عن قرب تجربة الاختلاف عن الآخر؟

وها هي النهاية فائقة السمو: فبعد موت إيميلي وانتهاء قصة حبهما بوقت ليس بقصير، انكب فولتير على تكريس عمل عشيقته

فائق الأهمية من خلال ترجمة كتاب نيوتن المبادئ الرياضية مع تعليقات تشكل عملاً قائماً بذاته. وكافح الفيلسوف من أجل نشر هذه الترجمة مع أنه كان على خلاف مع بعض الأطروحات المعروضة في هذا العمل. وهكذا، فالآخر، حتى بعد موته، يمكنه أن يجعلنا نعيش تجربة الغيرية هذه.

أوليس هذا هو أيضاً شأن النصوص الكبرى، واللوحات الفنية والأفلام الكبرى؟ فهي قادرة على انتزاعنا من وضعيتنا الذاتية المعتادة، وعلى أن تبين لنا أن العالم يمكن أن يُلاحظ ويُختَبَر بصيغة مغايرة، وأن يُرى بعيون غير عيوننا، ويُدرَك بحواس غير حواسنا. وتتيح لنا أن نشهد ولادة عالم جديد مغاير، من خلال فرشاة رسام، أو قلم كاتب، أو كاميرا مخرج سينمائي.

«حيوات أخرى غير حياتي»

لقد عاش كلُّ منا هذه التجربة جراء الاحتكاك والتواصل مع تحفة فنية، أو لوحة، أو رواية، أو فيلم... واحدة من أواخر تجاربي في الخروج من تمركزي حول ذاتي حدثت لي عند قراءة كتاب إيمانويل كيرير بعنوان المملكة، حيث يروي فيه، وهو الملحد الدائم، كيف عاش مدة سنوات من الإيمان، مكتشفاً لبعض الوقت «مملكة» عيسى المسيح، قبل أن يتلاشى هذا الإيمان لديه كما أتى. لقد غُصْتُ في هذا الكتاب المذهل،

وفائق الحيوية، الذي يضم في آنٍ معاً استقصاءً حول حياة المسيح وأفكاراً شخصية حول تجربة صوفية، متذبذباً ما بين الشك ورؤية العالم كما يتصوره المسيحي راسخ الإيمان: في صباح أحد الأيام وَلَدَ اختفاء جسد المسيح من قبره صدعاً في التاريخ. فمملكة الرب لم تعد هناك في الأعالي، وإنما هنا والآن على الأرض، فأنا لم يسبق لي أبداً أن لمست بهذا المدى من القرب واقع الإيمان المسيحي. إذ تتمثل الخطوة الأولى بالاعتقاد بانبعاث المسيح، والاعتقاد بأن جسده لم يتعرض للسرقة من القبر، ومع هذا الاعتقاد تتعرض النظرة إلى الحياة بأكملها إلى التحول. إذ يكفي، كي يتغير كل شيء، أن نحسن استقبال بشرى الإنجيل: المسيح قام من بين الأموات. توقفت، خلال هذه القراءة، عن إدراك العالم بمثابة عقلائي غربي، وشكّك مولع بعدم اليقين. لقد أفردت في نفسي مكاناً لإنسان صوفي لم أكن أشك في وجوده، وبدأت أرى العالم بعينه، والإحساس بالأشياء بقلبه. موجز القول، لقد التقيت بكتاب، ومن خلاله، التقيت بمؤلفه. وإلى الآن، لا زال في نفسي مكان للصوفي، وربما للمسيحي كذلك، مما أتاحته لي هذه القراءة أن أعيشه. لم أتحول إلى ملتزم دينياً، إذ تلاشت الانطباعات التي تركتها قراءة الكتاب نسبياً، إنما لا زال هناك قسط منها. وهكذا فالالتقاء بهذا الكتاب، وما عشته من تجربة جمالية على مدى عدة شهور قد وسّعا من آفاق ذاتيتي: لقد انفتحت على رؤى أخرى غير رؤيتي، وذلك على غرار عنوان كتاب إيمانويل كارير

حيوات أخرى غير حياتي، حيث يتمثل الموضوع في تجربة الغيرية. يعيش الكاتب حياة رغد في باريس، إلا أنه يعاود اكتشاف العالم بعيون أخرى، أي عيون زوجين فقدوا طفلهما في طوفان تسونامي، وكذلك عيون الرجال والنساء الذين يرزحون تحت وطأة الديون الباهظة. يلخص عنوان هذه الرواية الجميلة لوحده محتوى هذا الفصل: أن ألقاك، يعني أن أفهم أن هناك حيوات أخرى غير حياتي.

وإذا كان يتعين أن نحب كي نتفلسف، كما قال أفلاطون، وأن نحب كي ننجح في تبني وجهة نظر الآخر، عندها لا يقتصر الأمر على الحب أو الصداقة وحدهما اللذين يجعلاننا قادرين على عيش تجربة الغيرية، وإنما هناك كذلك حب الكتب والأعمال الفنية القادرة على تفتيح عيوننا، وكذلك هذا الحب الخاص الحافل بالعرفان الذي نكنه لمن أَلَّفَها وأنجزوها. لقد أحببت كتاب المملكة لإيمانويل كارير، كما أحببت حيوات أخرى غير حياتي، أو حتى الخصم أو ليمونوف: لقد أحببت في كل مرة من هذه المرات، أن أشهد ولادة عوالم غير عالمي.

6

أنا تغيّرت

حين يصنع الآخر منّي كائنًا آخر

تنتهي تجربة الغيرية، عاجلاً أم آجلاً، بأن تحدث آثارها: فبالإضافة إلى اكتشاف وجهة نظرك، فإنني أغير نتيجة للعلاقة معك. قد أكون اتخذتُ مساراً آخر، وغيّرت بعضاً من عاداتي، وكذلك بعضاً من آرائي، ورأيت أذواقي تتطور، كما أنني لم أعد أستجيب، في بعض الوضعيات، بالطريقة ذاتها - وباختصار فأنا قد تغيّرت. وليس المهم أن يكون ذلك للأحسن أم للأسوأ. ويتمثل الدليل الأكثر وضوحاً بأنني التقيت معك في أنني أوجه حياتي بشكل مختلف.

تبين لكامو كيف أن لقاءه مع ماريا كازاريس والهيام الغرامي الذي عاشاه لمدة اثنتي عشرة سنة، قد بدّله. لقد كانت ممثلة، وابنة رئيس حكومة الجمهورية الإسبانية، وتعرضت للنفي إلى فرنسا بعد استيلاء فرانكو على السلطة، كما شاركت كل من الفنانين ميشيل بوكيه، وجان فيلار، وكذلك جيرار فيليب في أعمالهم السينيمائية والمسرحية. ومن خلال استعراض آلاف

الصفحات من مراسلاتهما، يمكننا أن نفهم أن لدى كامو «إمكانات كامنة» - من قبيل النزوع إلى الرقة، والقدرة على التركيز على العلاقة مع شخص آخر والتوقف عن التشتت، مما يعني إمكانية عيش حياة عاطفية بالعمق - وهو ما لم يكن ممكناً أن يتجسد عملياً من دون حبه لماريا كازاريس. يكتب كامو عن هذا اللقاء الذي حدث في السادس من يونيو لعام 1944 والمصادف ليوم إنزال الحلفاء على شاطئ النورماندي، قائلاً أن ذلك اللقاء قد جعله يقف على رجليه: «لقد دخلت بالصدفة إلى حياة لم أكن فخوراً بها، ومنذ ذلك اليوم بدأت بعض الأشياء تتغير في حياتي. أصبحت أتنفس بعمق، وأصبحت أقل كراهية لبعض الأشياء، كما أصبحت أتأمل بشكل أفضل كل ما يستحق الإعجاب. إذ قبل ذلك وخارجاً عن لقاءك، لم أكن أتعلق بأي شيء. لم تكن تلك القوة، التي كنت تسخرين منها أحياناً، سوى مجرد قوة حياة العزلة، أي قوة الرفض. بينما أصبحت معك أقبل الكثير من الأشياء. لقد تعلمت أن أعيش. ومما لا شك فيه، أنه لهذا السبب تحديداً، اختلط مع حبي لك عرفان فائق بالفضل.» ومن خلال استعراض مراسلاتهما، نندفع إلى إعادة قراءة بعضاً من أعماله على ضوء لقاءه مع ماريا. وخصوصاً كتاب الإنسان المتمرد المنشور في العام 1951، والذي كان قد كُتب قبل عدة سنوات، خلال أولى سنوات هيامهما الغرامي. يستطيع الإنسان المتمرد أن يقول لا للظلم، ولكل ما هو غير مقبول، وهو لا يقوله بلسان شخصه هو، وإنما باسم كل حالات الوجود. فما لا

يمكنه قبوله، يعتقد أنه لا يجب على أي إنسان أن يقبله. «إذ ينتفض العبد باسم كل الناس» كما يكتب قائلاً. إلا أن كامو يصبر على أن قول لا للظلم يترافق دوماً مع قول نعم مدوية للحياة. فمن خلال قول لا لما لا يمكن قبوله، يقف الإنسان المتمرد مع الحياة كما ينبغي أن تكون: إذ إن قوة الرفض تمثل في الآن عينه قوة التوافق مع الحق. وبالتالي فالإنسان العدمي ليس إنساناً متمرداً حقيقياً. ومن دون لقاء كامو مع ماريا كازاريس، كان يمكن للإنسان المتمرد أن يكون أساساً إنسان الرفض، وليس فيلسوف الأمل، والتوكيد على حق الحياة، وذلك الدليل الثمين وبالغ العمق.

يكتب كامو لماريا ذاكراً ما يدين لها به: «لم يخطر ببالك بأنني أصبحت أركز فجأة على كائن واحد كل قوة الهيام التي كنت أبددها سابقاً في كل اتجاه، وتبعاً للصدف وللمناسبات». كان معروفاً عن الكاتب أنه «زير نساء». لقد خالط على الأغلب العديداً، إلا أن ماريا كانت الوحيدة التي كتب لها خمسمائة رسالة. أما الأخريات، فهو لم يلتقِ معهن بالطريقة التي التقى بها مع ماريا، وهو بالتالي لم يتغير من خلال الاحتكاك بهن. كان قبلاً «يبعث في كل مكان» قوة هيامه الغرامي. وبفضل ماريا، ها هو «يركز هذا الهيام على كائن واحد»، وتتجلى قدرته على العناية بما هو عزيز عليه بدلاً من تشتته السابق. فمراكمه المغامرات مدعاة للسرور النرجسي ومصدر مختلف ألوان المتع. بينما هو يكشف حياً مختلفاً مع ماريا كازاريس، موجهاً تماماً

نحو الآخر، وقادراً على الاستقرار والدوام، وعلى تغذية سعادة لا تختزل في مجرد المتعة. هذه الديمومة الزمنية ضرورية كي يكتشف المرء ذاته ويكتشف الآخر في الآن عينه. يطلعنا جمال المراسلات ما بين كامو وماريا كذلك على ما يتضح لنا عادة من دردشاتنا الراهنة: إذ من الممكن الحفاظ على قصة حب عن بعد، والحفاظ على رباط إنساني رغم البعد الجغرافي أو تعذر اللقاء وجهاً لوجه. وفي المحصلة، فإن ألبير كامو وماريا كازاريس قد عاشا تاريخ علاقتهما الغرامية على صعيد المراسلات الكتابية أكثر مما عاشاها وجهاً لوجه. إذ تبين بعض الرسائل أن ذكرى اللحظات التي عاشاها معاً، حين يتم استعادتها، وروايتها، وتغذيتها بالمشاعر، وحتى إعادة إحيائها أحياناً، جديرة بأن تضاهي بزخمها وكثافتها الحضور المباشر.

دون جوان، من ناحيته، لا يتغيّر: فهو من خلال إغوائه لكل النساء، لا يلتقي بأي منهن حقيقة. إذ بالنسبة إلى غاوٍ مثله، تتساوى كل النساء، وذلك كان شأن كامو كذلك ولو بدرجة أقل، قبل التقائه بماريا، إذ شكلن جميعهن له المرأة التي يُعجب بذاته من خلالها. وقد يكون الغاوي من هذا القبيل يخشى الوقوع في الحب، ويخشى اللقاء الحقيقي لهذا السبب تحديداً: فهو مغرم بذاته إلى حد يمنعه من الرغبة في التغيير. إلا إذا كان العكس هو الصحيح: بمعنى أنه لا يحب ذاته، ولكنه يعتقد أنه يستحيل عليه أن يصبح شخصاً آخر. وفي الحالتين، فإن اللقاء الأصيل لا يعنيه، إذ إنه يبقى هو ذاته من دون تغيير.

غالباً ما نسمع من يقول «أن تكون محبوباً، يعني أن تحظى بالحب كما أنت»: فمن يحبنا فعلاً يقبلنا عندها بقوتنا وضعفنا، من دون أن يرغب في أن نكون مختلفين عما نحن عليه. قد يكون ذلك صحيحاً. ولكن أن نشعر أننا محبوبون بهذا الشكل يمكن أن يعطينا القدرة كذلك على مجابهة الشيطان فينا ويدفع بنا في النهاية إلى التغيير.

يقدم أرسطو، في عمله بعنوان علم الأخلاق إلى نيقوماخوس⁽¹⁾ تعريفاً جميلاً للصدقة إذ يقول: الصديق هو ذاك الشخص الذي يجعلنا نصبح كائنات أفضل. فالصديق ليس مجرد ذلك الإنسان الذي نستطيع الاعتماد عليه، أو ذاك الذي يمكننا أن نبوح له بشكوكنا ومخاوفنا. بل إنه يشكل تلك الفرصة (Kairos) التي بفضلها تتمكن إمكاناتنا الكامنة من التحقق، والتي بفضلها أيضاً سوف تصبح «قوتنا» المعتبرة بمثابة مجال إمكانات، قادرة على «التجسد» في الواقع. وقد ندخل في تنافس مع هذا الشخص، أو لا نراه إلا بشكل متقطع، إلا أنه صديقنا بالمعنى الأرسطي إذا كانت العلاقة التي نقيمها معه تتيح لنا أن ننمو ونتطور. ذلك هو حال أصدقائنا الخالص، وحال ذلك الأستاذ

(1) *Éthique à Nicomaque* هو العنوان الذي أعطاه أرسطو لعمله المكوّن من عشر كراسات حول أسس الأخلاقيات الأرسطوطالية وهي مستندة على محاضراته، ويفترض أنها موجهة إلى ابنه الذي يحمل اسم نيقوماخوس. (المترجم)

الذي توقظ دروسه فينا شهية معرفة الجديد أو الرغبة في أن نسلك مساراً لم نكن قد طرحناه على أنفسنا، أو حال المعالج الذي يساعدنا على التخلص من اضطراباتنا ويتيح لنا أن نرفع رؤوسنا من جديد، أو حال زميل تَمَكَّنَّا بصحبته من عبور أزمة وساعدنا على الصمود... بإمكان حبنا أن يكون كذلك صديقنا بالمعنى الأرسطي. ألم يعترف كامو بأن لقاءه مع ماريّا قد ساعده على التقدم، وجعله أكثر اعتزازاً بحياته، وأقل ميلاً إلى الكراهية والنفور، وأكثر انفتاحاً على تقدير حلو الحياة؟ كانت قوة القبول تلك موجودة لديه في الأصل، إلا أن لقاءه مع ماريّا أتاح له «تجسيد هذا الاستعداد» كما يقول أرسطو؟ فهو لم على ينفتح على رؤية ماريّا للعالم، وإنما قام بتطوير رؤيته هو. وحين نتغيّر من خلال اللقاء مع الآخرين، نفهم إلى أي مدى نحن بحاجة إليهم كي نصبح نحن أنفسنا. عندها ينتابنا الخوف تجاه الفكرة التالية: هل كنا سنموت في حالة قصور وعدم اكتمال لو لم نلتق مع الأشخاص الذين يعنون لنا؟

إيلوار وبيكاسو، صداقة سامية

يشكل بيكاسو حالة الفنان المكتمل: فهو مبدع خارج المقاييس المألوفة، إذ إنه يجسد نوعاً من القوة لا نرى معها، للوهلة الأولى، ما يمكن أن تدين به للآخرين. ومع ذلك فلولا لقاءه مع إيلوار، ما كان سيكون على ما هو عليه الآن، ولكانت حياته وأعماله الفنية مختلفة إلى حد بعيد. يتيح الغوص في تاريخ

هذه «الصدّاقة السامية» بين بيكاسو وإيلوار - كما وصفها إيلوار ذاته - أن نفهم أن هناك لقاءات صدّاقة، كما أن هناك لقاءات غرامية: فلقاءات الصدّاقة تملك قوة دفعنا للانفتاح على أبعاد أخرى من أنفسنا.

تشغل علاقة الصدّاقة بين بيكاسو وإيلوار مكانة فريدة بين صدّاقاته العديدة. فلقد كان أصدقاؤه الآخرون، وأولهم كوكتو، في خدمة المعلّم الذي كان يمثله بالنسبة لهم. فهم كانوا يقدرّون بيكاسو عالياً أكثر مما كان يقدرهم هو. تختلف العلاقة مع إيلوار. فهما كانا يلتقيان بشكل عابر منذ الأعوام العشرين من القرن، إذ كان الشاعر يجمع لوحات المعلّم، وكان الرسّام بالمقابل يخالط السوريين، الذي يحتل إيلوار بينهم مكانة مميزة. إلا أنهما لم يلتقيا فعلاً إلا في العام 1934 حيث تعلّق الرسّام بإيلوار كما لم يسبق له أن تعلّق بأحد من قبل. يتصف بيكاسو بالصمت، والحساسية الشهوانية الاقتحامية والمسيطرة. بينما كان إيلوار مثالياً، وداعية للسلام ذا ضمير سياسي فائق النبرة. مر بيكاسو من خلال اتصاله مع إيلوار بتجربة في الغيرة سوف يخرج منها وقد تحوّل، على الصعيدين الذاتي والفني في آن معاً.

تحظى عبقرية بيكاسو الفنية بالتقدير الفائق عالمياً. إلا أنه كان دوماً يحلم بأن يكون شاعراً. إذ بالنسبة إلى رسّام بورتريه دورا مار وبورتريه نوش إيلوار، يشكّل الشعر الفن الأكبر؛ الذي يضعه فوق كل ما عداه. فأحسّ عملاق الرسم فجأة أنه صغير

مقابل كاتب عاصمة الألم: إذ لم يعد بيكاسو في مقابل إيلوار ذلك العملاق الذي يفرض نفسه، وإنما يحس أنه شاعر هاوٍ، وحتى شاعر متعثر. إنه يندهش من قدرة إيلوار الفائقة على رسم صور صاخبة ورؤى باستخدام كلمات معدودة، كما يفعل هو في مجال الرسم الإبداعي. إنه يعيش هذا الإعجاب من دون أدنى تنافسية، في حالة من الافتتان الفكري المذهل. وكان إيلوار يشعر بالشيء نفسه. فهو بدوره كان لديه الانطباع بأنه يتعلم من جديد كيف يرى من خلال لقاءاته مع بيكاسو، وذلك كما عبّر عنه في هذا النص من الإشادة في ستة أجزاء ببيكاسو والمهدى إليه، في افتتاحية ديوان مُقَدَّم للنظر الصادر في العام 1939: «كل شيء يولد من جديد تحت عينيك الصائبتين/ وعلى مرتكزات الذكريات الراهنة/ الخارجة ببساطة فيما يتجاوز أي فوضى أو ترتيب/ هنا ينتصب تألق ما هو مُقَدَّم للنظر». كان إيلوار يؤكد أنه «سعيد في العيش في القرن العشرين» لأنه تمكن خلاله من «الالتقاء مع بيكاسو».

ومن ناحية أخرى فإن ولع بيكاسو بالرسم لم يكن ينفصل عن ولعه بالنساء. إذ كان يردد غالباً أن الرسم «ليس عذرياً أبداً»، وهو الذي كان يضع في رصيده آلهات فن الرسم، والنماذج النسائية التي يرسمها، كما يجمع الزوجات والعشيقات والمُلْهِمات والمومسات، وهو الذي كان يتمتع بالقدرة الوحشية على الغواية، إضافة إلى عدم الوفاء والغيرة، وحب التملك المرضي. كان بيكاسو بحاجة إلى النساء: إنه يستخدمهن كي

يرسم لوحاته، ويحولهن إلى أدوات لفنه؛ وكان يتصرف وكأنه يمتلكهن. ولكن مع إيلوار كان الأمر مختلفاً، إذ إنه التقى بزوجته نوش، إلهة السوراليين، والتي أصبحت أحد نماذج لوحاته. فتعلم أن ينظر إليها بعينين أبعد ما يكون عن زير النساء. لقد اقتصر على رسم زوجة رجل آخر، وهو فوق ذلك أقرب أصدقائه إليه، واكتشف أن المرأة يمكن أن تعرض نفسها كنموذج يرسمه من دون أن يمتلكها: وهكذا أظهر بيكاسو ذاته أنه قادر على الإعجاب بالنموذج الذي يرسمه من دون أن يفترسه. كتب إيلوار في رسالة إلى صديقه رولاند بنروز يقول فيها: «يرسم بيكاسو أكثر فأكثر، بمثابة أحد آلهة اللوحات الفنية أو أحد شياطينها، زوجتي نوش في لوحات رائعة ومحبة إلى النفس. لقد كان أحد الرسامين النادرين الذي تصرف بانضباط، وهو يستمر في ذلك». وهكذا يثير اللقاء مع إيلوار في «أنا» بيكاسو، «لعبة» جديدة، على غرار لعبة الإطلال من النافذة، أو تحركاً في صميم «كيانه» وهويته، وهو أمر مثير للغاية في حالة رجل من قبيل بيكاسو الذي كان بإمكانه أن يظل غارقاً في كيانه الذاتي، بسبب نجاحه الخارق. إلا أن هذا الرسام هو أبعد ما يكون عن الشخصية التي قدمها سارتر تحت اسم دكتور روجيه في عمله بعنوان الغثيان، تلك الشخصية المفتونة بذاتها والمكتفية بحالها، والعاجزة عن انتزاع نفسها من هذا «الورم الكياني». إذ تشهد مختلف مراحل تطور الرسم عند بيكاسو، على العكس من ذلك، على مرونة مدهشة. فلقاءه مع إيلوار سوف يتيح له اكتشاف أبعاد

جديدة من شخصيته، إلى درجة تجعله يتغيّر: إذ تحوّل بيكاسو إلى فنان ملتزم.

وحيث إنه كان منغمساً كلياً في فنه، وفي لغز الأشكال والألوان، وقوة النساء الشهوانية اللواتي يشكلن نماذج الرسم بالنسبة إليه، لم يكن هناك حتى العام 1934، أي مكان في حياته للمسائل السياسية. وبالرغم من انجذابه إلى السوراليين، إلا أنه أحس أنه غريب تجاه التزامهم السياسي، وتجاه تلك الدغمائية التي بدت له بمثابة خطأ في التوجه. ولكن عندما حدثه إيلوار عن الشيوعية، بمثابة الدرع الوحيد ضد الفاشية، وعندما أثار الشاعر قضية المعركة من أجل السلام، والتي يمكن أن تكون جمالية فنية، وسياسية في آن معاً، تفاجأ بيكاسو بتأثره وانفتاحه على هذا الموقف.

في العام 1936، حاولت جحافل فرانكو إخضاع مدريد من خلال القصف المدفعي والحصار: قاوم أهل مدريد بعناد، وشهدنا في المدينة معارك التحام مباشر. نشر إيلوار في جريدة الحزب الشيوعي قصيدة بعنوان نوفمبر 1936. كان ذلك بالنسبة إلى بيكاسو بمثابة قدح الزناد الذي لا ينفصل عن إعجابه بشعر صديقه. فهم الرسام أن بإمكانه بدوره أن يضع فنه في خدمة النضال. وفي أبريل من العام 1937، قُصِفَت مدينة غرنيكا الصغيرة، ودُمِرَت من قبل الطيران الألماني الحليف لفرانكو. وبناء على طلب الشاعر، جعل بيكاسو هذا الحدث موضوع عمله الذي كان يحضره لمعرض باريس الدولي. ألّف إيلوار قصيدة

ترافق هذه اللوحة الفنية العملاقة، إلا أنه كان مقتنعاً أن الرسم سيكون أكثر فاعلية من الشعر تجاه هذه المأساة؛ إذ كان يتعين إحداث صدمة بصرية لإثارة الوعي بهذا الحدث. وهكذا فإن غرنيكا، لوحة بيكاسو الأكثر شهرة، كانت ثمرة الصداقة؛ ومنبعها يعود إلى هذا الآخر. وفي العام 1937، رسم بيكاسو لوحة المرأة التي تبكي وهي صورة عشيقته دورا مار، والتي صممها بمثابة تنمة لـ غرنيكا، حيث ترمز دموع دورا إلى كوارث وخراب الحرب والقصف. لقد دأب بيكاسو على الدوام على رسم أجساد ووجوه نساء، إلا أنه أصبح الآن يشارك صديقه في معركته، إذ يعطي معنى سياسياً للوحة تمثل صورة امرأة. ومن دون هذا اللقاء مع إيلوار -الذي قدّم له دورا مار أيضاً- لم يكن بيكاسو يجري مطلقاً هذا التحوّل السياسي. وفي الخامس من أكتوبر لعام 1944، أعدّ إيلوار إعلاناً ظهر في جريدة تحرير بعنوان: «بيكاسو، أعظم رسامي العصر، ينضم إلى الحزب الشيوعي».

توفي إيلوار في العام 1952 إثر نوبة قلبية. وكانت تلك أول مرة نرى فيها بيكاسو يبكي في العلن. يكتب كلود روي بهذا الصدد قائلاً: «غداة جنازة التشيع، كان هناك بعض الأصدقاء يتكلمون بصوت منخفض في قاعة جانبية. أخرج بيكاسو مجموعة من الأوراق وبدأ يرسم. صمم موضوعاً سيقوم فيه لاحقاً برسم سلسلة لوحات شخصية لصديقه. بقينا من جانبنا صامتين. وكان

يُسَمَع صوت حفيف القلم على الورق. قال بيكاسو: "أغلقوا النافذة، الطقس بارد". لم أعرف أبداً أن بيكاسو يشعر بالبرد. كان يشتهر بيكاسو بخشونته في الحب كما في الصداقة. ولكن في علاقته مع إيلوار عرف كيف يظهر وجهاً آخر من شخصية: وجه رجل يبكي في العلن خسارة صديقه. التغير الحاصل عند بيكاسو بفضل لقائه مع إيلوار يكشف كذلك انفتاحه على قابليته الذاتية للضعف والتأثر. إذ اكتشف الرجل الناري، المعتاد على قضاء الشتاء في قميص صيفي، أن بإمكانه أن يبرّد هو أيضاً. فالفنان المبدع، الذي يفيض أفكاراً ورغبات، اكتشف الفراغ الذي خلفه موت صديقه.

تلك هي حقاً قوة اللقاء الأصيل: إنها قوة تغييرية هائلة. فكامو الذي التقى مع ماريا كازاريس، رأى كيف انقلب لديه ميزان القبول والكراهية. وبيكاسو أتاح لنفسه، من خلال الالتقاء مع إيلوار، أن يعود ثانية إلى أن يكون مجرد بابلو [اسمه الشخصي].

أفكر أثناء كتابة هذه السطور بأحد أصدقائي الذي غيّر حياته. لقد كان يعمل سابقاً كمدير الموارد البشرية في شركة كبرى، ولكن بعد تشخيص إصابته بسرطان الحنجرة، لم يكن تشخيص المرض هو ما أثر فيه وغيّره وإنما طبيبه المعالج. لقد اتضح له أن مهنته لم تعد تعني له شيئاً. كانت لديه بعض الشكوك حول ذلك، ولكن اتصاله مع هذا الطبيب هو ما أدى به إلى الاعتراف بعدم اهتمامه مهنيّاً وإلى استخلاص النتائج المترتبة

على ذلك. فهو من خلال الرؤية اليومية المنتظمة لرجل في مثل سنه يكرس نهاراته وذكاءه لمهمة نبيلة دفعه إلى إعادة الاعتبار بوضعيته الذاتية. فمهنة مدير الموارد البشرية يمكن أن تكون نبيلة بدورها، وإنما هو كان يمارسها في ظروف سيئة. إذ كانت الإدارة تجبره على النظر إلى الرواتب بمثابة مجرد كلفة، والتوظيف بمثابة مجرد هيكله وظيفية. فهل أمضى كل هذه السنوات الطوال في الدراسة كي يصل إلى هذه الوضعية؟ أصبحت هذه الفكرة غير قابلة للاحتمال بالنسبة إليه. وبالطبع فإن المرض وخشية الموت قد أسهما في وعيه هذا لوضعه المهني. إلا أن كل المرضى لا يتغيرون بالضرورة. فالعديد منهم يعودون تماماً إلى حياتهم الماضية، من حيث توقفوا، بعد الشفاء. فهل كان مريضنا هذا يعود إلى وظيفته بمثابة مدير موارد بشرية، لو لم يلتق مع هذا الطبيب؟ لقد روى لي عن مدى تأثره بالمحادثات التي كانت تجري بينهما، وكذلك بحضور طبيب الأمراض السرطانية المتميز هذا عندما كان يزوره، ولو لدقائق معدودة، في غرفته في المستشفى، ومدى اللطف والعناية التي عرف من خلالها أن يعلن لمريضه النبأ السيئ، وكذلك الفرص المتاحة. لقد مر، باختصار، بتجربة لقاء حقيقي. فإعجابه بهذا الطبيب أثار في نفسه الرغبة بأن يصبح شخصاً أفضل. وكما يؤكد عليه نيتشه، فإن فرادة تشكّل «جسراً ممدوداً» نحو فرادة أخرى... وبعد تماثله للشفاء، فرض قراراً محدّداً ذاته عليه: تغيير مساره المهني، وتغيير نمط حياته. فلقد بدا له من الأفضل أن يستغل نهاراته في

تعليم الآخرين وتدريبهم بدلاً من صرفهم من الخدمة. لقد نال شهادة تعليم، وأنجز التحوّل، وأصبح أستاذاً للآداب.

«التحوّلات الصامّة»

ولكن ليس كل التغيرات تتخذ هذا المستوى من الوضوح. فليست كلها انقلابات، أو تجليات، أو اهتداءات أو طفرات حياتية. إذ إن بعضها تمت بصلة القرابة إلى ما يسميه فرانسوا جوليان «التحوّلات الصامّة»: حيث يحدث التغيير عندها بطريقة لا يكاد يتم التنبه إليها، وحتى قد تكون لاواعية أحياناً، على الأقل في بداياتها، وذلك من خلال ترسبات متتابعة، حتى يأتي اليوم الذي يبدو فيه فجأة مقدار مسافة الدرب التي قطعناها.

لم تغيّرني قراءة رواية الغريب لكامو دفعة واحدة، إلا أنني أعلم اليوم، ومع مرور الوقت، أنها كانت منطلقاً لعملية تحوّل صامّة، تغذّت من ثم بلقاءات أخرى، وتجارب أخرى. إذ إنني قرأت الغريب في سن الخامسة عشرة، وأعدت قراءاتها عدة مرات منذ ذلك الحين، كما اكتشفت كتابي أعراس والصيف، مذهولاً بكتابة كامو وشمس الجزائر تلك التي تشع في كل من صفحات الكتاب. فقد وجدت في هذه النصوص القصيرة معبراً إلى بلد أُمي الأصلي، والذي لم أسمع عنه إلا القليل عملياً، ولكن لم يعد لدي اليوم العلاقة نفسها مع الشمس، ولا مع الصيف، ولا حتى مع المحن. أعتقد أنه بإمكانني القول إن أشعة

الشمس تنصب على جلدي وعلى جبهتي بطريقة مختلفة منذ أن التقيت مع هذه التحف الفنية بقلم كامو. وخصوصاً، منذ أن قرأت السطور التالية من كتاب أعراس: «تكون البرية، في بعض الساعات، سوداء من شدة الشمس. إذ لا تعود العيون مهما حاولت، ترى سوى نقاط ضياء وألوان تتلاعب على حافة الأهداب». وبعد مسافة من ذلك، نقرأ في النص: «يتعين عليّ أن أتعرّى وأغطس في البحر الذي ما زال معطراً برائحة الأرض وأغسل هذه بتلك [...] وعلى الشاطئ ألقى بنفسي على الرمل، وأتركها تذوب في العالم، وأحس بثقل جسمي وعظامي، والشمس تغشي عيوني، مع نظرة، من آن لآخر، إلى ذراعي حيث تتكشف قشور الجلد الجاف مع انسياب الماء، والزغب الذي أصبح لونه أشقر، وحبوبات الملح الصغيرة». من الصعب عليّ معرفة لماذا أثرت عليّ كتابة كامو إلى هذا الحد. هل لأنها كلمتني عن بلد أُمي؟ هل لأنني كنت مفرط العقلانية، أي ابن مدينة يتناسى جسده وحواسه؟... شيء وحيد أكيد: لقد كان عليّ أن أقرأ كامو كي أرى في الشمس شيئاً آخر غير مجرد حالة الطقس. قبل اللقاء مع كامو، كانت الشمس هي ما يجب حماية الجسم منها من خلال لبس قبعة واستعمال زيت واقٍ من أشعتها. وبعد قراءته، سوف أجد فيها حليفاً للأوقات الصعبة؛ وسأتعلم أن أرى العالم على ضوء أشعتها التي لا تخيب. باختصار، لقد التقيت مع الشمس بفضل كامو. فقد اكتشفت في كتبه ما سوف أخبره لاحقاً وما سوف يصبح نوعاً من أخلاقيات الحياة: أي أن

أبذل جهدي للبقاء في الشمس المنيرة في لحظات الحياة السيئة، وبالرغم من الخيبات أو الكلوم؛ أي أن أحب الحياة حتى ولو لم يكن لها أي معنى. حتى أنني سوف أكتب رواية بعنوان الفرح لأعبر فيها عن مقدار التغيير الذي أحدثته فيَّ قراءة الغريب.

ولأنني قبلتُ الدعوة للسفر التي اقترحها إيمانويل كارير في المملكة، لم أعد أدخل الكنيسة بالطريقة ذاتها، وعندما يخترق نور الشمس زجاجها الملون، لم أعد أرفع بصري نحوها بالكيفية ذاتها. كما لم أعد أسمع بالأسلوب ذاته المؤمنين يتحدثون عن إيمانهم. كنت، قبلاً، أرى فيهم عارض هذا النكوص الطفلي الذي شخّصه فرويد بأنه عبارة عن الحاجة إلى الطمأنينة الذاتية. لكن منذ أن قرأت كتاب المملكة، أخذت أتساءل كيف تسلّل إلى نفوسهم اكتشاف بُشرى الإنجيل، وبَدَلَت وجودهم. كنت أنظر إليهم بسخرية فيما مضى، أما الآن فإنني ألاحظهم بنوع من الفضول، وحتى بشيء من التمني أن أكون مثلهم.

عالم كامو هو عالم من دون إله، بينما مملكة كارير مليئة بأسرار عيسى المسيح، ولقد غدّيانني، وغيّرانها، كلٌّ على طريقته، بصمتٍ في البداية، ومن ثم بصخب متزايد، حتى لم يبق لي من خيار آخر سوى الاستماع إلى الحقيقة: أي أن هناك في ذاتي متسعاً من المكان لكل من الصوفي الذي يرفع بصره إلى السماء، والملحد الذي يغمض عينيه عنها، وشعره وحواجه لا تزال مليئة ببقايا ملح البحر، بما يُمكنُّه من الإحساس بالشمس الحارقة بشكل أفضل.

الرغبة في الاعتراف بنا

تساعدنا فلسفة هيغل على فهم لماذا يملك اللقاء مع الآخر القدرة على تغييرنا. فهو في «جدلية السيد والعبد»، يناقض ما بين السيد والعبد بطريقة تبدو لنا مفاجئة للوهلة الأولى. حتى ولو كان السيد يأمر، فإنه حسب كاتب فينومينولوجيا الروح، سجين دائرة نرجسيته وسلطته المغلقة، أي سجين ذاتيته. ولأنه لا يلتقي بأي سيد آخر، ولا بأي أنا عاكسة لذاته، كما أنه لا يعمل، فليس بإمكانه الحصول على اعتراف موضوعي بقيمته. إذ من دون تجربة الغيرية هذه، لا يمكنه معرفة من هو. وبالمقابل، فإن العبد، حتى ولو رضح لسيدته، فإن لديه الفرصة أن يلتقي بالطبيعة، التي يجابها في عمله، مما يسمح له بأن يعي ذاته من خلال التعرف عليها فيما ينجزه من أعمال، وكذلك من خلال الذوات المشابهة لذاته التي تعمل معه، والتي من خلالها يمكن الاعتراف به. فالحرية، بالنسبة إلى هيغل، لا يمكن إلا أن تكون «موضوعية»: أي يتم البرهنة عليها موضوعياً من خلال أفعال خاضعة لموافقة الآخرين. وهكذا، فالعبد هو إذاً «أكثر حرية من السيد». لا يعدو ذلك كونه من باب التشبيه، إلا أن يوضح المكانة الحاسمة للقاء لدى هذه الكائنات الغريبة التي نمثلها. إذ كي نتقدم، لا بد لنا من اللقاء مع آخر مختلف عنا. ذلك هو كل معنى جدلية هيغل: فالفكرة يجب أن تلتقي بفكرة أخرى كي تُبرز كل قوتها. إذ وحدها، ومن دون الطرح المضاد، والنفي، الذي يجب أن يجابهه الطرح، فإنه لا يمكن أن يتجلى حقاً. وينطبق

الأمر ذاته على الأفراد. إذ يجب أن نجابه وعياً آخر، ومن خلال الفارق معه، يمكن أن نتعلم كيف وأين نتموضع، ونعرف قيمتنا وبالتالي نتقدم. علينا اللقاء مع الآخر كي نأمل إشباع ما يشكّل رغبتنا الأكثر عمقاً، كما يذهب إليه هيغل: أي اعتراف الآخر بنا، ومن خلاله، اعترافنا بذاتنا. إذ من دون مجابهة الغيرية، كيف بإمكاننا معرفة أين نحن، وكيف يمكننا أن نعرف من نحن؟

يحس الإله ذاته بالحاجة نفسها. ففي بداية الزمن والتاريخ، لم يكن للإله إلا فكرة غامضة عن من يكون، ذلك ما يكتبه هيغل في عمله الميتافيزيقي بعنوان فينومينولوجيا الروح. ويتابع هيغل قائلاً، إنه رغم كل كينونته الإلهية، فهو مسكون «بروح القلق»: إنه يريد معرفة من يكون. وهكذا فقد خلق «الآخر» الذي يتعارض معه، أي الطبيعة، وذلك كي يقابل بينه وبينها... ويلتقي معها. إذ لا شيء يتعارض مع الروح مثل تعارضها مع المادة. يمكن فهم هذا الفعل التأسيسي، الذي يعيد فيه هيغل التفكير بخلق العالم، على ضوء الحاجة إلى الغيرية. فمن خلال لقاءها بالمادة، ومجابهتها مع الطبيعة، تستوعب الروح مقدار اختلافها وتفهم من هي. وسوف تتحقق تدريجياً في الطبيعة، وتتموضع من خلالها، وتتجسد بالتالي روحانيتها: يشكّل بحث الروح هذا لذاتها محرك تاريخ الإنسانية. ولهذا يتصف التاريخ بالتقدم: فعلى مر القرون تتقدم الروح في الوعي بما هي عليه، أي الوعي بما تكون. وهكذا ينتهي الإله إلى معرفة أفضل بذاته:

فهو الحرية ويمكنه أن يتأمل ذاته في خلقه . قد تفاجئنا هذه الرواية الهيغلية الفخمة في أيامنا ، في عصر حيث تبدو فكرة تقدم التاريخ أقل بداهة عما كانت عليه في القرن التاسع عشر ، إلا أنها تهمنا لناحية ما تقوله بصدد آلية اللقاء ذاته : إذ هو في اللب الميتافيزيقي لكل تحقق وإنجاز ، وكل تقدم . حتى الإله بحاجة للقاء مع الآخر المختلف عنه . ولا يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك بالنسبة للبشر : إذ من دون الذهاب إلى ما ليست الذات ، من المستحيل معرفة من نكون . ومن دون أن نلتقي مع الآخر ، من المستحيل اللقاء مع أنفسنا .

يكتب بير ريفردي بنبرة هيغلية قائلاً : «ليس هناك حب ، إنما لا يوجد إلا براهين على الحب» : فالحب يُبرهن عليه في الأفعال ، تماماً كما تُقيّم اللقاءات الجميلة بالتغيير الذي تحدثه . أن نكون هيغليين يتيح لنا أن نحفظ بيقظة تجاه اللقاءات السيئة أو التي تسمم الوجود . ففي حين يجعلني اللقاء الطيب أكبر وأحسن حالاً ويفتحني على العالم ، فإن اللقاء السيئ يحط من قدرتي ، ويغرقني في التبعية أو العزلة . وإذا تَغَيَّرْتُ ، للأسوأ ، فذلك يعني أن الآخر لم يوقظ قوة الحياة لدي ، وإنما قد يكون من الناس الذين يسممون وجودي ، ويلعبون على أوجه ضعفي ، ويحطون من قدرتي كي يتمتعوا بقوتهم الهزيلة . فهناك العديد من الأشياء الأخرى التي تستحق أن نعيشها ، والعديد من أوجه الجمال الكامنة فينا ، منتظرة الساعة ، والفرصة كي تنبثق وتنتشر ، وهناك العديد من اللقاءات الممكنة التي يمكن أن تحد من تلك

التي تتنكر لوجودنا: من قبيل المعالج النفسي الذي يتيح لنا أن نكتشف آليات استلابنا، أو تبعيتنا، وكذلك الصديق القادر على مساندتنا ومدنا بالثقة، وكذلك القرين الذي يمكننا بفضلِه أن نحقق ذاتنا مهنيًا، والحب الذي يُظهر لنا بأننا جديرون بأن نُحِب.

وسواء أكانت غرامية، أو مهنية، أو على صعيد الصداقة، فإن اللقاءات الجميلة تُعرّف من الآثار التي تتركها في نفوسنا. يكتب كامو في دفاتره قائلاً: «نتمنى لو أن أولئك الذين بدأنا نحبههم قد كانوا عرفونا قبل أن نلتقي معهم، كي يتمكنوا من إدراك مدى تأثيرهم فينا وكيف غيرونا».

7

أشعر أنني مسؤول عنك

حين يكشف لي الآخر طبيعتي الأخلاقية

قد يكون التغيير الحاصل فينا جراء اللقاء من طبيعة أخلاقية أيضاً. لأنني التقيت معك، ولأننا وُجِدْنَا وجهاً لوجه وتأثرتُ بحالة ضعفك، فقد انتزعت فجأة من أنايتي الطبيعية، أو على الأقل من لامبالاتي: أنا الآن أشعر أنني مسؤول عن كائن آخر غيري. فاللقاء معك يكشف لي عندها طبيعتي الأخلاقية.

لأنني عثرت في الشارع على متشرد من دون مأوى، ولأنني لم أتجاهله وإنما دخلت في حديث معه، وروى لي مأساته التي تأثرت بها، لم أعد أستطيع أن أتابع طريقي في حالة من اللامبالاة. فهذا اللقاء يصرفني عن ذاتي، وضغوطاتي، وانشغالاتي. أخذ الآخر يحتل فجأة تفكيري. أتساءل فيما لو كان سيبيت على رصيف إحدى محطات المترو أو في أحد مراكز الإيواء، أو إن كان من الأفضل أن أعطيه بعض النقود، أو أقدم له بعض الطعام، أو أن أقدم له أكثر من مجرد سندويتش. أشعر، فجأة، بشيء من المسؤولية تجاهه. فهو هنا، وجهاً لوجه معي، وقريب مني، وله حضوره بشكل ما - فهو عاش في الشارع

وواجه الكثير في السنوات السابقة - ، إلا أنه ضعيف أيضاً؛ إذ ترتجف يده، ويعاني من الوحدة. ومن المحتمل أن يبرد الطقس كثيراً هذا المساء. هل يتعين عليّ دعوته للمبيت عندي؟ أو أن أحجز له غرفة في فندق؟ أو أن أزوده على الأقل بكنزة تقيه البرد؟ أنا هنا أطرح السؤال الأخلاقي بامتياز، كما يذهب إليه كانط: ماذا يجب عليّ أن أفعل؟

يكتب ليفيناس في صيغة قاطعة ما يلي: «الاستجابة لأحدهم، هي في الآن عينه الإحساس بالمسؤولية تجاهه»: إذ تبدأ مسؤوليتنا منذ اللحظة التي نبدأ فيها محادثة مع الآخر. فالسؤال البسيط يمكن أن يتضمن طلباً أكبر بما لا يقاس. ولذلك فنحن نفهم بشكل أفضل لماذا نفضل أحياناً أن لا نستجيب لمتشرد، ولا نترك أي مجال للقاء معه: إذ بذلك لا نشعر أننا مسؤولون عنه. قد نشعر بالذنب ربما، لأننا تابعنا طريقنا، وأشحنا عنه ببصرنا. ولكننا لن نشعر أننا مسؤولون عن مصيره.

تدخل التوصية باحترام الآخر، في صلب ثقافتنا الدينية، إلا أنها تميل إلى العمومية غالباً، حتى أنها تتخذ طابعاً مفرط التجريد: نُعلّم الأطفال أن كل شخص يستحق الاحترام لمجرد انتمائه إلى الشراكة الإنسانية، بمعزل عن أفعاله. نجد عند كانط تلك الفكرة التي تقول أن الآخر يجب أن يُعتَبَر دائماً «بمثابة غاية بحد ذاته»، وليس فقط كمجرد وسيلة»، مما يعني أننا يجب أن نحترم الآخر بـ «مثابة شخص قائم بذاته حتى ولو كان لنا معه مصلحة - أي نحترمه لأنه زميلنا، أو مستخدمنا، أو زبوننا...»

إلا أنه من دون اللقاء الفعلي مع الآخر، تبقى توصية الاحترام نوعاً من الكلام الجميل، أو الأمنية الورعة. فالتعاليم الأخلاقية الحقيقية لا تصدر لا عن الإله ولا عن ضميرنا، كما يوضحه ليفيناس. وإنما هي تصدر عن الآخر وعن حضوره في المقام الأول. تصدر عن هذا الآخر الذي قد لا يحتاج أحياناً أن يتفوه بكلمة، وإنما يقف أمامنا، عاجزاً، رقيق الحال، إنساني. يكفي أن ألتقي معه: فعجزه وهشاشته تملي عليّ ذلك.

تنجح هشاشة المولود الجديد، على سبيل المثال، رأساً في إحداث هذا الوعي لدينا: أنا أمك أو أبوك وحياتك بين يدي. فإذا كنتُ قد تأثرت بحركات أرجل أطفالي في بطن أمهم قبل ولادتهم، وإذا حاولت أن أكلّمهم حتى قبل أن أراهم، فأعترف أنني شعرت بصعوبة في الإحساس بأبوتي قبل ميلادهم. تعيّن عليّ أن أنتظر الولادة، وأرى ذلك الجسد الهش يخرج إلى الدنيا، ويظهر ذلك الوجه، حتى لا يعود يعتري هذه المسؤولية فجأة أي مجال للشك، وأن تفرض ذاتها عليّ كأمر واقع.

في مواجهة وجه الآخر

كتب ليفيناس صفحات فائقة الجمال عن الجلد الإنساني «غير المحمي». جلدنا أكثر نعومة بما لا يقاس من جلد اللبونات الأخرى. وإنه لمن السهل جداً قتل كائن إنساني. وأول الوصايا الأخلاقية القائلة - «لا تقتل أبداً» - ليس لها معنى إلا في الحضور الحقيقي للآخر في مواجهتنا، وفي وجهه الملتفت

نحونا، والذي يجعلنا مسؤولين عن بقائه. ويذهب ليفيناس بعيداً إلى حد الكلام عن «مسؤولية الرهينة». فهشاشة الآخر وعجزه يأخذاننا رهائن: إذ لا يعود لدينا عندها الخيار؛ حيث يقع علينا واجب الاعتناء به. ولا يجب أن نأخذ صيغة «مسؤولية الرهينة» بمعنى سلبي. فالمسؤولية التي تقع على عاتقي تكشف لي طبيعتي الأخلاقية الفعلية، وبالتالي تكشف لي تلك الحرية الصعبة - وهي عنوان أحد كتب ليفيناس - التي تقع على عاتقي: أي أن أتصرف جيداً. كما يكتب ليفيناس قائلاً: «إنه من خلال مقارنة الآخر فقط أتمكن من الحضور إلى ذاتي»، وهو يعني بذلك أن اللقاء مع الآخر هو ما يقودنا في النهاية إلى مستوى إنسانيتنا، ويرفعنا إلى مستوى حضورنا للآخرين.

يستعمل ليفيناس كثيراً كلمة «وجه»، إلا أن هذه المفردة تدل بالفعل، ويا للغرابة، على كلية جسم الآخر الذي يظهر في مواجهتي: وجه الآخر هو الآخر بكليته، الذي أجد ذاتي مسؤولاً كلياً تجاهه.

يُغطى وجه المحكوم بالإعدام بوشاح، ساعة تنفيذ الحكم بواسطة الجلاد. إذ من اليسير في الواقع قتل أحدهم عندما لا نرى وجهه، أي عندما لا نلتقي بإنسانيته. كذلك هو الحال في الحرب، فالخوذة التي يلبسها العدو قد تُسهّل، ويا للمفارقة، قتله. فرؤية الآخر، وإنسانيته، تعرضنا لخطر التردد، وتفتح ثغرة في قدرتنا على القتل. تصدر الصدمات التي يعيشها الجنود تحديداً من كونهم رأوا وجه الآخر، ونظرتهم المرتعبة، أو سمعوا

صوته. ولأنهم التقوا، ولو للحظات سريعة، مع ضحاياهم، فإن وجوه ضحاياهم وأصواتهم سوف تشكل كوابيس تطاردهم من ثم، إذ تذكّرهم هذه الوجوه بأن أفعالهم على أرض المعركة تتعارض كلياً مع التوصية الأولى القائلة: لا تقتل أبداً.

يعتبر ليفيناس أن صيغ آداب السلوك من قبيل «من بعدك، وأرجوك» تشكّل التعبير الفعلي عن الموقف الأخلاقي. فالتهذيب الذي قد نطن أنه تعبير سطحي، يصبح بريشته بداية الأخلاقيات. ويمكن فهم ذلك جيداً إذا عدنا إلى مثال اللقاء مع المتشرد. فإظهار التهذيب تجاهه، هو بداية الاهتمام به، والإحساس ولو جزئياً بالمسؤولية تجاهه. والتلاقي مع وجهه يعني عدم إمكانية الهروب من مسؤوليتنا الإنسانية. ومن المحتمل أنه لهذا السبب تمسنا اللوحة الشهيرة بعنوان الصرخة للرسام مونش، إلى هذا الحد. إذ لا يقتصر هذا الوجه ذو تعبير الرعب المذهل على وضعنا في مواجهة أزمة قلق هذا الرجل. إنه يضع رأسه بين يديه، ولم يعد يتحمل وجوده الذاتي؛ لدرجة أنه قد يقفز من فوق الجسر. هذه الصرخة هي نداء. وهذا الوجه ينادينا: ويتولّد قلقنا من مشاهدة محنته كما من مسؤوليتنا الذاتية.

لطالما عشت ضرورة اللقاء هذه كي يتاح لي فعلاً تحمل مسؤوليتي كأستاذ. فالعلامات التي أعطيها للطلاب، والتقديرات التي أكتبها على سجلاتهم المدرسية يمكن أن تكون حاسمة في تقرير مصيرهم، إذ قد تفتح أمامهم الأبواب أو تغلقها. ويحدث لي أن لا ألتقي بعض طلاب إحدى الدفقات الدراسية؛ إذ تمر

السنة دون أن نقيم علاقة خاصة. أستعمل، في هذه الحالة، خلال إبداء تقديراتي في سجلاتهم، تعابير محايدة، وكأنني أتخلص بذلك من مسؤوليتي. أحاول أن لا أسيء إليهم، ولكن لأنني لم أعرفهم فعلاً، فلا أستطيع أن أساعدهم. وفي المقابل، فعندما يحدث اللقاء فعلياً مع أحد التلاميذ، وعندما ننجز شيئاً معاً، ويتم نوع من التفاهم بيننا، ومهما كانت نتائج المدرسة، أشعر بمسؤوليتي، وأعد سجله بعناية خاصة؛ إذ أحسن اختيار كلماتي، وأكون دقيقاً في تقديري، ويتكون لدي الشعور بأنني أشارك في تحديد مستقبله. فعندما ألتقي فعلاً مع هذا الطالب في تفرد، أحس أنني أتحمل مسؤوليتي فعلاً بمثابة مدرس. إذ إن مجرد ضميري المهني وحده غير كافٍ.

نفهم الآن بشكل أفضل ما الذي يعيق أحياناً وعينا بالوضع البيئي. فإذا كان حضور الآخر، واللقاء به ضروريين لتبيان مسؤوليتي، فكيف يمكن أن أحس بها تجاه ذاك الإنسان الذي يعيش في قلب غابات الأمازون، المهددة بالزوال المرتبط بالزراعة المكثفة لنبات الصويا التي تغذي المواشي التي نفرط في استهلاك لحومها؟ وكيف يمكننا أن نشعر بالمسؤولية تجاه شعب الإسكيمو الذي يلاحظ يومياً آثار الاحتباس الحراري ويرى تدهور أعداد الدببة القطبية، والفقمات وكل الطيور البحرية التي تتوقف حياتها على استمرار الثلج القطبي؟ انتفاضتنا البيئية للحفاظ على المناخ ضرورية، خصوصاً لأحفادنا، وحتى أبناء أحفادنا. ولكن أجيال المستقبل هذه لم تولد بعد... فكيف

يمكن أن نكون مسؤولين عن أجيال قادمة لن نلتقي بها، ولا نعرف حتى وجوهها؟

تروي رواية كامو بعنوان السقوط فساد حياة محامٍ باريسي قديم، وعدم التقائه مع واجبه. ففي إحدى الأمسيات، وبينما كان يمشي هذا المحامي المسمى جان-باتيست كلامانس على ضفة نهر السين، لم يسارع لإنقاذ فتاة شابة قفزت من على جسر الفنون. تروي السقوط، التي تتمثل في حوار ذاتي قصير جداً وفائق الكآبة، حياة بأكملها من الندم والاكتئاب. فالسقوط في الآن عينه فيزيقياً وأخلاقياً، ويؤدي بجان-باتيست كلامانس إلى إعادة النظر في حياته السابقة على تلك الأمسية المشؤومة، أي حياة وصولي مغتر بنفسه. وعلى كل حال، فمن خلال كشف مشهد المأساة، يتبين لنا أنه لم يلتق بهذه الفتاة حقاً. بل هو مرّ بجانبها على عجل قبل أن يسمع ما بدا له أنه صوت جسم يسقط في الماء. إذ تابع طريقه دون أن يطلب شرطة النجدة وذلك هو ما يقض مضجعه، بقدر شبح تلك الفتاة. إذ هي مجرد شبح بالنسبة إليه، حيث لم ير وجهها، ولم تتقاطع نظراته مع نظراتها. إنه لم يلتق بها بالمعنى الذي يقصده ليفيناس؛ وبالتالي لا يمكنه أن يشعر أنه مسؤول كلياً. فلو أنه رأى وجهها، لربما كان أبدى ردة فعل معينة، من قبيل أن يحاول إيقافها عن الإقدام على فعلتها. وكان بالإمكان أن ينقذ حياتها. وينقذ حياته في آن معاً.

8

أنا أحيّا

حين ينقذ الآخر حياتي

كيف يمكننا التأكيد على الدور الحاسم للقاءات في حياتنا دون أن نذكر أن هناك لقاءات تنقذ حياتنا، بالمعنى الحرفي؟

تعطينا قصة حياة عازف البيانو اليهودي البولوني فلاديسلاف شبيلمان، المدعو فلاديك، والذي فرّ من غيتو فرصوفيا وتم إنقاذه على يد ضابط ألماني، دليلاً مؤثراً على ذلك. فعندما نشبت الحرب العالمية الثانية، كان فلاديك عازف البيانو الرسمي لإذاعة بولونيا الوطنية، ووجهاً مركزياً في الحياة الثقافية لبلده، حيث كانت مؤلفاته الموسيقية محط تقدير الجميع، وكذلك عزفه لموسيقى كل من شوبان وليست. وبعد اجتياح النازيين لبولونيا، أوقفوا كل اليهود وحجزوهم في غيتو فرصوفيا، حيث كانت تُرسل دفعات منهم بانتظام إلى معسكرات الاعتقال. وفي حين رُحِّلَت كل عائلته إلى معسكر تريبلينكا، تمكن فلاديك من الفرار من الغيتو كما تمكن من اللجوء لدى المقاومة. إلا أن المعارك اشتدت في فرصوفيا، وبالتالي لم تعد الشقة التي اختبأ فيها آمنة؛ فتعين عليه أن يهرب من جديد. وبعد أن تاه طويلاً، نجح

في الاختباء في مخزن مؤن أحد المنازل المدمّرة بالقصف المدفعي. قبع هناك لوقت طويل يعاني الجوع والعطش، ومنهوك القوى. كان الألمان يجرون دوريات، ويمرون قريباً جداً منه أحياناً، بحيث يسمع أصواتهم. كانوا يفتشون كل الأماكن بحثاً عن اليهود والمقاومين. وعثر عليه أحد الضباط الألمان في النهاية. كان ذلك الضابط، ويلم هوسانفيلد، نقيباً في الجيش الألماني، اشتهر بأنه كان يفرض على جنوده احترام اتفاقية جنيف خلال استجواب السجناء، وذلك في مخالفة لرأي رؤسائه. كما أنه أصيب بالرعب حين اكتشف المصير المعد لليهود من قبل النظام الذي يخدمه، والذي وضع فيه كل آماله في بداية خدمته. كما أنه كان مولعاً بالموسيقى. وحين علم أن فلاديك كان عازف بيانو، فلقد دلّهُ على بيانو يعلوه الغبار. كان فلاديك بالكاد يستطيع الكلام والمشي نظراً لما عاناه من ضعف وإجهاد. ومع ذلك، انسابت أصابعه على مفاتيح البيانو؛ وهكذا صدحت موسيقى شوبان في هذا البيت الكبير المدمّر. أصبح عازف البيانو اليهودي هذا رمزاً لخراب البربرية النازية: مبدع تحوّل إلى خيال بشر، ذي وجه شديد الضمور، وشعر أشعث وأسمال بالية. تحقق الضابط الألماني، من خلال اللقاء معه، من مقدار الجريمة ضد الجمال، وحتى ضد الإنسانية، التي هو متواطئ فيها. الجيش الأحمر على أبواب فرسوفيا، وسوف يخسر الألمان الحرب عما قريب. ولم يتبقّ لفلاديك وقتاً طويلاً للصمود، إذ بعد أسابيع معدودة سوف يستطيع أن يخرج من

مخبئه. وبدلاً من أن يأخذه سجيناً، تركه الضابط هوسانفيلد في مخبئه، وكان يقدم له بعض الطعام بانتظام. حتى أنه قدّم له معطفه العسكري الألماني كي يحمي من البرد. وعندما حرّر الروس فرصوفيا، وقع الألمان أسرى، وتمكن فلاديك أخيراً من الخروج إلى العلن؛ وجد نفسه في الشارع مذهولاً بين أنقاض الدمار. لقد نسي أن المعطف الذي يلبسه هو لضابط ألماني، وكاد أن يتعرض للقتل من قبل الثوار البولونيين، الذين تعرفوا عليه في النهاية رغم معطفه الألماني. كتب فلاديك ذلك في مذكراته بعنوان مدينة تموت، التي نُشرت لأول مرة في العام 1946، وأعيد نشرها في العام 1998 تحت عنوان عازف البيانو والتي حوّلها المخرج السينمائي رومان بولانسكي إلى فيلم: من دون هذا اللقاء مع الضابط الألماني، لكان مات من الجوع والبرد. ولو أنه لم يُتاح لهما الوقت الكافي للتعرف الفعلي و«اكتشاف اختلاف الآخر»، كان اللقاء حقيقياً بين العازف والضابط: إذ لم يقتصر اللقاء على إنقاذ حياة عازف البيانو، إلا أنهما هو والضابط اقتسما علاقة جد قوية خلال وقت قصير جداً. فهناك ظروف تتكشف فيها الحياة، وتتسارع. وبعد الحرب، استعاد فلاديك وظيفته كعازف البيانو في الإذاعة الوطنية، بينما تعرضت كل عائلته للنفي والموت. وحاول جاهداً ومن دون جدوى أن يعرف مصير الضابط الذي أنقذه. وعلم بعد مرور سنوات عديدة أنه مات في العام 1952 في أحد معسكرات الاعتقال السوفياتية. ولم يتمكن من معرفة أكثر من ذلك. وفي

العام 2009، وبعد ما يقارب الستين سنة على موته، تم الاعتراف بالضابط ويلم هوسانفيلد بمثابة «عادل بين الشعوب».

مرشد المرونة الاستيعابية⁽¹⁾

يمكن للقاء إنقاذنا كذلك في ظروف عادية، وأقل استثنائية، ومن دون بطولات: قد يتعلق الأمر بطبيب يشخص المرض في وقت مبكر، أو معالج يقيم معنا «حلفاً علاجياً» يساعد على خلاصنا، أو واحد من أولئك الأشخاص من محيطنا الذين يسميهم بوريس سيروولنيك «مرشدي المرونة الاستيعابية»، والذين هم قادرون على مساعدتنا على النهوض بعد المأساة، من خلال الاهتمام أو الحب الذي يكونه لنا.

فمن خلال اكتشافه لمصطلح المرونة الاستيعابية الذي قالت به عالمة نفس أميركية تسمى إيمي فيرنر، تمكن الطبيب العقلي بوريس سيروولنيك من توحيد مختلف الملاحظات العيادية الناتجة عن ممارسته العلاجية، والتي تتلاقى كلها في الاتجاه ذاته: بعض الأشخاص الذين مروا بمحن كبرى وكان بالإمكان أن تطحنهم هذه الصدمات، أبدوا القدرة، ودون أن نعرف كيف حدث ذلك، على استنهاض قدرات وإمكانيات نموهم الطبيعي. وحتى عندما تكون الصدمة عنيفة ومدمرة، وتبدو الإصابة غير

(1) المرونة الاستيعابية (Résilience): مصطلح علمي يعني القدرة على تحمّل الشدائد والمحن والخروج منها في حالة نفسية معقولة، ومن ثم استعادة القدرة على النهوض. (المترجم)

قابلة للإصلاح - من قبيل اعتقال الأهل ونفيهم حين يكون الطفل في عمر صغير جداً، وهو ما حدث لبوريس سيرولنيك ذاته، وكذلك مشاهد العنف والبربرية كما في الحروب القبلية في رواندا، أو البؤس الاجتماعي الصارخ الذي يهدد بقاء الطفل، أو قتل أحد الوالدين أمام أعين الطفل... - يتمكن بعض الأشخاص من النهوض من جديد واستعادة الانطلاق، وبدء حياة جديدة بديلة. وإذا كان هذا النوع من المرونة الاستيعابية يظل ملغزاً بشكل ما، فلقد أمكن تحديد العديد من العوامل الميسرة لهذه المرونة الاستيعابية: من أبرزها «المناعة البنيوية المبكرة» عند من يبدي هذه المرونة (من قبيل العناية والحب والاحتضان العاطفي التي حظي بها الواحد من هؤلاء في سنين حياته الأولى)، وتحريك آليات الدفاع النفسي التي توفر بعض التحصين الذاتي، والتي تحمي المرء ضد عنف الصدمة، وكذلك القدرة على عقلنة الصدمة وأسبابها وربطها بدلالة إيجابية من نوع ما [التضحية من أجل قضية كبرى كما هو حال الفلسطينيين في غزة] وسواها من التبريرات. ومن أبرز وسائل الحصانة توفر وجود إنساني متعاطف ومتآزر ومتضامن مع المصاب، أي لقاءه بـ «مرشد المرونة الاستيعابية». تعتبر إيمي فيرنر وبوريس سيرولنيك ذلك بمثابة العامل الأكثر أهمية: إذ إنه لا يحدد الاستجابة وحدها، وإنما هو يحصن المرء بشكل كافٍ بمعزل عن بقية العوامل الأخرى، وينقذ الشخص من الانهيار الذي كان يمكن أن يؤدي به إلى الهلاك. يتنوع هؤلاء الأشخاص الذين يحيطون بالمصاب

ويحصنونه؛ من قبيل الوالدين، أحد المعلمين، أو الاختصاصيين النفسيين، أو الأقارب أو الأشخاص المرجعيين: المهم الإحاطة به ومشاركته المأساة والتعاطف معه، وعدم تحويله إلى مجرد ضحية، ومدّه بالأمل بالخلاص والقدرة على الخروج من المحنة، أي ممارسة «القبول غير المشروط» لشخصه وتفهم محنته والتعبير عن ذلك كما يذهب إليه عالم النفس والمعالج الكبير كارل روجرز. عندها يُؤلّد الأمل بمعجزة صغيرة: حيث يشعر المصاب بأنه ليس مجرد ضحية عاجزة ومتروكة لوحشية قوى تسحقه، ويستعيد بذلك شيء من القدرة على المجابهة من خلال تحريك طاقاته الحية، وإصراره على حق الحياة. فبفضل مرشد المرونة الاستيعابية هذا، وهذه الرعاية والاحتضان، وبفضل هذه الثقة بالآخر، وبفضل تدبر وسائل التعامل والمجابهة، يستعيد الشخص الذي تعرض لصدمة المحنة، الثقة بالنفس، وبالمستقبل والحياة، ويمتلك بالتالي المرونة الاستيعابية.

يروى بوريس سيروولنيك في سيرته الذاتية بعنوان أنقذ نفسك، الحياة تناديك، لقاء مع مَنْ كان مرشد المرونة الاستيعابية لديه. ففي العام 1942، وفي عمر الخامسة، عهد به والداه إلى مسؤول أحد دور الرعاية، كي يجنّباه النفي إلى معسكرات الاعتقال التي لن يعودا منها. ووجد نفسه بعد عدة شهور في أحد دور الأيتام. وفي العام 1944 تعرض ابن الوالدين للوشاية إلى الغيستاو لقاء ما يعادل خمسين يورو: جُمع

عندها مع يهود آخرين في الكنيس الكبير في مدينة بوردو، إلا أنه نجح في الاختباء في دورة المياه قبل أن تنقذه في اللحظة الأخيرة ممرضة وتخفيه في سيارة نقل تحت فرشاة أحد المرضى. وتم تعهده من ثم من قبل شبكة من المقاومين ووُضِعَ بعدها في مزرعة باسم مستعار. أصيب بفقدان النطق، ولم يعد يدري من هو فعلاً، وأصبح يشرد حول المزرعة في حالة من الذهول، حيث أصبح غائباً عن ذاته أكثر من كونه مرعوباً، ووقع ضحية لما أسماه فيما بعد «الاحتضار النفسي». وخلال السنوات العشرة الأولى من حياته، تنقل من مركز رعاية متخصص إلى آخر (لما يزيد عن خمس عشرة مرة)، ولم يتح له خلالها أن ينسج أي رباط، أو يجد أدنى شعور بالأمان العاطفي، حاملاً خجله من كونه مختلفاً عن الآخرين، وإحساسه بأنه غير طبيعي، بلا أم ولا أب. في سن العاشرة، كان بالكاد يستطيع القراءة. وفي الحادية عشرة من عمره، أخذته خالته دورا كي يقيم معها في بوردو. ولأنه كان عاجزاً عن متابعة تعليم تقليدي، أو يحترم أي قواعد، انتهى به المطاف في أحد صفوف مركز متخصص للتلاميذ «المتخلفين». كانت دورا تمتهن الرقص وذات طبيعة فرحة ومنطلقة، فاهتمت بهذا الصبي الصغير المكلوم نفسياً، وحاولت أن تنقل إليه فرحها بالحياة، إلا أنها اصطدمت بهذا الصبي الصموت الذي جعلته العزلة متجهماً وفي حالة ذهول من قسوة البشر ومقدار أذاهم... إلا أن اللقاء مع إميل رفيق دورا سوف يغيّر كل شيء.

يروى بوريس سيرولنيك فيما بعد قائلاً: «عندما قدمت لي دورا إميل، ظل واقفاً أمام الباب لأن الحجرة الضيقة جداً لا تتسع لثلاثة كراسي. لماذا افتننتُ رأساً بقوته ولطفه؟ يمكنني القول الآن، في الواقع، أن مظهره حرك في نفسي ما كنت أتمناه: أي القوة واللفظ. كشف لي إميل ما كنت آمل أن أصير عليه يوماً ما، عندما أكبر [...] لم أحس بالانفعال ذاته عندما قدمت لي دورا أصدقاءها الآخرين، سواء الراقص الكورسيكي البهلواني، أو موريس الذي يُلقَّب بفريد أستير مون مارتر. لقد وجدتهما راقصين محبين، وفرحين ويشيران الإعجاب. [...] لقد أحببتهما كليهما، إلا أن طريقهما لم تكن هي ذاتها طريقي. عندما قدمت لي دورا إميل قالت: «سوف نعيش سوية. إميل متخصص في العلوم ويلعب رياضة الروغبي». ولم أكن أعرف عندها ما هو العلم ولا ما هي الروغبي، إلا أنني ارتحت له رأساً. حدثت عندها ظاهرة غريبة [...]، إذ أصبحت فجأة تلميذاً مميزاً، وكأن عالمي الحميم قد تفتح فجأة».

لقاء واحد كان كافياً. وفي قلب هذا اللقاء حدث التماهي مع إميل. كان إميل مدير مختبر أبحاث، وحين كان ينزع ثوب الباحث، كان يلبس ثياب الرياضي، أو يأخذ حبيبته الراقصة بين ذراعيه القويتين. وكان يفيض بقوة الحياة، وبحماس يدفعه إلى العلم، وإلى دورا، وإلى ملعب الروغبي. وفجأة أصبح بوريس يريد أن يكون إميل آخر. ولم يكن إميل يتكلف التصرف مع هذا الفتى. بل اكتفى بأن يكون على سجيته: قوي جسدياً، وعالم،

ويمتلك غنى فرح الحياة الذي يتشارك فيه مع دورا . كان إميل يملك موهبة غير مدرك لها تشكل نوعاً من الهبة الطبيعية : فعندما ينظر إلى بوريس ، لم يكن يرى فيه ذلك الناجي من الرعب ، ولا ذاك اليتيم أو الطفل الذي يعاني من صدمة الضياع وفقدان الوالدين . بل كان يراه بمثابة مراقب عادي يحدثه عن مهنته وعن تقنيات لعبة الروغبي . وهو ما كان له أبلغ الأثر على نفسية الفتى . كان يمازحه كما يمازح أي مراقب يتعين الحصول على تعاطفه لأنه كان يتوجب عليهم العيش معاً . ولم يكن إميل يتقصد إثارة هذا التعاطف ، وإنما حين يتكلم مع بوريس ، فإنه يتحدث عن الحياة التي يتعين صناعتها وعيشها وليس عن الموت الذي أفلت منه هذا الفتى بأعجوبة . من خلال علاقته بإميل ، اكتشف بوريس تعطشاً للتعلم ، ورغبة جارفة في استدراك ما فاتته . أحدث اللقاء مع مرشد المرونة الاستيعابية هذا آثاره الفائقة خلال أسابيع معدودة : قرر بوريس أن يصبح نوعاً من إميل . فسوف يلعب الروغبي بدوره . إذ إنه كان كبير القامة بالنسبة لعمره ، وساعدته حياته في المزرعة على تصليب عوده . وسوف يصبح لاحقاً طبيباً عقلياً كي يستجلي غوامض المأساة التي مرّ بها وينخرط في المسار العلمي على غرار إميل .

يكتب سيرولنيك بهذا الصدد قائلاً : «سرعة هذه الطفرة الفكرية لا زالت تذهلني حتى اليوم . إذ توقفت حياتي العقلية في سن الثانية عندما وَجَدَت أُمِّي ذاتها وحيدة بعد تطوع أبي في الجيش الفرنسي ، وكانت قلقة جداً بدنو وقوعه في الأسر . وتلى

ذلك بالنسبة لي عدة سنوات من المطاردة، ومجاورة الموت والعزلة الحسية. إذ إن تلاحق الصدمات العاطفية المتكررة، ومنع الخروج أو الذهاب إلى المدرسة، واستبداد إحساس بأنني شاذ الخلقة جعل من المستحيل أن أحقق أقل قدر من النمو. لم أعان خلال هذه الاعتداءات النفسية لأن روحي قد تجمدت. إذ لا نشعر بشيء عندما نكون في حالة «احتضار نفسي». [...] ولكن بمجرد أن وفر الوجود من حولي بديلاً عاطفياً، يتمثل براقصة جميلة ورجل علم صلب وقوي، حتى تعود إليّ الحياة وكأنها دفقة سعادة».

وبعد إميل توفر لسيرولنيك لقاءات أخرى، سوف تغذي رغبته في العيش: رفاق الإعدادية والثانوية، كتب إميل زولا وديكنز وفرويد، وأعمال عالم الحشرات جان-هنري فابر التي سوف تدهشه، وهو الذي قضى قسطاً هاماً من سنوات عمره الأولى في ضرورة الاختباء، والنوم على الأرض، وليس معه من صحبة سوى النمل. إلا أن اللقاء مع إميل هو ما جعل بقية لقاءاته ممكنة. إذ إنه استعاد قدرته على إقامة العلاقات من خلال تواجده معه. كما أصبحت حالته أيضاً مرشدة في المرونة الاستيعابية، ولكن فقط بعد أن وضعه لقاءه مع إميل على سكة حياة جديدة. وحين نعرف مدى قابلية الإقدام على الانتحار لدى المراهقين الذين تعرضوا لصدمات ومحن في طفولتهم، يمكننا أن نؤكد أن اللقاء مع إميل ربما يكون قد أنقذ حياة بوريس سيرولنيك.

يكتب بوريس سيرولنيك قائلاً في أنقذ نفسك، الحياة تناديك: «كل لقاء يغيّرنا. فأنا لم ألتق الدهان الذي قال لي إن الفتيات والشاذين جنسياً هم فقط من يتابعون الدراسة، إذ إنني مررت به فقط. فهو قد أدهشني ولكنه لم يقنعني. لم يكن ذلك لقاءً فعلياً لأنه لم يحول لي مساري الحياتي. كما أنه لم يترك بصمته عليّ». بينما أن اللقاء مع إميل قد حوّل مسار حياة الآلام والصمت ومن الممكن ربما مسار الموت، عند هذا الفتى. لقد ترك إميل بصمته عليه لأنه تمكّن من مصالحته مع الحياة، حيث أصبح عالماً عطوفاً، على غرار إميل.

ومع ذلك فإن إميل لم يفعل أي شيء خارق بمعنى الكلمة، ولم يُقدّم على القيام بأي بطولة تجاه الفتى. فهو لم يخاطر بحياته لإنقاذ بوريس. بل كان مجرد كائن إنساني بكل معنى الكلمة، وبذلك وحده عرف كيف يعطي لهذا المراهق المحطّم الرغبة في الارتباط من جديد، والذي لا يمكن للإنسان أن ينمو ويتقدم من دونه. فمن خلال تفاهمه مع بوريس، وتعاطفه الفرح، وبتقديم النموذج، استطاع أن يوقظ في الفتى الرغبات الطبيعية لدى البشر - أن ينجح في دراسته، ويتسلى مع رفاقه، ويمارس رياضة الروغبي... كان إميل أنموذجاً للإنسان العادي، ولو أنه مارس عفوية صفات الإنصات والحضور بشكل جميل. كانت مع ذلك عواقب هذا اللقاء - وتلك هي القوة الهائلة للقاء - خارقة للعادة. حياة تعاود الانطلاق، وكائن يولد من جديد من بين الانقراض ويعاود الإيمان بالسعادة.

تتمثل الإشارات الأولى للقاء الحقيقي الذي بدأ يحدث في كل من الاضطراب، والفضول، والاعتراف، والرغبة في الانطلاق. وتأتي بعدها تجربة الغيرية، والتغيير، والمسؤولية، والخلاص التي تشكل إشارات اللقاء الذي يستمر، ويحدث آثاره الطيبة. وتبلغ هذه الأخيرة درجة من القوة بحيث لا يمكن أن نتركها لمجرد الصدفة. فلننظر الآن فيما يمكننا عمله لتسهيل لقاءاتنا، وأن ننجح في تحويل الصدفة إلى فرصة حليفة لنا.

القسم الثاني

شروط اللقاء

1

الخروج من القوقعة الذاتية

فلسفة الفعل

في لب اللقاء، يحدث أن تتخذ الصدفة مظهر القدر، إلا أنها تظل كذلك: وهو ما نسميه، في الفلسفة، الاحتمال. فالاحتمال - هو حدث إنما كان يمكن أن لا يحدث - يتعارض مع فكرة الضرورة، أو الحتمية - أي ما حدث ولا يمكن أن لا يحدث. إنني التقيت بك في درس يوغا أو خلال حفل موسيقي، ولكن كان بالإمكان أن لا ألتقي بك. إذ كان بإمكانني أن أتابع درساً آخر، أو أن أكون غائباً في المرة الوحيدة التي أتيت أنت فيها. كان بإمكانني أن لا أذهب إلى ذلك الحفل الموسيقي، وأكتفي بالاستماع إلى تسجيله في بيتي، وعندها لن ننخرط في تلك المحادثة خلال فترة الاستراحة. باختصار، كان يمكن للقائنا أن لا يحدث. من خلال تأكيدني على ذلك، أتخذ موقف فلاسفة الاحتمال، من أمثال أبيقور أو سارتر، ضد فلاسفة الضرورة من أمثال مارك-أوريل أو سبينوزا. فبالنسبة لهذين الأخيرين، كل شيء يحدث تبعاً لضرورة عليا (أي مسألة كونية تبعاً لمارك-أوريل، أو الإرادة الإلهية تبعاً لسبينوزا). فإذا كان

القدر هو ما يقود خطواتنا، لن يكون لدينا خيار تسهيل لقاءاتنا من خلال أفعالنا.

أما بالنسبة لأبيقور، على العكس من ذلك، فمن خلال فعل الصدفة ذات الطابع الاحتمالي، أنا أقدر فرصة لقائي معك؛ إذ كان بإمكان قصتنا أن لا تبدأ أبداً... ذلك ما يعطي مذاقاً إضافياً لعناقنا، والمزيد من الكثافة لصداقتنا الوليدة، وبعداً آخر لرابطتنا المهنية.

التفكير بالواقع، وبلقاءاتنا، استناداً إلى مفهوم الاحتمال هذا يمثل طريقة جيدة للاستمتاع بالحياة، واستيعاب قيمتها وثمرتها، والاستمرار بالغبطة أمام المفاجآت التي تحملها لنا، وأمام مجرد كونها تحدث. إذ من دون هذا اللقاء ما بين أرضنا ومذنب منذ أربعة مليارات سنة، أي من دون هذا الحادث الفلكي الذي كان ضئيل الاحتمال جداً، والذي كأنه خَصَّبَ كوكب الأرض وأمدّه بالمياه اللازمة لأي حياة، فإن هذه الحياة ما كانت لتظهر وتنمو، ولما كنا لنوجد كي نتكلم عن ذلك.

توليد الحظ

الفعل، هو توليد للاحتمال؛ وتحدي الصدفة. فلو كان الواقع إلزامياً وليس احتمالياً، وإذا كان كل ما يأتي لا يمكن إلا أن يكون، عندها سوف يكون من الصعب الدفاع عن فلسفة الفعل القصدي. إلا أنه في العالم الاحتمالي، يصبح الفعل دافعاً حاسماً. فمن خلال بدئي في التحرك، أُحْدِثُ تغيرات، لا

أستطيع بالضبط قياس آثارها، إلا أنها تؤثر على سلسلة السببية؛
فالتصرف يعيد تشكيل العالم، ويعيد خلط الأوراق.

طَوَّرَ أرسطو فلسفة للفعل تحديداً لأن عالمنا - أي عالم ما
تحت الشمس المواجه للكون، وهو عالم الضرورة، وموضع
الحقيقة الأزلية - يتميز بالاحتمال، تبعاً له. يفتح هذا الاحتمال
أمامنا مجالاً لحريتنا ويتطلب منا مهارة التقاط الفرص المواتية
للتصرف (Kaïros). لقد كان أرسطو، بالمناسبة، واحداً من
أوائل المدافعين عن الديمقراطية: والإيمان بالديموقراطية يعني
الإيمان بالعمل الجماعي القادر على تغيير الأشياء.

ففي عالم الاحتمال، لا تعود عزلتنا، وعجزنا عن لقاء
الآخرين إلى أي قدر محتوم: إذ ليس هناك من مبرر لوجودها
(العزلة والعجز). يكفي أن نخرج من منزلنا كي نولد الصدفة
ونغير كل شيء ربما، تماماً كاللقاء حجر الزهر في لعبة علاقاتنا
مع الآخرين، وقصص غرامنا أو صداقتنا، وروابطنا المهنية.
يقودنا التطير إلى تصور الحظ بمثابة معطى موضوعي، خارج عن
إرادتنا أو عن فعلنا؛ كما يعني أن ننسى أن الحظ يمكن توليده،
والتسبب به.

ملاقة أحدهم يعني الخروج من القوقعة الذاتية - وانتزاع
الذات من التقوقع والتركز حول ذاتها كي نفتح على منظور
الآخر وعالمه. ولكن لكي ننجح هكذا في الخروج من الذات،
يتعين في البدء أن نخرج من بيوتنا.

يميز أستاذ علم النفس فيليب غابيليه، في عمله بعنوان في مديح الحظ، بين ضربات الحظ الاستثنائية، والتي هي مجرد نتاج الصدفة، وما يسميه «توليد الحظ» أو «وضع الحظ»: «أي تلك الحركة المنتظمة، والمتكررة، التي تجعل بعض الرجال والنساء يبدو أنهم يراكمون - أكثر من غيرهم - الأحداث الملائمة خلال مسار وجودهم». وخلافاً للسعد الذي يبتسم لنا، فإن الحظ المتكرر لا يمكن أن يكون له تفسير إحصائي، ويجب بالتالي أن نبحث عن أسبابه في سلوكاتنا، وطريقتنا في التفاعل مع الآخرين والعالم. إنه يثار من خلال موقف الالتزام والانفتاح والتقبل، وأسلوب من التقدم في الوجود بعيون مفتوحة، تستقبل كل الإشارات التي يرسلها لنا العالم، مع معرفة «كيفية إعادة تدوير هذه المادة الخام التي تشكلها الصدفة بحيث نحولها إلى مُنتَج مُحَسَّن نطلق عليه فرصة ملائمة»، كما يقول فيليب كابلويه. ويؤكد فيرجيل قائلاً: «الحظ يبتسم لكل جسور». إنه لا يأتي بالصدفة، ولا يوزع حسناته كيفما اتفق؛ فهو يعلم كيف يتعرف على أهله، أي الذين واللواتي ينخرطون بحماس وهمة، ويحاولون أن يفتحوا دروباً جديدة في الواقع، ولا يكتفون بالسير على خطى الذين سبقوهم.

ولكي نُؤلِّد الحظ، يتعين قبلاً التخلي عن العادات التي تقيدنا. بمعنى التكرار اليومي الروتيني لنفس الأفعال، وفي الساعات ذاتها وبشكل آلي، ومن دون أن نكون حاضرين لذاتنا

ولا للعالم، وإنما نتهياً لبعثة جديدة، بفكر يقظ وقلب مفتوح. توليد الحظ يبدأ أحياناً بمجرد خطوة في اتجاه مغاير، وبخروج ولو ضئيل عن العادات الروتينية. فإذا كانت ضغوط الحياة تجبرنا على الخروج، فإنها قد لا تضعنا في وضعية أكثر ملاءمة للقاء. فإذا سلكنا كل صباح المسار نفسه للذهاب إلى العمل، وإذا استعرضنا كل يوم سبت رفوف المتجر الكبير ذاته، قد نحقق لقاءً جميلاً، إلا أننا سنكون أقل انفتاحاً ويقظة على الفرص مما إذا كنا نتردد على أماكن جديدة، من قبيل حضور حفل موسيقي أو توقيع كتاب لمؤلف يهمنا. كذلك، فحين نلتحق بدرس رياضة قتالية - حيث ممارستها المتطلبة تزودنا بالسيطرة على حياة فوضوية -، نصبح أكثر استعداداً للانفتاح على العالم، وإغناء فضولنا؛ فاهتماماتنا هذه تساعدنا على الانفتاح على الآخرين بينما أن الأعمال الروتينية تعزلنا عنهم. وإذا كان درس الرياضة القتالية هذا يندرج كذلك ضمن عادة ألفناها، فإننا نكون بصدد نشاط معتاد يشكلنا بنيوياً، ويتيح لنا أن نقيس مدى التقدم المتحقق، وبالتالي يحافظ على يقظتنا وانتفاحنا. بينما عندما نتصرف على العكس بمثابة رد فعل وبشكل آلي، نتعرض لأن لا نلاحظ ذاك أو تلك من الأشخاص الذين نصادفهم؛ وبالتالي فالمجال الذي نوفره لإمكانية لقاء فعلي يتعرض للانحسار.

على أنه لا يتعين أن نوجه طلعاتنا إلى الخارج بهدف البحث عن اللقاء فقط: فالدافع يختلف تماماً حين ألتسجل في درس

رياضة بهدف اللقاء مع أحدهم فقط، أو أن ألتحق بهذا الصف بدافع الرغبة في إتقان هذه الرياضة، وبالتالي تتاح لي الفرصة أن ألتقي بهذه المناسبة مع أحدهم. ففي الحالة الأولى تتعرض المقاربة المقصودة للتعرف لأن تكون غير فاعلة، بل هي قد تنتهي بالفشل. بينما يأتي اللقاء في الحالة الثانية بشكل إضافي، وبمثابة هبة ناجمة عن ممارستنا وولعنا بما نمارسه، وانتفاحنا على الآخرين والاهتمام بهم. وحتى حين يدعونا بعض الأصدقاء إلى عشاء «للتعرف»، لماذا نجهد أنفسنا؟ فسواء أكان اللقاء مثمراً أو غير مثمر، فإنه يمكن أن يكون مفيداً... كما أن الخروج لهذا اللقاء مع الأصدقاء قد يتيح لنا الفرصة للتعرف على شخص آخر!

نتعرض نحن الذين نشأنا على مذهب الإرادوية الغربية وتربينا في حضان إيديولوجية «عندما نريد نستطيع»، إلى خطر إفلات العديد من الفرص منا، وخصوصاً عندما تظهر بشكل عفوي ولم تكن مقصودة. تشهد على ذلك حالة العديد من العلاقات الشائبة التي تلاقت بفضل موقع على الإنترنت أو أحد وسائل التواصل الاجتماعي: لم يكونوا يبحثون عن قصة جدية، ولم يكونوا يرغبون «بالالتقاء مع أحدهم»، وإنما كانوا فقط يقضون بعض الوقت مع شخص يشاركهم تسلية آنية، ويتحدثون معه ويصرفهم ولو للحظة عن الجري وراء التصفح الممل... تكون الحياة، في هذه الحالة، قد قررت مساراً آخر؛ إذ يتلاقى شخصان ويستمر هذا اللقاء معاً لسنوات عديدة بعدها. إذ يكونان

قد عثرا على شيء آخر غير ما كانا يبحثان عنه في البدء، وهما سعداء بذلك. وللمفارقة، فلأنهما لم يكونا يبحثان عن هذا اللقاء، فإنه حدث تلقائياً، من دون توتر، أو توقع محموم يفسد عفوية اللقاء.

هذه اللقيا - المتمثلة في اكتشاف أو اختراع تم بالصدفة أو بسبب خطأ بحثي - لم تكن ممكنة من دون القيام بفعل من نوع ما، فالمحبان لم يخرجوا من بيتيهما بحثاً عن لقاء غرامي، وإنما هما خرجا وتقابلا ووجدوا الحب.

تحمل عالمة الاجتماع إيفا إيلوز، في عملها بعنوان نهاية الحب، نظرة صارمة على مواقع التواصل الاجتماعي وتطبيقاتها الخاصة بالتعارف واللقاءات؛ إذ ترى فيها عملية «تسليع للحب» قد تؤدي إلى القضاء عليه: أي اختيار القرين من على إحدى المواقع - تماماً كما نختار سلعة استهلاكية - يسلب الآخر من ذلك اللغز الذي يشكل لب العلاقة الغرامية. وإذا لم تكن مقاربة من هذا النوع هي أفضل سبيل للوصول إلى الآخر، واكتشاف تفرّده، وتعقيد كيانه، فإن استخدام هذه المواقع له على الأقل ميزة دفعنا للخروج من قوقعتنا. وقد تتكفل الحياة وفرصها بما تبقى... قد نحكم بأن الاستخدام ذا النزعة الاستهلاكية قد يتخذ أحياناً طابعاً قهرياً، وأن هذه المواقع قد تشكل أحياناً بداية سيئة، إلا أن ذلك يبقى أفضل من أن لا نتحرك ولا ننطلق. ثم إن الحياة تعرف تماماً كيف تفاجئنا على حين غرة، إذ إنها نادراً

ما تتخذ مساراً مستقيماً. فنحن قادرون على تغيير المسار، وتحقيق قفزات جديدة، أو حتى العودة إلى الوراء؛ فما كان يتعين أن لا يكون سوى تفاعل عابر قد يتكشف عن لقاء فعلي جميل. وعندها لا يعود لفكرة «البداية السيئة» أي معنى: فالمهم هو أن نتحرك، وننطلق في مسارنا.

ففي الواقع، تشكل اليوم مواقع التعارف، والتطبيقات جزءاً لا يتجزأ من يوميات العديد من العُزَّاب، إذ نحن بصدد تيار أساسي في مجتمعاتنا يحوّل علاقتنا بالآخر، ويغيّر طبيعة الغواية واللقاء الغرامي. وقد لا يكون مستغرباً أن نوكل أمر تطلعاتنا إلى لقاء جميل إلى البرمجيات التقنية لهذه الوسائل، كما نوكله إلى صدفة اللقاء. وإذا كانت هذه المواقع والتطبيقات تعطي الانطباع بنوع من «أسواق العُزَّاب المتاحين الكبرى»، بعيداً عن الرؤية الرومانسية المأمولة للاختيار الغرامي، إلا أنه لا يجب أن يغيب عن الأذهان أنها لا تعدو كونها منصّات، وأدوات موضوعة بتصرفنا. إنها ما هي عليه، بحسناتها وعيوبها، فالمهم هو كيف نستغلها. فالاشتراك بمنصة لقاء افتراضي على تنوع تقنياتها، مع البقاء في المنزل، يشكل بحد ذاته خطوة نحو الآخر، والبدء بتحرك وتغيير والقول: أنا هنا وأنا مستعد للانطلاق.

من ثم، يتوقف ما ينتج عن هذا الإجراء علينا وعلى الطريقة التي نستهلك بها التطبيق، أو على العكس على كيفية انغماسنا في استثماره. إذ من السهل جداً أن ننشر صورتين أو ثلاثاً عنا، أكانت لصالحنا أم كانت محايدة، ثم نضغط على المفتاح

ونرسلها بشكل تلقائي، ومن دون انتباه أو تركيز. أي نوع من اللقاء يمكننا أن نتوقع من هذه الاستراتيجية الفارغة؟ وعلى العكس، فإن العناية التي نوليها للشغل على تقديم أنفسنا - من قبيل اختيار صور عفوية تكشف بعضاً من سماتنا وخصائصنا وشخصيتنا، أو على العكس من ذلك، تلعب على غوامض شخصيتنا والأسرار التي يتعين اختراقها، واختيار أسلوب في تقديم ذواتنا بحيث تكشف ما يكفي كي نعطي الآخر الفرصة كي تثار رغبته في اكتشاف المزيد - ذلك ما يشكل الإشارة الأولى لاستثمارنا الجاد لهذه المواقع في سعينا إلى اللقاء المرتجى. وكما نأمل أن هذا الشخص المميز الذي نتوجه إليه، يعطي ما يكفي من الوقت لاكتشاف ملامح شخصيتنا، يتعين علينا بدورنا أن نهتم بالآخرين، وأن لا نمر عليهم مرور الكرام، ونستهلكهم كمجرد معلومات عن بضائع، بل أن نتصفح تفاصيل شخصياتهم باهتمام، وكأننا نتواعد معهم، بمعنى أن نمح «إعجابنا» فقط للأشخاص الذين يتميزون عن سواهم، ويشيرون شيئاً إيجابياً في نفوسنا، وعندها يمكن أن توضع أسس لقاء جديد تتجلى في الرسائل المتبادلة، والتي يتم اختيار كلماتها بعناية. يتحرك عندها شيء أساسي نشعر به جيداً، من قبيل الحوارات الأولى، والاستجابات الفورية على الرسائل المتبادلة، والإحالات التي تُلتَقَط على الطائر، والتعليقات التي نقرأها في حالة من الانسراح...

وإذا كان هناك الكثير من المعوقات أمام اللقاءات الجميلة

على هذه المواقع والتطبيقات، إلا أن هذه اللقاءات تبقى ممكنة إذا استعملناها بحكمة ووفرنا لها الظروف والعناية اللازمة عن طيب خاطر. إذ إنه من الممكن في العالم الافتراضي أيضاً أن نبدي المزيد من العناية والاهتمام والمشاعر الإنسانية والصدق والانفتاح.

الانغلاق في القوقعة الذاتية والخروج منها

أن تتصرف، يعني أن تغامر في العالم، من دون أن تعرف بالضبط ماذا ستشبه هذه المغامرة، ومن دون أن تعرف مقدماً آثار اللقاء ما بين تصرفك والعالم.

إلا أن هذه المغامرة تحمل إمكانية توليد شرارات تنبئ بأن لدينا حياة داخلية غنية، عرفنا أن ننميها في حديقة ذواتنا الداخلية، وبيوتنا، وغرفنا. يحضّرنا الانخراط في ممارسة من نوع ما، من قبيل الولع بالرياضة قتالية، أو الرقص، أو تيار موسيقي أو أحد الكُتّاب، والاهتمام والفضول، يحضّرنا إذاً بشكل مزدوج لإمكانية اللقاء: وذلك من خلال الولوج إلى مسرح هذا اللقاء المحتمل - من قبيل قاعة الرياضة، أو مقهى، أو دار الموسيقى، أو معرض كتاب... - وفي الأساس وفي الوقت نفسه، إعطاء أنفسنا فرصة تنمية ذاتنا، وإغناء وجودنا. الانخراط في إغناء عالمنا الداخلي ومن ثم المغامرة بالانتفاح على الخارج، الانغلاق في قوقعتنا الذاتية، ومن ثم الخروج منها:

يسر هذا الاتجاه ذو الحركة المزدوجة اللقاءات أكثر من مجرد بذل الجهد المثابر للدخول في علاقة مع الآخر.

لقد بيّنا، مع هيغل، ضرورة اللقاء مع الآخرين كي نعي ذواتنا، وبالتالي نتغير من خلال الاحتكاك بهم. لقد أتاح لنا جدليته الشهيرة أن نفهم أن الفكرة بحاجة إلى نقيضها كي تتجلى كلياً من خلال اختلافها، وأن الفرد يتعين عليه ممارسة تجربة الغيرية كي يتمكن من إدراك فرادته الذاتية. إلا أننا لم نقدر تماماً إلى أي حد تتضمن فكرة الجدلية هذه فلسفة الفعل، والتي عرّفها هيغل تحديداً بمثابة الوسيلة لإبراز جوانبنا إلى العلن.

عندما نتصرف، فإننا ننخرط في العالم الخارجي، من دون أن نتجاهل جوانبنا الذاتية، بل على العكس فإننا نعطيها وجوداً موضوعياً. فالانفتاح على الخارج يتيح لنا تجسيد ما يعتمل في نفوسنا، والحصول على الاعتراف بما هو ذات أهمية بالنسبة إلينا: من قبيل الانفعالات التي تعترينا، والأذواق التي تحركنا، والقيم التي توجهنا... فكيف يمكن الحصول على هذا الاعتراف من دون اللقاء مع الآخر؟ يستحيل ذلك. إذ يتعين على «الروح المطلقة» عند هيغل أن تخرج «من ذاتها» وتنخرط في الفعل كي تعرف أنها روح الله. فالإله، بالنسبة إلى هيغل، يكون «في ذاته» في الإحساس الذاتي بقيمته، إلا أن ذلك لا يكفي. إذ بالنسبة لإله هيغل، كما هو الحال بالنسبة إلينا، الغيرية وحدها هي ما يتيح لنا أن نعرف قيمتنا، وما نحن عليه حقاً.

آجلاً أم عاجلاً، يتعين إذاً أن نخرج من قوقعتنا الذاتية. ولكن هذه الصيغة في «الخروج من القوقعة الذاتية» يمكن أن تفهم، في البدء، بمثابة صيغة مجازية. فالخروج من القوقعة الذاتية، يتمثل في المقام الأول في «الخروج من الذات»، أي إجراء القطيعة مع الروتين اليومي، وترك منطقة الراحة، والتحرك بغية تحريك الأشياء. لقد مررنا مؤخراً بفترات من الحجر المنزلي بسبب كورونا، أرغمتنا على إعادة النظر في علاقاتنا مع الآخرين. لقد تعين علينا أن نكون مبتكرين كي لا نقطع هذه العلاقات، وكانت التقنيات التواصلية الرقمية الجديدة أدوات جد مفيدة في هذا السياق الخاص. وكما سبق أن رأينا مع تطبيقات التعارف الرقمي، من الممكن «أن نخرج من ذاتنا» مع البقاء في منازلنا. فمن الضروري أحياناً أن نتصرف على مراحل. بدءاً من اتخاذ قرار التصرف، والقيام بالعمل اللازم على الذات كي نضع أنفسنا في وضعيات ملائمة للقاء؛ إرغام أنفسنا على تغيير عاداتنا، والانفتاح على فكرة أن «كل شيء ممكن»، هذا بحد ذاته خروج من القوقعة. عندها، وحين تأتي اللحظة المناسبة، يصبح اللقاء ممكناً، حقاً.

حين يُسأل عدد من الفنانين والفنانات، والمخرجين والمخرجات، والمغنين والمغنيات، وكذلك المقاولين والمقاولات، عن مسارهم المهني ونجاحاتهم، فإنهم يشيرون إلى لقاءات حاسمة في حياتهم. وهم يقومون بذلك وكأن هذه

اللقاءات الحاسمة، وأياً كان نوعها، قد «سقطت عليهم من السماء» على غرار ثمرة ناضجة سقطت عن شجرة الصدفة. وقد يحدث لهم، في نوع من التواضع - المتفاوت في صدقه - أن يدَّعون أنهم مدينون بكل شيء لهذا اللقاء. إلا أنهم ينسون أن يذكروا أنهم قد تسببوا بهذا اللقاء، وأنه أصبح ممكناً بفضل لقاء سابق مع ممارستهم، وولعهم، وفنهم... فقد يكون حالف الحظ هذا الممثل في الالتقاء صدفة بمخرج عرض عليه دوراً مفصلاً على قياسه، إلا أنه قد سبق له أن كان مراهقاً يحلم بالسينما وحيداً في غرفته، أو مشاهداً نهماً للأفلام، وقد يكون من بعدها طالباً يدرس المسرح. إلى أن يأتي اليوم الذي يخرج فيه من قوقعته الذاتية بحثاً عن دور في التمثيل... وحين يقوم بهذا اللقاء الحاسم، بعد مضي سنين عديدة في أدوار ثانوية، فإنه يكون في الواقع قد حضر له من خلال سنوات الاكتشاف والعمل والاستكشاف هذه اللتي غَدَّت ولعه بالسينما.

تغني فرانس غال في أغنية تعال، سأخذك معي قائلة: «لقد أغمضت عيني طويلاً، وحلمت طويلاً، إلى أن وصلت». إغماض العينين، وتخيل عبور بستاننا السري الشاسع... «والوصول» أخيراً، أي اللقاء مع آخر يهمننا وأخذه إلى عالمنا. هكذا يتم الإعداد لحدث اللقاء. وإذا كان اللقاء يتطلب المرور إلى الفعل، والانخراط في الواقع، فإنه يبدأ في التشكل في أحلام اليقظة، والتخيل، والفضول، وفي كل هذه «الأفلام» التي

نصنعها في خيالنا . . . إننا غالباً ما نقيم تعارضاً ما بين خطط العمل وخطط أحلام اليقظة . إذ يغلب أن نتصور أحلام يقظتنا بمثابة لحظات هروب، ومتنفس، وحالات تبعدنا عن متاعب الواقع وقيوده . إلا أن كل أحلام اليقظة هذه أو هذه الإسقاطات المتخيلة تغذينا، وتحرك عالمنا، وتثير فينا الفضول والتوق إلى الحياة؛ ويتعين أن نستمع إليها كي نتعلم أن نعرف أنفسنا، ونكتشف طموحاتنا، وآمالنا، وتوقعاتنا تجاه الآخرين . فتلك اللحظات التي «نغمض فيها عيوننا» تحمل لنا غنى داخلياً سوف نقدمه من ثم إلى الآخرين . إذ غالباً ما يتم الإعداد للقاء خلال الوحدة .

كما أن الخروج من القوقعة الذاتية، هو في الآن عينه التعرض لإمكانية الخيبات والفشل . فنحن لا نعرف قبل التصرف ما الذي سوف ينتجه عملنا في العالم . إلا أنه يجب علينا أن نتحرك وننطلق رغم كل شيء؛ ذلك هو جمال المخاطرة ومتعتها، والتي تشكل ملح الوجود؛ إنها جوهر فلسفة الفعل ذاتها . فتجربة فشل من هذا القبيل «تهيئ» كذلك للقاء الحقيقي : إذ عندما يتم هذا اللقاء أخيراً، فسيحمل كل غنى الدرب الذي قطعناه .

لا يشجعنا عصرنا على الفعل بما يكفي . فكيف لنا أن نجرؤ على الانطلاق إلى غير المتوقع، وخوض غمار المجهول

من موقع الثقة، عندما يفرض المبدأ المعمول به القيام بالاحتياطات اللازمة، واستباق النتائج، والتصرف تبعاً للأخطار المحسوبة. لقد تغلبت الرؤية المخططة والمُدبرة للوجود على مفاهيم المغامرة في الحياة. فلنأخذ نظام التموضع العالمي GPS على سبيل المثال، والذي لا يقتصر على مجرد رسم خارطة الطريق أمامنا وتوجيهنا؛ بل هو يتوقع كذلك ساعة وصولنا إلى العنوان المقصود، ويقوم بتعديلها باستمرار. فمسارنا لم يعد مجرد طريق نمشي عليه ونتأمل ما حولنا، وإنما يتحول إلى خطة مرسومة بدقة حتى نقطة الوصول. هناك تطبيق مبرمج يقول لنا ماذا نفعل عند كل مفترق، حتى ولو كان مشوارنا بعيداً جداً. وهكذا، فبدلاً من أن نسافر، أصبحنا نتنقل على المسار المخطط. ولا يعود هناك من مكان للتنزه العفوي، وتأمل المناظر المحيطة بنا؛ بل نترك الـ GPS يقود خطواتنا وتصرفنا، ونتقيد بتعليماته. إنه يعيق ردود أفعالنا العفوية، والإنصات لحدسنا، وتلقائيتنا، وكلها مميزات للفعل الحقيقي. ليس الـ GPS وحده، وإنما هناك كذلك كل البرامج الإلكترونية الرقمية، وخوارزميات مواقع التعارف أو مواقع التواصل الاجتماعي... هذه الأدوات التي نستخدمها ليست محايدة. وإنما هي تنقل رؤية للعالم حيث كل شيء يجب أن يكون متوقعاً سلفاً، ومعقلاً، ومتصفاً بأعلى درجات الفاعلية. بينما أن الحياة الحقة، والجوهرية، تقوم تحديداً على ما يفلت من التوقع المسبق.

فأن ننطلق فعلاً، يعني أن ننطلق دون أن نكون مجهزين

عملياً. إذ حين نريد التوقع المسبق لكل شيء، سوف ننسى حقيقة الفعل ذاته: حيث إنه لا يقتصر على عواقب التفكير المسبق، وإنما هو أيضاً وقبل كل شيء لحظة، وانفتاح، وقفزة في المجهول ذات قيمة بحد ذاتها. ففي الفعل، هناك شيء يُبتدع، ويُخترع، مما لم يكن مفكراً فيه، ولا مخططاً له. أي أن هناك دوماً قسطاً من التلقائية والعفوية.

أَذْهَبَ وَسَوْفَ أَرَى

أتذكر جملة كنت أقولها لأولادي عندما كانوا صغاراً، وكانوا يخافون من الذهاب إلى حفل عيد ميلاد أحدهم ولم يكونوا يعرفوا أحداً من الحضور، أو يجرؤوا على الحديث مع أحد الأشخاص الراشدين. كانت نوعاً من الشعار، جد بسيط وذا تأثير فاعل، كنت أحاول أن ألخص بواسطته نوعاً من العلاقة مع الوجود، ومع الآخرين ومع الفعل: «أَذْهَبَ وَسَوْفَ أَرَى». أنت قلق لأنك لا تعرف ما ينتظرك، وأنت تفكر بعدم الذهاب لأن عدم التأكد مما سوف تصادف يقلقك؟ اذهب وسوف ترى ما سيحدث، انطلق ولا تفوت الفرصة. ولكن لا تتخيل، مع ذلك، من خلال اقتناعك الذاتي، أن كل شيء سوف يمر على ما يرام؛ إذ قد تكون التجربة مخيبة للآمال. إلا أن ذلك لا يهم. فأسوأ الأشياء تشكل دوماً جزءاً مما يمكن أن يجري. ولكن اذهب إلى هناك وسوف ترى.

«أَذْهَبَ»: تحرك، انخرط، اخرج من قوقعتك.

«أرى»: تعلم من خلال هذه الرؤية الخروج من هذا الموقف المقصود كي تتحوّل إلى ملاحظ واستقبل ما سوف يحدث، أو لا يحدث.

لقد لاحظت أن فكرة «أن ترى» هذه كانت تحرر أولادي، من خلال الاحتمال الذي تتضمنه -«سنرى ما سيحدث»... - وتحمل لهم بعض الارتياح والانخراط الإرادي الضروري لإطلاق التحرك. فالاعتراف بإمكانية الفشل كان يحررهم أيضاً، بينما أن موقف التنكر للخطر قد يحمل نوعاً من الكذبة الضمنية حين نقول «لا تخف، فكل شيء سوف يكون على ما يرام». كان هذا الشعار «أذهب وسوف أرى» يشكل دعوة لجمع الشرطين الضروريين لوقوع حدث ما، أو للقاء: الخروج من القوقعة الذاتية، شرط أن نكون أيضاً مستعدين لاستقبال ما سيحدث، الجيد منه كما السيئ. أن ننطلق، في حالة من عدم التوتر، نحو الهدف المطلوب بروحية منفتحة، وغير متمحورة كلياً حوله، وإنما متنبهة لكل ما عداه. فإذا خرجتُ بروحية مركزة كلياً على غاية محددة، قد يمكنني بلوغها، إلا أنني أخاطر، في الآن عينه، بأن لا أصيبها وأتجاهل معها كل الفرص التي قد يقدمها لي الواقع. وبالمقابل، فإذا أنا فتحت كل أبواب فكري ونوافذه وكنت متنبهاً إلى الوضع الراهن وإلى غايتي الأولى في آنٍ معاً، فإن حقل الممكن سوف يفتح على مصراعيه.

يتعين إذاً أن نضيف إلى الشرط الأول للقاء المتمثل بالفعل،

شرطاً ثانياً: أي التوفر المنفتح. فحين كتبت في بداية هذا الفصل أنه يتعين أن نخرج من قوقعتنا بطريقة غير روتينية، ومن دون الغرق في العادات، ومن خلال موقف يتمثل بالانتباه وتفتح الذهن، نكون عندها بصدد مديح التوفر للعالم المحيط بنا. يتعين الآن أن نذهب خطوة إضافية أبعد من ذلك، كي نفهم نوعية الحضور الذي يتطلبه هذا التوفر.

الفعل يوجهنا نحو المستقبل، ويلقي بنا في مستقبل الأيام. بينما أن هذا التوفر يشكل فن الحاضر.

2

لا تتوقع شيئاً محدداً

في مديح التوفر والانفتاح

لا يجب أن نخرج من قوقعتنا كي نلاقي الآخرين، وإنما
كي نجعل أنفسنا متوفرين للقاء.

يمكن أن تُعرّضنا التوقعات المحددة جداً إلى أن يفوتنا لقاء
شخص لا يتطابق مع معاييرنا، في حين أنه كان بالإمكان أن
نعيش معه قصة جميلة.

لدينا دوماً توقعات؛ إذ لا يمكننا العيش من دون أي رغبة.
هذه التوقعات هي التي تطلق الحركة. إذ هي تعمل بمثابة محرك،
إلا أنها يمكن أن تتحول إلى معوق يمنعنا من رؤية مُجَمِّل الفرص
والاحتمالات التي تُشكل لب الواقع. وعلى الإجمال، كلما كانت
التوقعات أقل تحديداً، فإنها تفتح حقل رؤيتنا، وعلاقتنا بالعالم
والآخرين. ويتعيّن أحياناً التخلي عن هذه التوقعات المحددة، كي
نتمكن من الانفتاح على أشياء أخرى، أي «تغيير كل شيء» كما
يقول لاعبو كرة القدم للدلالة على قلبهم لاستراتيجية اللعبة،
والهجوم من الناحية الأخرى من أرض الملعب.

يَدَّعي أحد أصدقائي، وهو مطلق منذ عدة سنوات وأب لثلاثة أولاد مراهقين، وراغب في عيش قصة حب جديدة، يَدَّعي أنه يعرف تماماً ما يريد: أي امرأة عندها ولد أو اثنين (ومن المفضل أن يكون ولداً واحداً، حيث إن لديه ثلاثة من جانبه) من نفس عمر أبنائه كي يتمكنوا من التفاهم معاً بسهولة، كما لا يرغب في إنجاب أطفال آخرين منها. كان يشعر أن فترة رعاية أطفال رضع، بما تتطلبه من ليالٍ بلا نوم أحياناً، أصبحت الآن وراءه ولم يعد يرغب في ذلك. بدأ بالشكوى من أنه لم يلتقِ بامرأة أحلامه، ولكنه خلال عشاء عند بعض أصدقائه، «وقع» على امرأة لا تتطابق مع معاييره في شيء. إذ لم يكن لديها أطفال، بل كانت ترغب في إنجاب العديد منهم، وحيث إنها قاربت الأربعين من العمر فإن الوقت أصبح ملحاً. كان ذلك من حيث المبدأ ما كان يخيفه ويود تجنبه تحديداً: أربعة أو خمسة أطفال، مع فارق كبير في السن بينهم، وما يتطلبه ذلك من عناء وضغوطات. تمثلت «المشكلة» في أنها أعجبت به بشكل كبير جداً وأنها كانت تبادله الإعجاب ذاته. إنهما اليوم سعيدان جداً، وورزقا بطفلين، كما عاد إلى مسألة الليالي من دون نوم. أما بالنسبة لأبنائه المراهقين، فلقد كان بالإمكان أن لا يتفاهموا جيداً مع ابن «المرأة المثالية» التي كان يتمناها، وعلى العكس فلقد كانوا يتسابقون للعناية بالطفلين لدرجة الخصام فيما بينهم أحياناً. هذا الصديق الذي لطالما سَخِرْتُ من تصلبه، وميله إلى معرفة ما يريده على وجه التحديد، والذي لا يتراجع أبداً قبل

بلوغ هدفه، كان قادراً إذاً على «تغيير كل شيء» واتخاذ مسافة من متطلباته الأولى كي يتمكن من استقبال ما تَوَفَّرَ له - أي الانفتاح على ما قدمته له الحياة، مما لم يكن يتوقعه. إذ تمثل شرط سعادته في عدم تمسكه بفكرته الأولية. فالتوفر الذهني والنفسي لا يعدو كونه شيئاً آخر سوى هذه القدرة على رؤية ما يُعْرَضُ علينا مما لا يتوافق مع توقعنا؛ إنه تلك الملكة التي تستقبل غير المتوقع، والمفاجئ.

استقبال المفاجأة

قد نخطئ بصدد ما يمكن أن يجعلنا سعداء. فلقد التقى صديقي مع امرأة لا تتوافق مع المواصفات التي وضعها، إلا أنه وجد السعادة معها. لقد نسي أن لقاءً من نوع ما يملك تحديداً القدرة على إعادة النظر في توقعاتنا، ورغباتنا، وحتى أفكارنا عن الحياة والأشياء. تلك هي دعوة جميلة إلى التوفر: إذ أن نعرف أنه بالإمكان أن نخطئ في توقعاتنا يمكن أن يقنعنا بالانفتاح على ما لم نكن نتوقعه.

إذ أن لا نتحلى بالمرونة، ولا ننظر إلا فيما يتمشى مع رغباتنا المحددة، قد يمثل خطأ مزدوجاً. خطأ استراتيجي أولاً: إذ من المحتمل جداً أن تفوتنا بعض الفرص الهامة. وخطأ نفسي بالتالي: إذ قد نخدع بصدد رغباتنا، ونقفل بالتالي الباب أمام لقاء هذا الآخر الذي يتيح لنا أن نعي ذلك.

إذ غالباً ما نكتشف في الفعل، ومن خلال الاحتكاك مع

الآخرين، رغبة جديدة. تتعارض هذه الفكرة مع المفهوم الذي طوره لاكان تحديداً، والذي يذهب إلى أن الرغبة موجودة دائماً وبشكل مسبق حيث هي، أي في أعماق نفوسنا، غارسة جذورها في لاوعينا، وفي تاريخنا العائلي. فتبعاً لهذه النظرية، هي موجودة دائماً قبل اللقاء: فنحن نتقرب من الآخرين كي نشبع طموحاً يسبق الفعل ويحدده. بينما يشرح سارتر، على العكس من ذلك، في عمله بعنوان الوجود والعدم أن طموحاً من هذا القبيل قد لا يوجد بالضرورة بشكل مسبق على اللقاء؛ إذ إنه قد ينشأ عن هذا اللقاء ذاته. ويبدو أن تجربة الحياة تعطيه الحق فيما يذهب إليه: تكفي ملاحظة الرجال والنساء الذين لا يرغبون بإنجاب الأطفال قبل أن يلتقوا مع الشخص المناسب، هؤلاء الأفراد المقتنعين بالاستمرار في البقاء أحراراً في ارتباطاتهم، والذين يكتشفون حين يقعون في الحب مدى متعة الارتباط الملزم.

يكتب ديكارت قائلاً، في صيغة ذات نبرة حاسمة: «على المرء أن يغيّر رغباته بدلاً من السعي إلى تغيير نظام العالم». لا يعني ذلك بالنسبة لكاتب مقال في المنهج اكتشاف رغبات جديدة، وإنما بالأحرى التخلي عن رغبات غير قابلة للتحقيق، وبدعوتنا إلى التحلي بالتواضع، والقبول بما لا يمكننا تغييره. يرد المتعجرف تحديداً بالقول «تغيير نظام العالم كي يتماشى مع رغباتنا» وهو الذي لا يمكنه قبول حدود للذات، وينخدع بفائق قوته الذاتية.

يعني الدفاع عن فلسفة التوفر أن نتقدم على طول خط الحافة وأن نبقي أبعد ما أمكن عن القبول الرضوخي كما عن هذيان الجبروت الكلي. فمن يعتبر أن نظام الأشياء جامد لا يتحرك، لا يعود يخرج من القوقعة التي سجن ذاته فيها. كما أن من يفعل، مقتنعاً بقدرته على فرض رغباته على العالم، يخدع ذاته كذلك؛ إذ إنه يتجاهل مقاومة الواقع وصلابته وينسى أنه قد يخطئ بصدده رغباته الذاتية.

لنخرج إذاً من قوقعتنا الذاتية، ونفعل في العالم، ليس انطلاقاً من الأمل في ليّ الواقع لإرادتنا وإنما بغية خوض التجارب. «أذهب وسوف أرى»: أي أكتشف الممكن، وبالتالي أدرك ما أرغب فيه فعلاً.

ولكن، إذا كنا ننكر أحياناً رغباتنا الحقيقية، فلماذا نخبر الآخر إذاً معايير محددة عندما نتسجل على أحد مواقع التعارف واللقاءات؟ فهل نكون عندها على خطأ؟ نعم، إذا ما ركزنا على هذه المعايير ولم نتمكن من إعطاء فرصته لشخص مختلف. ولكن لا نكون مخطئين إذا حددنا معايير معينة، وكنا قادرين من ثم على الانفتاح على شيء آخر. ما يمكن أن يظهر بمثابة «بداية سيئة» هو في المقام الأول عبارة عن نقطة انطلاق: لنفتح المجال إذاً، سواء مع المعايير أم من دونها - وسوف تتكفل الحياة بما تبقى. ولنفضل الخيارات المرنة، فإنها تتكفل بترك مجال للمفاجأة. وهكذا فقد تُجنَّبنا فاعلية الخوارزميات الخارقة عثرات

الحظ التي عاشها البعض: أي الوقوع على طليق أو حبيب سابق، ذكراً كان أم أنثى!

رُؤِجَت دعاية رقمية على أحد مواقع التعارف منذ عدة سنوات خلت تقول: «احصل على الحب من دون الصدفة!». إنه برنامج يثير الدهشة، ولكنه كاذب بالتأكيد. إذ لكي نلاقي الحب، من الأفضل الرهان على الصدفة، والتعامل معها، وإثارتها، واتخاذها حليفاً لنا بدلاً من استبعادها. تؤكد لنا كل قصص الحب الكبرى، التي ترويه الأعمال الأدبية، ما تؤكدته تجربتنا: فاللقاء مع أحدهم، والوقوع في الغرام، هو رهن بالمفاجآت. والرغبة بإلغاء الصدفة من خلال تبني منطق التنبؤ، والبحث المنهجي بناءً لمعايير محددة، ليس بالتأكيد أفضل سبيل نحو اللقاء.

إذاً، فبدلاً من إلغاء الصدفة، فلنترك لها المجال، ونلعب معها. إذ من الممكن إبطال خوارزميات اللقاء التي تروج لها تطبيقات التعارف واللقاءات المتحايلة، من خلال البقاء منفتحين في معاييرنا وعدم إقفال الأبواب. في هذه الحالة، يمكن للصدفة أن تتدخل متجاوزة هذه التنبؤات المبرمجة. فحين نكون منفتحين، وفضوليين، سوف نكتشف على هذه التطبيقات، كل أنماط الأشخاص. عندها سوف نكتشف من خلال التصفح الكثيف والذي لا حدود له تقريباً أشخاصاً متنوعين، ونترك انتباهنا يُسْتَقْطَب ببعض النظرات والملامح، من قبيل ابتسامة من نوع ما، أو تصفيفة شعر طريفة، أو إطلالة مميزة تعكس شخصية مميزة، أو أسلوب خارج عن المألوف، وسواها من التفاصيل

الصغيرة التي تستقطب انتباهنا، وتأسرنا، وتُحَضِّرُنَا للتركيز على هذا الآخر، وتفتح عيوننا على ملامح فتنته. يمكن لهذه التطبيقات أن تكون على وجه الإجمال تدريباً جيداً على الانفتاح على الآخر، وعلى ترك الصدفة تقودنا وتُفاجئنا. فهي توظف فينا متعة التجول على غير هدى، والتطلع والانتباه إلى الناس الذين نصادفهم، وإلى الأشياء الصغيرة التي تكشف لنا بعضاً من خصائصهم، مما يجذبنا ويمتعننا. ومن الممكن هكذا، أن نتوصل، من خلال النظر إلى الآخرين والتنبه لهم، إلى مصادفة أحدهم ممن يعنون لنا، وعندها يحدث شيء ما... أو لا يحدث. يكفي هذا وحده لإسباغ البهجة على يومنا وإلى تَفْتُح استعداداتنا.

لم يعرف أندريه بریتون [أحد أقطاب السوربالية] العصر الرقمي والافتراضي، ومع ذلك فإن هذا القول المقتطف من كتابه بعنوان الحب المجنون يمكن أن ينطبق على تطبيقات التعارف الرقمية إذ يقول: «اليوم كذلك، أنا لا أنتظر شيئاً إلا من توفري وانفتاحي، ومن هذا التعطش إلى التجول على غير هدى للقاء مع كل شيء، والذي أضمن من خلاله أن يبقيني على تواصل غامض مع بقية الكائنات المتوفرة، وكأننا تداعينا للاجتماع المفاجئ. أحب أن لا تترك حياتي بعد رحيلها أي وشوشة سوى وشوشة أغنية متربص، أغنية تلازم الترقب. إذ بمعزل عما سوف يحدث، أو لا يحدث. فالترقب وحده هو ما يتصف بالروعة».

هذا الترقب وأحلامه الممتعة، ولعبته مع الصدفة التي

يولدها، والتجولات الفيزيكية أو الافتراضية التي تصاحبه... ذلك الترقب المتطلع نحو اللقاء الفيزيقي الواقعي، الذي يمكن للتطبيقات الرقمية أن تسهل حدوثه. إذ من خلال ترك الصدفة وفضولنا يقوداننا إليه، يمكن أن ننفتح على مدى عريض من الاحتمالات. يمتلك الافتراضي على الأقل تلك الميزة التي تتيح انتزاعنا من دائرتنا الاجتماعية والمهنية، وتفتح أمامنا بعض النوافذ نحو أشخاص ومجالات لم يكن لدينا إمكانية الولوج إليها فيما سبق. يجب أن نعترف للافتراضي بهذا الفضل: إذ بإمكانه أن يخرجنا من قوالبنا، ومن تصوراتنا الثقافية-الاجتماعية، ويجعلنا ننفتح على آخرين لم يسبق لنا أن صادفناهم، أو تصورنا اللقاء معهم. مجرد ابتسامة ومنح إعجاب [Like]، وإذا بي، أنا الحضري والمعزول في بيتي، أتجاوز مع مبحرة تقضي شطراً كبيراً من السنة في البحر، امرأة لم أكن لألتفت إليها مطلقاً. ومع ذلك، ففي هذه الحالة، وحيث لا أعرف شيئاً عنها، ومجرداً من أي أفكار مسبقة، إذا بي أنطلق، وبذلك نكتشف ألفة وشراكة في الاهتمامات، وتواطؤاً لم يكن بالإمكان أن نتخيله مطلقاً. فذلك ليس أكثر خروجاً عن المألوف من الوقوع في الحب من أول نظرة في الشارع، كما أنه ليس أقل جمالاً. إذ غالباً ما تحمل لنا سيطرة الصدفة على مصائرنا الوعد بأجمل اللقاءات.

كما أن المفاجأة هي كذلك في قلب لقاءات الصداقة الكبرى: ففي افتتاحية ديوانه بعنوان العيون الخصبة المهدى إلى بيكاسو، يكتب إيلوار عن صديقه قائلاً: «إنه استولى على قلبي

عن طريق المفاجأة». إذ يمكن تعريف الشاعر عموماً بمثابة ذلك الكائن المتوفر تماماً لغير المتوقع أو المنتظر، منفتحاً على كل ما يأتي ومتقبلاً له - أكان ذلك عبارة عن كلمات، أو أفكار، أو صور، أو انفعالات...

فلننمّي إذاً توفرنا للعالم ونتذوق هذه العلاقة الشاعرية مع الوجود. ولنكن أكثر شاعرية، وأكثر ميلاً للمغامرة، ولنخرج من قوقعتنا الذاتية، سعداء بعدم معرفتنا ماذا ينتظرنا. فالروحانية الشاعرية والمغامرة هي الأكثر توفرًا وانفتاحاً على العالم.

أوريليان يلتقي مع بيرينيس

«في المرة الأولى التي رأى فيها أوريليان بيرينيس، وجدها بشعة حقاً. إنها باختصار لم تعجبه. فهو لم يحب كيف تلبس، أي مجرد ثوب لم يكن ليختاره. حيث كانت له آراؤه حول الثياب». هكذا تفتح أوريليان، رواية حب أراغون العظيمة. لا تترك افتتاحية الكتاب أي مجال للشك، إذ لا تتوافق بيرينيس مع معايير أوريليان، فهو «وجدها بشعة حقاً». وذلك من دون أن ندخل في الحسابان ذوقها السيئ في اختيار ملابسها. إذ كتب أراغون قائلاً بأسلوب ساخر أن أوريليان «لديه آراؤه حول الثياب»... ومع ذلك حدث اللقاء بينهما. فلماذا كان ذلك؟ لأن أوريليان سوف يعرف كيف ينتفح على المفاجئ وغير المتوقع. كان اللقاء بين بيرينيس وأوريليان ممكناً لأن الواقع يفرض نفسه بقوة أكبر من التصورات التي كانت لديهما؛ كان

للقائهما مستوى من القوة بحيث كنس كل «الآراء» التي يملكها أوريليان حول «الثياب»، وكذلك حول النساء، والحب، والمجتمع... وبيرينيس من جانبها لم تكن تنتظر ذاك الذي التفته، إذ كانت تتخيل رجلاً من نمط مختلف كلياً حين تذهب أحلامها نحو ذاك الذي سوف تقع في غرامه. ومع ذلك... فاللقاء هو أيضاً التالي: الواقع الذي يكنس تمثلاتنا، وأحكامنا المسبقة حول العالم والناس.

ولكي نجعل أنفسنا منفتحين ومتوفرين، يتعين كذلك أن نلطف من توقعاتنا، ومعاييرنا، وأفكارنا المسبقة. فهي تحد من مدى رؤيتنا وتمنعنا من النظر فيما يمكن أن يولد سعادتنا. فلنتخلص إذاً من القيود التي نفرضها على خياراتنا، ولنعيد النظر بقناعاتنا، وأوجه اليقين لدينا.

فالصديق السابق ذكره كان مقتنعاً بأنه سوف يجد السعادة في عائلة مكونة من أولاد من نفس السن. كان واثقاً من أنه لم يكن يريد مواليد جدداً. لم يعد يعرف، اليوم، أن يقول من أين أتته هذه الأفكار. إذ إن حركة الحياة جرفتها، كما يجرف النهر الطمي. نحن غالباً ما نخلط مجرد أحكام متسرعة وسطحية ناجمة عن تجربة سيئة، وتفكير امتثالي أو أصداء مشوهة لقصة سمعناها، بقناعات أصيلة. يكمن سر توفرننا وانفتاحنا في معرفتنا إسقاط القناع عن الآراء الهشة، وفي قدرتنا، فيما يتجاوز ذلك، على زعزعة قناعاتنا بواسطة الشك.

أثناء كتابتي لهذه السطور، استمعت على الراديو، بمصادفة سعيدة، إلى أغنية كلارا لوتشياني بعنوان عارية: «لقد نزعنا مجوهراتي، وأزلت الأسود عن عيني، والأحمر عن خدي، وها أنا آتي إليك عارية». وكررت الجملتين الأخيرتين. تحمل هذه الكلمات معنى مزدوجاً طريفاً: «آتي إليك عارية» تعني كذلك آتي للقائك مجردة من كل يقين، ومن كل أحكام مسبقة، وحتى ربما من كل توقع.

وهكذا، فالانفتاح والتوفر، يتضمن شكلاً من الشك بالمعنى النبيل للكلمة، كما تعرفه الفلسفة اليونانية: أي القدرة على «أن لا نعرف» بشكل مسبق. فإذا عرفت أن امرأة ترغب بإنجاب الأطفال لا يمكنها أن تجعلني سعيداً، فلن أنفتح على إمكانية حياة مشتركة معها. ولكن إذا تسلحت بالشك، ولم أعرف على وجه اليقين إذا كانت هذه المرأة تناسبني أم لا، فيتعين عليّ عندها أن أذهب للقائها.

يحيل مصطلح شَكَّاك بالفرنسية (Sceptique)، من اليونانية Skeptikos (ملاحظ)، ليس إلى فكرة الارتياب وإنما هو يحيل إلى فكرة تعليق الحكم على الأمور، مما يمثل الأفق الفعلي لأوائل العقلاء الشكاكين من أمثال بيرون أو سيكستوس أمبيريكوس. يتصف طرحهما الوجودي بالراديكالية إلا أنه يحرر الذهن: أنا أعرف أنني أستطيع الميل إلى اتجاه أو آخر، فأنا ألاحظ الحجج وأسلط الضوء على التناقضات وأوجه عدم

اليقين، إلا أنني أبقى متنحياً، ورافضاً اتخاذ موقف على ضوء مبدأ «عدم إمكانية التمييز»، فأعلق أحكامي. فأنا لا أعرف أيهما الأفضل: امرأة ترغب في إنجاب أطفال أو امرأة لم تعد ترغب بذلك. ومن خلال رفضي اتخاذ موقف قاطع، أظل منفتحاً على كل منهما.

أقترح عليك تمريناً ذهنياً صغيراً. فلنُشغِّل تخيلنا. لدينا توقع جد محدد ونتصور بدقة الشخص الذي نرغب فيه: مظهره، قامته، نظرتة، مهنته، ردود أفعاله، طريقة تفكيره، حديثه، وأسلوبه في العلاقة الغرامية... . يبتسم لنا القدر فيما يتجاوز توقعاتنا العملية ويضع في طريقنا التجسيد الكامل لأحلامنا (مما هو غير ممكن عملياً). فهل يمكننا الكلام عندها عن لقاء؟ ألا يمحو فقدان الكلي للمفاجأة حتى شعورنا بأننا التقينا مع أحدهم؟ نفهم الآن بشكل أفضل صدى الجملة البسيطة «لقد التقيت أحدهم» - التي نبوح بها لصديق، أو قريب، أو محلل نفسي... . تعني هذه الصيغة عملياً «أنني التقيت أحدهم الذي فاجأني»، والذي أبطل توقعاتي، وهو ما يدخل السرور إلى نفسي.

تشكل المفاجأة ملح اللقاء، أي ذلك الفارق بين ما سبق لي أن تخيلته، وما حدث. ويمكننا أن نقول الأمر ذاته عن لقاء مع شخص أو عن لقاء مع تحفة فنية.

اللقاء مع تحفة فنية

حين يحدث اللقاء مع لوحة فنية، أو فيلم، أو أغنية... فهو يدخل ضمن إطار المفاجأة، أو الصدمة هو أيضاً. فحين نقف مبهورين أمام لوحة ذاتية لرامبرانت، أو مشهد انطباعي لمونيه، أو لوحة تجريدية لروثكو، فإننا نلتقي بشيء آخر غير ما كنا نتوقعه. فحتى ولو سبق لنا أن سمعنا عنها، أو كنا نعلم إلى أي تيار فني أو مدرسة تنتمي هذه اللوحة، فإنها تمسنا فعلاً شريطة أن نتجنب كل تصنيف مسبق. الفن غير قابل للاختزال إلى ما نعرفه عنه. إنه يمس مشاعرنا شريطة أن يفاجئنا. «فالجمال يتصف دوماً بالغرابة»، يكتب بودلير. يتوقف علينا أن نكون منفتحين على هذه الغرابة، وعلى الإنصات لانفعالاتنا، كما يتوقف علينا أن ننحي معرفتنا جانباً، أي «تبريرنا للجمال». فما يهم لا يتمثل بالمبررات العقلانية، وإنما ما يهم هو ما يثيره الجمال فينا؛ إنه يجعلنا ننصت، ويؤهلنا لأن نحكم من دون معايير مسبقة، ويجعلنا نثق بأحاسيسنا. فالعمل الفني ليس جميلاً «لأنه كذا وكذا»، بل هو جميل خارجاً عن العقلنة وفيما يتجاوزها. إنه جميل، لأنه لا يوجد تبريرات. وهنا أيضاً يعني أن نكون متوفرين كلياً أن لا تكون لدينا أفكار قاطعة، ولا معايير محددة، ولا توقعات ثابتة. المهم هو أن نصل أمام العمل الفني وننفتح له بكامل أصالته. لا تشكل معرفتنا وأفكارنا حوله عوائق إذا لم تدع أنها أحاطت بكل معناه، وإذا بقينا قادرين أن نرى في اللوحة، أو المنحوتة أو الفيلم أكثر من مجرد المعرفة الموضوعية ذات الصلة به. يقوم بعض

المرشدين الفنيين بذلك بشكل مدهش: أي إثارة سر اللوحة أكثر من البحث عن شرحها وتوضيحها، وإعطائنا عناصر سياقية عنها كي ييسروا لنا اللقاء معها. إنهم يفتحون لنا الطريق التي يتعين علينا سلوكها، بحرية، وبحالة من تفتح حساسيتنا.

على كل حال، لا يتوقف الأساسي على المرشدين الفنيين، بل علينا نحن. فالتوفر هو وضعية من مسؤوليتنا نحن وحدنا. فإذا حاولنا التأكد أن عملاً فنياً معيناً يتطابق تماماً مع الملاحظات المكتوبة عنه في دليل أو في أحد كتب تاريخ الفن، وأنه «جدير بالسمعة المتواترة عنه» فإننا قد نتعرض تماماً للحد من متعتنا الفنية بصده. قد نخرج من المتحف أكثر ثقافة ومعرفة، إلا أننا لا نكون قد التقينا فعلاً مع أي لوحة فنية، ولا مع أي رسام من باب أولى. عشنا كلنا هذه التجربة: إذ إننا بحثنا في المتحف عن عمل فني محدد، نعرف أين يعرض. وقبل أن نصل إلى موقعه، تستوقفنا على طريقنا إليه لوحة فنية لا نعرف عنها شيئاً. ومع هذه اللوحة التي نصادفها عرضاً يحدث اللقاء. تتغلغل اللوحة كذلك إلى «قلوبنا عن طريق المفاجأة» كما يقول إيلوار في كلامه عن بيكاسو. تستثيرنا اللوحة بجمالها الغريب، بطريقة لا تقبل التفسير العقلي وحده. ولم يكن ذلك ليحدث لو أننا لم نلتفت حولنا، وركزنا على الوصول إلى اللوحة المقصودة وحدها، معتمدين نظام GPS العقلي الخاص بنا. فمن خلال تجوالنا العفوي، وتحالفنا مع الصدفة، أصبحنا متوفرين ومنفتحين لانبثاق غير المتوقع.

يكتب كريستيان بوبان في عمله بعنوان بيير: «لا يهمني رسم». «ولا تهمني الموسيقى. ولا يهمني الشعر. ولا يهمني كل ما يمت إلى ذلك ويذبل ببطء في هذا المضمار. تَطَلَّبَ مني الأمر أكثر من ستين عاماً كي أتمكن من معرفة ما كنت أبحث عنه خلال القراءة والكتابة، وكذلك خلال الوقوع في الغرام، وأمام نبته متسلقة، أو صخرة، أو أمام شمس تغرب. أنا أبحث عن انبثاق حضور صارخ، وعن فرط الواقع الذي ينسف كل التعريفات».

ذلك الكائن الذي وقعت في غرامه، وتلك الشمس التي تغرب والتي فاجأتني ببروزها من وراء الغابة، وتلك اللوحة التي اكتشفتها بالصدفة خلال تجوالي على غير هدى... كلها «انبثقت» في «حضورها» الصارخ؛ حضور يجعل كل تحديد وتعريف عبثياً ولا لزوم له. بماذا يهمني فن الرسم الانطباعي حين يأسرني ضوء لوحة مونية تلك؟ وبماذا تهمني الفيزياء اللونية عندما أكون أمام فتنة غروب الشمس ذاك؟ وبماذا يهمني تعريف الحب أو الصداقة عندما التقيتك أنت للتو، بتفردك، وبحيث انقطعت أنفاسي؟ «انبثاق حضور صارخ، وفرط الواقع الذي ينسف كل التعريفات»: ذلك أسلوب فائق الجمال في تصوير اللقاء! إذ كلما كان لنا توقعات محددة، وكلما توجهنا نحو المستقبل، تعرضنا لخطر أن يفوتنا هذا الانبثاق. وبالعكس، فكلما كانت توقعاتنا أقل تحديداً، أصبحنا أكثر انتباهاً إلى ما تحمله لنا اللحظة. إذ ليس هناك من توفر حقيقي إلا من خلال الانتباه للحاضر وما يحمله لنا من مفاجآت.

الانتباه في مقابل التركيز

أتذكر أستاذي في الفلسفة في ذلك الصباح من خريف 1990. كنت ألاحظ من خلال النافذة شجرة الكستناء بأوراقها الخضراء اللماعة وقد بللها المطر. كان يتكلم وكنت أصغي إليه. كان يتكلم وكنت التفت إليه. والواقع أنني كنت أصغي إليه أكثر مما أنظر إليه. يكتب كريستيان بوبان كذلك قائلاً: «الأصوات هي كنوز يقدمها الناس لنا، حتى المُقترّين منهم». فمن خلال تقديمه لهذا الكنز، كان أستاذي يدعوني بصوته المفرد والخشن بسبب التدخين، إلى أن أكون حاضراً. وفي هذه اللحظة النوعية، كان شيء ما يتكوّن ويتشكّل. كنت أسمعُه يحدثنا عن الحب عند هيغل من دون أن أكون مرّكّزاً بالمعنى الحرفي؛ إذ لم أكن أبذل أي جهد في الواقع في استماعي. وفي المقابل، كنت مهتماً بعمق بما يقول، وبالطريقة التي يقوله بها، كما كنت مأخوذاً بمنظر المطر الذي يتساقط على زجاج النافذة، وبرفاق صفي - الذين واللواتي كانوا مأخوذين بكلامه، وأولئك الذين يبدو عليهم الملل... أنا حاضر كلياً للموقف. لم أكن أنتبه بتركيز موجه نحو هدف محدد، وإنما بانتباه عام مفتوح على ما حولي، وفي حالة من اليقظة. هناك يتجلى التوفر الحقيقي. لم يكن لدي في ذلك الصباح وأنا أستمع إلى أستاذي، توقعات محددة، ولذلك كنت قادراً على هذا الانتباه المستوعب للحاضر. لم أكن أعلم عندها أنني سأمتهن المهنة نفسها لاحقاً، ولم أكن أستمع إلى هذا الدرس كي أحصل على علامة جيدة في امتحان البكالوريا، ولا كنت حتى أنتظر أن

يوضح لي حقيقة الحب . وكوني كنت متحرراً من كل توقع ، كنت أنفتح على كل ما يأتيني : كنت متوفراً تماماً .

وفي العودة ثلاثين سنة إلى الوراء ، أعتقد أن بإمكانني أن أرجع إلى تلك اللحظة التي شكلت مساري المهني ، في صباح ذلك الخريف ، في ثانوية جان-دو-لافونتين . كنت أستقبل بانفتاح حاضراً لم أكن أطلب منه شيئاً إلا أن أعيشه ، ولهذا السبب تحديداً انفتح المستقبل بالنسبة لي . منذ ذلك اليوم ، أداوم على قراءة الفلسفة يومياً ولا أتردد بالرجوع إلى أفلاطون وهيغل في اللحظات الصعبة . أصبح هذا الاختصاص مهنتي . فحين نكون حاضرين على هذا الغرار ، يقدم لنا الحاضر أحياناً هذه الهدية التي توفر لنا مستقبلاً .

يمضي الوقت بشكل مغاير حين نركّز انتباهنا . إذ لا يعود زمن الساعة التي تمر ، بل يمكن أن يتسارع في مرحلة من الإثارة ، وأن يتوقف في لحظة من الافتنان المطلق . وهكذا ، يخيل إلينا أننا نتكلم مع صديق منذ عشر دقائق فقط بينما نحن معاً منذ ما يقرب من ساعة من الزمن . فأن تكون حاضراً إلى درجة إيقاف الزمن أو تسريعه والتمتع بمذاقه كاملاً ، يعني أن تخرج من زمن الساعة كي تدخل فيما يسميه برغسون الديمومة : أي الزمن الذاتي المعاش .

يتطلب اللقاء هذا النوع من التوفر المنفتح : أي أن يكون بإمكاننا أن نأخذ وقتنا ، وأن نبده ربما ، وأن ننزع ذواتنا من

دكتاتورية الأشياء التي يجب أن نقوم بها، وأن ننتزع أنفسنا من ضغوط حالة الطوارئ. غالباً ما تُنسج الصداقات الدائمة في سن المراهقة. بينما في سن الرشد، حيث نكون مأخوذين بضغوطات العائلة و«الحياة المهنية»، نصبح أقل توفراً. إذ لا يعود لنا «وقت لنضيقه». ولكن معك أبدو مبذراً في الوقت، من خلال النقاش في كل شيء ولا شيء، ومن خلال التسكع، و«الاسترسال»، فأنا أعطي نفسي الفرصة للقاء معك. أصبحنا أكثر فأكثر في عجلة من أمرنا لملاقاة أحدهم، بينما يتعين علينا، على العكس، أن نأخذ وقتنا. إذ أصبح الوقت ثميناً. نملأ جدول مواعيدنا كلياً كي نعطي الانطباع بأن حياتنا حافلة بالنجاح المهني والاجتماعي؛ فأن نكون مثقلين بالمواعيد أصبح يشكل إشارة خارجية على الغنى. فمن لديه الكثير من الوقت يظهر وكأنه عاطل عن النشاط والعمل، وكأنه كسول، وحتى من الفاشلين... حتى أننا ندمر إمكانية التوفر والانفتاح ذاتها. فكيف تكون متنبهاً لما يدور حولك في الحاضر إذا كانت كل «خانة» من وقتك الحاضر قد تم حجزها مسبقاً منذ عدة أسابيع؟ وكيف يمكن أن ألتقي معك إذا لم يعد لديك أي وقت متوفر في روزنامة مواعيدك؟

يقدم زمن التقاعد غالباً فرصاً لعلاقة جديدة مع الوقت، أكثر قرباً من زمن المراهقة، وبالتالي أكثر احتمالاً للقاء. ومن هنا يلاحظ العدد المتزايد من قصص الحب التي تقوم في العمر

الثالث والرابع. ولكن هل يجب الانتظار حتى ذلك الحين؟ ألا يمكننا أن نستعيد، في كل الأعمار، سلطتنا على الوقت؟

«لم يعد هناك ساعة، ولا جرس
في الساحة حيث تنام الأشجار
أعود في قطار الليل
وعلى رصيف المحطة أراها
تلك التي تبسم لي»

كريستوف في أغنية الكلمات الزرقاء

يغني كريستوف قائلاً «لم يعد هناك ساعة، ولا جرس». تعطينا بعض اللقاءات هذا الانطباع بلحظة خارج الزمن: فالساعة التي كانت تستبد بنا وتتحكم بسلوكنا قد زالت، وزال معها هذا الجرس الذي يطل علينا من علي في وضعية سيطرة. ها نحن أخيراً حاضرون. نلتقط بَسْمَةً كان يمكن أن تفوتنا، أو شيئاً ما يتجلى فجأة في عيني الآخر، أو هذا الإرباك الخفي الذي يعتري الشخص المقابل لنا، أو حتى شعاع نور يتسلل من بين غيوم ملبدة في السماء. أصبح اللقاء مع الآخرين ومع العالم ممكناً. «أحب الصمت الساكن، للقاء ما». ففي زحمة انشغالنا، وتعجلنا، وانغماسنا في ضوضاء الحياة، لم نعد نعرف أن نُفرد مكاناً لهذا «الصمت الساكن».

قام عالِما النفس الأميركيان دانيال سيمونز وكريستوفر

شابريس في العام 1999 بتجربة تبين أن التركيز يعيق الانتباه الحقيقي. هناك فريقا كرة سلة أحدهما بلباس أبيض والآخر بلباس أسود، ويقومان بتمريرات الكرة فيما بينهما. طُلب من جمهور النظارة أن يعدوا التمريرات التي يقوم بها الفريق باللباس الأبيض، مما يتطلب تركيز الانتباه بشدة. وبعد عدة دقائق، عبّر الملعب رجل مقنع بلباس غوريلا وحيّا الجمهور. 50% من المشاركين بالتجربة لم يلاحظوا مروره. مما يدل على أن انتباهنا حين يصبح مركزاً جداً، وحين نركز على المهمة التي بين أيدينا، لا نستطيع رؤية بعضاً مما يدور تحت أعيننا. إذ إن 50% من المشاركين لم يروا المفاجئ وغير المتوقع: أي الغوريلا. إلا أن 90% من الرجال والنساء الذين تم استجوابهم قالوا إنهم كانوا سيلاحظون الغوريلا لو أنهم شاركوا في التجربة. وهو ما يبين كم أننا نجهل مدى هشاشة انتباهنا. يتكلم كل من العالمين سيمونو وشابريس عن «عمى عدم الانتباه» (Inattentive blindness) كي يصفوا الخمسين بالمئة الذين لم يلاحظوا مرور الغوريلا. تجاه هذه النسبة الكبيرة من «العميان» إزاء غير المتوقع، نتخيل بهلع كل المواعيد التي تفوتنا، وكل الفرص التي نخسرها، وكل تلك اللقاءات التي لم تتم لأن انتباهنا كان ببساطة متركّزاً جداً، مما يحوِّله إلى عقبة أمام الانتباه المفتوح على العالم المحيط بنا.

ذلك أن عصرنا يستقطب انتباهنا أكثر من العصور السابقة. فكيف يمكن أن أكون متوفراً ومنفتحاً عندما لا تتوقف الأنباء

المتسارعة، وسيل المعلومات، وإعجابات فيسبوك، والإشعارات المتتالية عن استقطاب انتباهي؟ وكيف يمكن أن أكون متنبهاً إلى ما أشعر به، وإلى وجود الآخرين، والواقع المحيط بي، عندما يستقطب التلفون المحمول عيوني، وأكون غارقاً في تصفح قاعدة البيانات؟ هنا أيضاً لا يعود استعمال التكنولوجيا محايداً. وأن نكون معرضين للقصف بهذه الكمية الهائلة من المعلومات، ولإغراءات شاشات أجهزتنا يضعنا في وضعية المشاهد السلبي، الساخر، أو الراغب، والذي سرعان ما يصبح لامبالياً. ليست هذه بالتأكيد أفضل حالة ذهنية للقاء أحدهم. يحدث لنا جميعاً أن نسير في الشارع غارقين في أمورنا، وعلى عجلة من أمرنا، وأعيننا مركزة على هاتفنا الذكي. تلخص الصورة مرض عصرنا. فكم من الأشخاص سيظلون غرباء بالنسبة لنا إلى الأبد بسبب استقطاب انتباهنا بإشعار أو منشور على أحد مواقع التواصل الاجتماعي؟ وكيف نكون متوفرين ومنفتحين للقاء عندما لا نعود نرى أو نلاحظ ما يجري حولنا؟

يلوم بعض الأساتذة تلامذتهم على قصور انتباههم وتركيزهم، ويربطون ما بين ملامتين مختلفتين. إذ إنهم يختزلون الانتباه إلى الانتباه المركز، والذي لا يعدو كونه تركيزاً، متناسين بذلك الانتباه المفتوح الذي يدعوه سايمونز وشابريس «الانتباه الموزع»، أي تلك الحالة التي يكون فيها الإنسان متنبهاً لعدة أشياء في الآن عينه، أي «موزع» الانتباه.

«يجب تدريب الطلاب على الانتباه» كما تذهب الفيلسوفة سيمون فايل في عملها بعنوان الجاذبية والنعمة. يتضمن الانتباه تناسي الذات بينما يشكل التركيز نوعاً من المجهود الشخصي. وتتابع قائلة «الانتباه فائق الصفاء هو نوع من الصلاة [...] أي أن لا تبحث عن شيء محدد وتكون جاهزاً لاستقبال ما سيأتي، تلك هي حركة النعمة». وإذا كانت النعمة المقصودة هنا ذات طبيعة ربانية، فإن فايل توضح قائلة إن ذلك ينطبق على الإله كما ينطبق على جارنا: أي أن اللقاء الحقيقي هو ذاك الذي ننتظره دون أن نبحت عنه، وذلك من خلال التخفف من الأنا المربكة جداً التي تعيق الانفتاح.

تمثل «النعمة» ذلك اللقاء الذي «يهبط علينا من الأعلى»، سواء ما يتعلق بنعمة الله أو نعمة كائن إنساني. لم تكن سيمون فايل ذاتها تتوقع عيش تجربة صوفية قلبت حياتها وذلك حين قرأت قصيدة - قصيدة حب لجورج هربرت - إذ شعرت بوجود المسيح يغمر كيائها. وتلخص ذلك قائلة، في نقد جميل للإلحاح المقصود، أن «الخيرات الأثمن لا يجب أن يتم البحث عنها، وإنما يجب أن تُنتظر، وإلا فلن نحصل إلا على خيرات زائفة». أن «تنتظر» ليس بمعنى انتظار محدد، وإنما بمعنى انتباه مليء، منفتح، حي، وموزع. أي نعم انتظار، ولكن من دون موضوع حقيقي بعينه.

أنا أتذكر كلمات استعملها أستاذي للفلسفة، منذ ثلاثين سنة

خلت لوصف الحب عند هيغل ، كما أتذكر لون أوراق شجرة الكستناء ، كما بدت لي من خلال النافذة في ذلك الصباح . كما أتذكر السؤال المدرسي جداً الذي طرحه أحد رفاق صفي الذي كان يُدعى سيفران ، وبنطال الجينز الباهت التي كانت ترتديه فتاه تُدعى فانيسا . هذه الكلمات والصور انطبعت في ذاكرتي لأنني كنت ، في ذلك الصباح من الخريف ، غير مركز تماماً ، وإنما كنت منفتحاً كلياً ، وقادراً على الانتباه العائم ، الانتباه «من دون موضوع» ، الذي تتكلم عنه سيمون فايل . وذلك لأنه كان لدي مكان لها جميعها ، ولكل الانفعالات التي كانت تصاحبها . ولو كنت في حالة تركيز إرادي للانتباه نحو هدف محدد ، لما كنت تركت لها مجالاً لاستقبالها ، ولما كان بمستطاعها أن تستقر في ذهني بشكل دائم . فأن تكون متوفراً ومنفتحاً للقاء ، يعني أن تفسح له مجالاً وتعطيه الوقت اللازم .

3

إسقاط القناع

قوة القابلية للانكشاف

نصادف بعضنا البعض منذ سنين عديدة دون أن نتنبه حقاً واحداً للآخر. قد يكون لنا أصدقاء مشتركون، وقد نكون درسنا في المدرسة الثانوية ذاتها، أو نقيم علاقات مهنية حسنة منذ زمن بعيد. ومن ثم إذا بنا في أحد الأيام... نصبح أصدقاء. فما الذي حدث؟ ما الذي تغير، كي يجعل لقاءنا معاً ممكناً؟ ذلك هو أحد ألغاز اللقاء: إذ يحدث أحياناً في لحظة محددة، بعد شهور أو حتى سنين من اللقاءات التي لم تتم. لماذا الآن، وفي هذه اللحظة بالذات؟

يتمثل أحد التفسيرات الممكنة في أن أحداً، وقد يكون كلانا - إلا أن أحداً منا يجب أن يفسح المجال لذلك - قد أسقط قناعه الاجتماعي المتمثل ببطاقة التعريف، كي يقدم نفسه بصورة أكثر إنسانية وصدقاً، وأكثر قابلية للانكشاف. فالتفهم المرحب، والاقتسام يصعبان عندما يتمترس كل منا وراء صورته الاجتماعية، ويرفض الانكشاف. وفي المقابل، فحين نعرف

بحالات خوفنا وشكوكنا، وحين نجرؤ على البوح بها للآخر، ونتوقف عن حساب كل شيء، وعن التساؤل كيف سيُستقبل كلامنا يا ترى، عندها ينفتح أمامنا المجال، ويصبح اللقاء ممكناً.

كلمة «شخص» بالفرنسية [Personne] التي تأتي من اللاتينية [Persona] تعني القناع الذي يلبسه الممثلون في المسرح. إذ يعني الشخص، تبعاً لأصل الكلمة اللغوي، ليس ذلك الفرد المحدد ذا الذاتية الخاصة، كما نفهمها اليوم، وإنما هو يتماشى مع صورته الاجتماعية، من قبيل القول أنه يلعب دوره جيداً على المسرح الاجتماعي. إلا أن ذلك هو تحديداً ما يعيق إمكانية اللقاء: إذ لو اتبع كل فرد الدور المناط به بدرجة عالية من الحرص وتمسك «بالقيام بدوره»، لن يكون هناك من مجال عندها للمفاجأة أو للتفهم المرحب. ولكن عندما يسقط القناع، يمكن للشخص الحقيقي أن يظهر. عندما نبدي قابلية للانكشاف، أو بكلمة أدق، عندما نتوقف عن حجب حساسيتنا، نتيح للآخر أن يصل إلينا، فنصبح مهمين ومحبيين بالنسبة إليه. يكفي أحياناً أن نخلع الرداء الاجتماعي كي نتمكن من التعلق بالآخرين.

يكتب أدورنو في عمله بعنوان الأخلاقيات الدنيا قائلاً: «لن تكون محبوباً إلا حين يمكنك أن تظهر ضعفك دون أن تثير رد فعل قوة من الطرف الآخر». إذ يمكننا عملياً إظهار أوجه

ضعفنا، وإعطاء الفرصة للآخر ليس لتوكيد استعلائه وسطوته، وإنما كي يظهر تفهمه المرحب؛ وعندها بإمكانه أن يصبح صديقنا.

بنوا السادس عشر والبابا فرنسوا المقبل

يقدم فرناندو ميريليس فيلم الباباوان، حيث يمثل فيه أنتوني هوبكنز دور البابا بنوا السادس عشر ويمثل جوناثان برايس دور خورخي ماريو بيرجوليو، أو البابا فرنسوا المقبل، يقدم توضيحاً جميلاً لفكرة الانكشاف هذه بغية الذهاب نحو الآخر. فهو يظهر لنا ولادة صداقة بين رجلين يبدو أنهما يتعارضان في كل شيء.

بنوا السادس عشر برجوازي كبير، وعلامة ورجل سلطة من المحافظين. إنه يفهم الباباوية بمثابة القيام بوظيفة الحارس لدغمائية الكنيسة - أي «حارس الهيكل». وإذا حدث له في اللقاءات الخاصة أن يكون أكثر تساهلاً في موضوع عزوبية القساوسة أو المثلية الجنسية، إلا أنه لا يظهر شيئاً من هذا القبيل في مواقفه الرسمية. أما خورخي بيرجوليو فهو رجل بسيط، يحب كرة السلة وكرة القدم، وسبق له أن مارس العديد من الصنائع قبل أن يصبح قسيساً. كان يحذر من السلطة، ويعتبر، بمثابة مريد القديس فرنسيس الأسيزي، أن ليس هناك من إيمان من دون ذلك التواضع والخشوع الذي كان عيسى المسيح يمثل النموذج لهما. كان مصدوماً من بذخ الفاتيكان، وجزعاً من مناورات السلطة التي كان الكرسي البابوي مسرحاً لها، ولقد

أصابه الأسى الكبير من طريقة استمرار تبخيس مسألة التحرش الجنسي بالأطفال من قبل القساوسة أو حتى التنكر لها من قبل الكنيسة. وفي حين كان بنوا السادس عشر في غاية الارتياح في أبهة زيه البابوي، تمنى خورخي بيرجوليو أن يمشي حافي القدمين مع المنبوذين والمقهورين. وحين انتُخب باباً، اتخذ لنفسه اسم فرانسوا الفقير. نشعر في بداية الفيلم - المستوحى من أحداث حقيقية - كل الازدراء الذي يبديه بنوا السادس عشر لبيرجوليو؛ وجهوده لتبرير الجمود الدغمائي على الرغم من الخضات التاريخية، جهود سوف تتعرض للخطر فيما لو تولى بيرجوليو البابوية من بعده.

يحصل بيرجوليو على مقابلة مع بنوا السادس عشر الذي يرفض استقالته من منصب مطران بوينس آيرس. وحيث إنه كان على خلاف مع سياسة البابا بنوا، أصبح من المستحيل عليه أن يتابع مهامه كمطران. كانت المواجهة بينهما حافلة بالعنف المقنّع: إذ تتجابه رؤيتان للبابوية، وفيما تتجاوزها رؤيتان للمسيحية، وللإيمان. يريد بيرجوليو أن يصلح الكنيسة التي ابتعدت عن كلام عيسى المسيح، كما ابتعدت عن روح العصر. وعلى العكس، فتبعاً للبابا بنوا لا يمكن لمؤسسة أن تلعب دورها إلا شريطة بقائها على ما هي عليه، لا تتزعزع حتى في خضم التحولات التاريخية. إذ يؤكد البابا بنوا تحديداً أنه «في مؤسسة» لا بد من «دعامة». فلكي تنمو النبتة نمواً مستقيماً يتعين أن تظل الدعامة راسخة وثابتة كي تدعم هذا النمو. وبينما هما يتجولان

في حديقة الإقامة الصيفية الفخمة للفاتيكان، ظلّ كل منهما متمسكاً بموقفه. إنهما يتجابهان، دون أن يلتقيا طالما بقي كل منهما مقتنع بأنه على حق. تجرأ البابا بنوا على إثارة مسألة الصفح بصدد القساوسة الذين مارسوا التحرش الجنسي على الأطفال، وهو صفح صعب بطبيعة الحال كما هو شأن كل صفح عن الإثم: فالقساوسة هم خطّائون كسواهم من البشر... يرد عليه خورخي بيرجوليو بنبرة جافة قائلاً: «عندما لا نحمي بما يكفي الضحايا المحتملين المقبلين، فإن إثارة مسألة الصفح هذه تصبح غير مقبولة». كان الرد هجوماً ولو أنه ظلّ ضمن حدود اللباقة: فهو يأخذ على البابا صمته عن الفضيحة، ويجعله يفهم بأن في ذلك نوعاً من التساهل أو التواطؤ المتستر. لم يكن بإمكانهما أن يلتقيا لأن كل منهما يجد نفسه في مواجهة الشخص الذي يتوقعه. كان بيرجوليو ساخطاً على هذه البلاغة الفصيحة التي تخلو من العواطف التي يبديها بنوا السادس عشر. بينما هذا الأخير لا يتحمل طريقة فرانسوا في تذكيره الملح برسالة المسيح. ومن خلال إصراره كي يقبل بنوا السادس عشر استقالته، وصل بيرجوليو حد الاصطدام. ولكن، من خلال إصرار الباب على رفض هذه الاستقالة، كان يذكر بيرجوليو بأنه هو من يملك سلطة القرار. انفصلا وهما على خلاف بشأن الاستقالة، إلا أنهما عادا والتقيا بعد عدة ساعات، ومما لم يكن متوقعاً بالمرّة - فإن البابا بنوا السادس عشر هو من بادر إلى إسقاط القناع أولاً.

وحيث كان البابا يحسن عزف البيانو ومحباً للموسيقى ، فقد اقترح على بيرجوليو أن يعزف له قطعة موسيقية على البيانو . وهكذا تحوّل عالم اللاهوت العقلاني إلى عازف حساس . ثم أصر على بيرجوليو كي يبقى معه لوقت أطول . فلقد كان البابا يشعر أنه وحيداً طوال حياته ، ولكنه لم يشعر بالوحدة في أي وقت كما هو حاله الآن ، ذلك ما اعترف به لبيرجوليو . لقد تغيرت النبوة ، وبقي ما حاول التعبير عنه غامضاً . وهو ما أربك بيرجوليو تماماً . ثم طلب من البابا ثانية أن يوقع له رسالة الاستقالة . وإذا بالبابا يتوجه إليه فجأة ، وبعد لحظة صمت ، يكشف له بأنه لم يعد يسمع صوت الله . إنه لا زال مؤمناً ، ولكنه لم يعد يسمع صوت الله . الوحدة تخنق أنفاسه . نظر بيرجوليو إلى بنوا السادس عشر ، ذلك الرجل الواثق من نفسه ، والذي وصل إلى قمة السلطة الكنسيّة وإذا به يعترف له بالأمر الذي لا يصدّق : أي أنه لم يعد يؤمن بالله . أو على الأقل أن إيمانه يتزعزع . فكيف يمكنه إذاً أن يستمر راعياً لملايين المؤمنين ؟ وفي حضور بيرجوليو ، صاحب الإيمان الذي لا يتزعزع ، تتكشف لبنوا السادس عشر الظلال التي تخيم على إيمانه . ويبوح له بأنه يرغب في التخلي عن البابوية . وأن يستقيل هو بدوره . إذ طوال تاريخ البابوية لم تطرح استقالة الأب-المقدس سوى مرة واحدة . أصيب بيرجوليو بالذهول . فهشاشة بنوا السادس عشر هذه ليست ، بالنسبة إليه ، سبباً مقنعاً للاستقالة . وإنما على العكس تماماً . إنها يمكن أن تقرّب بنوا السادس عشر من الله ، وتشفيه

من عجرفته، وتفتح قلبه من جديد: «ضعفنا هو ما يجلب مرضاة الله، أجابه قائلاً، نظهر له ضعفنا، فيمدّنا بالقوة».

ينظر بيرجوليو إلى بنوا السادس عشر، ويبدو له كأنه يراه لأول مرة. ولكن لم يكن ذلك آخر ما يفاجئه. إذ يستمر البابا قائلاً: إنه يستطيع الاستقالة، لأنه وجد الخلف الذي يعقبه، أي الرجل الذي تحتاجه الكنيسة، القادر على مصالحتها مع شعبها. هذا الخلف، الذي كان يعتبره منذ لحظات أسوأ ما يمكن أن يكون، يعرف الآن أنه يقف أمامه.

لم يُرد بيرجوليو أن يسمع شيئاً من هذا كله. حتى أن حديقة الإقامة الصيفيّة للفاتيكان تثير فيه الخجل: فهذا الترف يشكل فضيحة، وهذا الغرق في النعم يشكل خزيًا. وماذا بشأن الفاتيكان؟ يصر بنوا السادس عشر: هذه الطريقة بأن تعيش كلام المسيح في صميم كيائك، أليست بالضبط ما تحتاجه الكنيسة؟ ولأن بنوا السادس عشر أسقط القناع، فإن بيرجوليو يسقطه بدوره. إذا أخذ يردد، بصوت يرتعش رهبة، «لا أستطيع». فبوح بنوا السادس عشر - الذي يقارب الاعتراف - حرّره هو بدوره؛ وها هو يتخلص مما يثقل على صدره.

قبل عدة سنوات سابقة، وكان بيرجوليو خلالها مسؤولاً عن اليسوعيين في الأرجنتين، استولت طغمة عسكرية على السلطة وفرضت ديكتاتورية عسكرية استمرت سبع سنوات، ما بين 1976 و1983. انضم العديد من القساوسة، وخصوصاً أولئك الذين يسمون «القساوسة العمّال» إلى المقاومة للقتال ضد هذه

الطغمة الحاكمة غير الشرعية التي أرادت السيطرة حتى على القساوسة، وإغلاق الكنائس التي يسيطر عليها «الثوار». لم يختار بيرجوليو المقاومة. بل وقر المخبأ للقساوسة، وسهل فرار المهتدين من بينهم إلى خارج الأرجنتين، إلا أنه حافظ على الحوار مع الطغمة العسكرية. ولقد قام بذلك بغية تلطيف حدة التوتر، وإنقاذ الأرواح، والحصول على تسويات... وخلال قيامه بالتفاوض، نظم العسكر المئات من الاغتيالات من رجال الكنيسة ونسائها. ولقد مات الكثير من أولئك الذين كان يأمل في إنقاذهم.

جاء الآن دور بنوا السادس عشر كي ينظر نظرة جديدة إلى بيرجوليو. كان بنوا السادس عشر يعرف أن أسقف بوينس آيرس قد عومل بمثابة «متواطئ»، حيث إنه أعلم بذلك. إلا أن قصة بيرجوليو لم تنته عند هذا الحد. إذ يروي أنه أحب في شبابه، وتخلّى عن هذا الحب كي ينخرط في سلك الرهبنة. ومنذ اليوم الذي صارح فيه هذه المرأة التي أحبها بقراره هذا، لم يعد أبداً للقاءها. وعاش بيرجوليو السنوات العديدة التي تلت حاملاً في قلبه، رغم نور الإيمان، قسماً من الظل، أي الحداد على حب كان بالإمكان أن يتم اقتسامه مع محبوبته، ويعاش يومياً، والشك تجاه العدول عن هذا الحب. إلا أنه تعلم أن يعيش مع هذه المشاعر، ويستمر في حبها حباً لا تستطيع أن تفهم كنهه. وكان سعيداً أن يتخيلها تنطلق في الحياة مع رجل آخر. حتى أتى اليوم الذي اكتشف فيه أنها كانت من ضمن المقاومين الذين اغتالتهم

الطغمة العسكرية، والذين أُلقيت جثثهم في البحر.

تركت المفاجأة، في عيني بنوا السادس عشر مكانها لهذا الشكل من الحب الذي يتصف بالركة: خورخي لم يعد ذاك القس المجرد من المآخذ عليه، المتواضع بين المتواضعين، والمتصف بالاستقامة الكاملة. بل يحمل هو أيضاً عبء الندامة، والتقصير. ويكرر أنه لا يستطيع أن يكون البابا... حيث يرزح تحت أثقال الماضي، وهي أثقال لا يمكن لأي شيء أن يمحوها.

إننا نتشابه جميعاً: نتشابه بآلامنا وعثراتنا، لأننا جميعاً لا نتصف بالكمال، ونجهد في إخفاء ذلك. هذه المجهودات تثقل كاهلنا: نحاول جاهدين إقناع أنفسنا بأنه لم يعد لدينا مكان للآخرين. ونعتقد أن القناع يحمينا في حين أنه يعزلنا: إذ ننسى أن خيبتنا تقرب فيما بيننا أكثر من حالات نجاحنا. ولكي يتمكن خورخي بيرجوليو من أن يلتقي مع بنوا السادس عشر، تعين على هذا الأخير أن يبوح له باعتراف شبه مستحيل. ولكي يلتقي بنوا السادس عشر مع خورخي بيرجوليو، تعين على هذا الأخير أن يعبر له عن بعض معاناته. وُلدت صداقتهما في ذلك المساء، ولا زالت مستمرة. رجع بنوا السادس عشر إلى اسمه السابق، وهو جوزف راتزنغر، وأصبح من أولئك الذين يستشيرهم البابا فرنسيس بانتظام.

يغني ليونارد كوهين في أغنية نشيد الوطني قائلاً «هناك ثغرة في كل شيء، ومن خلالها يدخل النور». وكل من الصداقة والحب يشبهان هذا الشعاع من النور: إنهما يشعان لمسافة

بعيدة، شريطة أن توجد ثغرة تتيح لهما المرور. «نظهر له ضعفنا، فيمدّنا بالقوة» يقول البابا المقبل، فرنسيس. وهو ما ينطبق بالقدر ذاته على الصديق.

تلك هي قوة القابلية للانكشاف بالمعنى الأرسطي، حيث مصطلح «قوة» يعني: ما يجعل شيء آخر ممكناً. لم يحدث اللقاء ما بين الباباوين إلا حين سقطت الأقنعة من الطرفين، كاشفة نقاط الضعف عند كليهما. إنه لمن الصعب نزع القناع، ومن باب أولى حين يتعلق الأمر بالبابا، حيث إنّ هذا القناع الهائل، وعظيم التأثير، يخضع لأنظار العالم كله. ومع ذلك، ففي اقتسام لحظة حميمية، يصبح ذلك ممكناً. وإذا كان هذان الباباوان قادرين على إسقاط القناع، فما الذي يمكن أن يعيقنا عن ذلك نحن الناس العاديين؟

فأن نجرؤ على إظهار قابليتنا للانكشاف يتيح كسر كل لعبة المظاهر والأدوار التي تشكل سداً أمام اللقاء، دفعة واحدة، واقتراح نمط آخر من الارتباط، مختلف عن الاتصال الاجتماعي المعتاد. غالباً ما يحدث ذلك من خلال رواية ماضٍ معيّن، كما فعله خورخي بيرجوليو. فأَي مدخل أجمل من هذا إلى حاضر شخص ما؟ ففي الرواية التي يرويها أحدهم عن ماضيه تنبجس انفعالاته، التي تجد صداها لدى الآخر.

يسمح إظهار القابلية للانكشاف للشخص الآخر بالقيام

بالخطوة ذاتها والظهور على حقيقته كما هو، من دون الخوف من التعرض للحكم عليه، وذلك تبعاً لقانون أولي من السيكولوجيا الإنسانية: أي المعاملة بالمثل. إذ سبق لمارسيل موس، عالم الأنتروبولوجيا الشهير، من خلال ملاحظته للمجتمعات البدائية، كيف أن الهبة المقدمة من طرف ما، تثير تلقائياً «هبة مضادة» بالمقابل. فأن تعطي الآخر، فسوف يعطيك بالمقابل. وأن تدعو أصدقاء على العشاء، فسوف يردون لك الدعوى بمثلها. لسنا هنا بصدد أحد الأعراف الاجتماعية وإنما نحن بصدد أحد الثوابت النفسية الإنسانية.

يبين فيلم الباباوان جيداً آلية التبادل والمعاملة بالمثل هذه. إذ من خلال تجاوز تحفظه الرسمي، قام بنوا السادس عشر، بأكثر من مجرد دعوة خورخي بيرجوليو لأن يفعل الشيء ذاته؛ بل كاد يجبره على ذلك تقريباً. فمنذ اللحظة التي اعترف فيها بنوا السادس عشر له بما يتعذر الاعتراف به عادة، كيف يمكن لخورخي أن يبقى على تحفظه؟ كان سيبدو عدم التخلي عن تحفظه فظاً، بطبيعة الحال. بينما أن التخلي يجلب الارتياح والتخفف من العبء، ويشكل خطوة إلى الأمام.

عذوبة الصداقة

في تعليق على المفهوم الأرسطي للصداقة، يُعرّف الفيلسوف الإيطالي جورجيو أغامبين الصديق بمثابة ذات أخرى نقسم معها «عذوبة الوجود ذاتها».

يبدو هذا التعريف للصداقة مفاجئاً للوهلة الأولى. يعرف أرسطو في علم الأخلاق إلى نيقوماخوس الصديق في المقام الأول بمثابة ذاك الذي يتيح لنا أن نحقق إمكاناتنا، وأن نتقدم، ونصبح أفضل حالاً. لا يعارض جورجيو أغامبين هذا التعريف، إلا أنه يجد في الأثر الفلسفي الأرسطي فكرة أكثر أهمية، في رأيه، ولم تستوقف الدارسين: فالصديق، هو ذاك الذي يجعل حياتنا أكثر لطفاً وعذوبة. ولهذا بإمكاننا أن نبقي صامتين بحضوره من دون شعور بالخرج، أو نناقش لساعات متناسين الوقت الذي يمر، أو نترك أنفسنا نفصح عن أسرار حميمة. فمن خلال حضوره، يتيح لنا الصديق الشعور بعذوبة العيش حتى في أصعب الأوقات. وهذه التجربة عالمية: فحين نشعر بالضييق، نتصل بصديق ونسير نحو مكان موعد اللقاء ونحن مثقلون بما يزرع على صدورنا والذي يستغرقنا كلياً. وبالكاد نعثر عليه، وبالكاد نجلس في مقابله، وإذا بالحياة تبدو أقل وطأة وأكثر احتمالاً. ومع أن المشكلة لم تُحل، فإن هناك شيئاً قد تغير. وحتى قبل أن يتكلم، نشعر بحضوره معنا، وهذا الحضور بحد ذاته كافٍ أحياناً. فحتى قبل بدء الحوار، نشعر بحرارة هذا الرباط، نشعر بشيء يخصنا ويدور بيننا، ويولد لدينا الارتياح. ذلك تحديداً ما سيكتشفه هذان الباباوان خلال أمسية لقائهما والذي أتاح لهما حتى الضحك من عثراتهما: إنها عذوبة الحياة التي لا يمكن الشعور بها في حالة الوحدة. ولكن لكي يتمتعنا بهذا الشعور السار، تعين عليهما قبلاً إظهار قابليتهما للانكشاف.

ولأنني هش، ولأن الحياة قاسية، أنا بحاجة إلى العذوبة والرقّة. فالتجرؤ على الانكشاف، يعني إعطاء الفرصة لعذوبة متعة الصداقة.

اللفظ والرقّة

إلا أنه يتعيّن توخي الحيطة وإظهار بعض الحياء في الكشف عن الهشاشة الذاتية. وتجنب مصادرة الآخر وتحمله عبء كل آلامنا. إنها مسألة انتظار اللحظة المناسبة، والتعبير عن المعاناة بشيء من اللباقة والرّهافة. فالبوح والكشف يتعين أن يتلازما مع الإنصات لمدى استعداد الآخر للتلقي، وذلك من خلال الانفتاح عليه. إذ إن نزع القناع بشكل متسرع، ومن دون الاهتمام بمدى جاهزيته وحساسيته، قد يصدمه، أو يدفعه إلى الهروب. فمن غير اللائق أن نعبر عن حبنا الجارف أمام شخص تتعثر حياته الزوجية، أو يعاني من عزوبية قسرية. كما أن اختيار الكلمات فائق الأهمية، فمن غير اللائق الحديث عن إرهاقي في عمل هام وممتع، إذا كان محدثي قد فقد وظيفته للتو. إذ يتوقف لقاءنا على مدى الرّهافة التي أتمكن من خلالها التعبير عن هشاشتي، مع أخذ هشاشته ومتاعبه بالحسبان، ومن خلال الانتباه للحظة المناسبة وللکلمات المناسبة كذلك، أي ما يمكنني قوله، وما يُفضّل أن أصمت عنه.

تأتي كلمة الخليل بالفرنسية (Confident) من اللاتينية

Confido التي تدل على ذاك الذي يمكن الوثوق به، كما أن كلمة «ثقة» بالإنجليزية هي Confidence. فحين أُسقط قناعي أمام الآخر، وأبوح له بمعاناتي، فإنني ألقى مسؤولية عليه: أي أنني أطلب منه الاهتمام بي. وما أقدمه له بالمقابل يحتل مكانة هامة: بعضاً من حقيقتي والكثير من هشاشتي وكامل ثقتي. إلا أنني أنتظر منه الكثير. ويتعين عليّ أنا أن أقوم بذلك من خلال اللطف والرقّة.

لا يشجعنا عصرنا حقيقةً على إسقاط القناع، وإنما على العكس يشجعنا على استعراض الوجه المشرق على وسائل التواصل الاجتماعي، من قبيل صور «السلفي» التي تظهر أننا في أحسن الأحوال، وصور شخصية نغيّرها حسب عدد الإعجابات التي تثيرها. نلعب على الانستغرام لكي نقدم أبهى صورة عن حياتنا - من قبيل عطلنا وسياحتنا وسهراتنا وجمعياتنا المميزة ونحن في حالة سرور وضحك ومرح... - وكلها مصممة كي نستعرض نجاحاتنا وسعدنا أكثر بما لا يقاس من إظهار معاناتنا وهشاشتنا، وذلك من دون أن نأخذ بعين الاعتبار معاناة الآخرين، حين نستعرض هذه النجاحات الوهمية والمظهر الخادع لسعادتنا، التي قد تثير مشاعر الغبن لديهم.

وبدلاً من إسقاط القناع، فإننا نذهب إلى تجميل وتزيين صور السلفي التي ننشرها بغية الحصول على أكبر قدر من الإعجابات. والأدهى والأمرّ، يتمثل في جري البعض إلى

جراحي التجميل الذين لم يعد بإمكانهم تلبية كل طلبات عمليات تجميل الأنف والعيون والوجه، للحصول على صورة مصطنعة مألوفة مثل التي تعرضها حوارزميات و«فلاتر» وسائل التواصل الاجتماعي. وإزاء هذه الظاهرة المقلقة، اضطر مديرو انستغرام إلى إلغاء الكثير من «الفلاتر» وبرمجيات التجميل هذه. فالأدوات التقنية الموضوعة بتصرفنا تدفعنا إلى الاعتقاد بضرورة تقديم صور بالغة الكمال والسعادة عن مظهرنا وواقعنا، وإنها تضع القناع المحسّن على واقعنا. وتلك هي الوسيلة الأكيدة في أن نبني جداراً بيننا وبين الآخرين.

فماذا نحب حقيقة لدى الآخر؟ هل نحب قوته أم ضعفه؟ ربما مزيجاً من الاثنين. فمن خلال البوح «بأزمة الإيمان» لديه، فتح بنوا السادس عشر نافذة على غناه الداخلي، واستقطب انتباه خورخي بيرجوليو بطريقة فريدة؛ تجلّى له عندها فجأة البابا بنوا على حقيقته. حيث تمتزج عنده أوجه القوة والضعف، بشكل لا يمكن معه الفصل بينها.

في الدين المسيحي، يحب الناس لدى الآخر، هشاشته وقابليته للانكشاف، إذ فيهما، ومن خلالهما، يظهر على حقيقته، ويسقط قناعه، ويعود إلى كونه أحد أبناء يسوع. ولكن ما يجذبنا في الآخر ليس مجرد هشاشته وإنما ما تكشف عنه هذه الهشاشة من تعقيد، وذلك التشابك الفريد ما بين أوجه القوة والضعف، وهو تعقيد يقوم القناع الاجتماعي بطمسه وإخفائه.

وحتى حين يفتننا الآخر بأوجه قوته (من قبيل بحبوحته، وقصص نجاحاته، والكاريزما التي يتمتع بها...)، نلامس أحياناً بعضاً من أوجه هشاشته التي تجذبنا بنفس القدر. كما نقدر كيف تمكّن من التعامل مع أوجه ضعفه، محوّلًا إياها إلى أوجه قوة، أو بأسلوبه في الإقرار بها، وحتى كيفية صراعه معها. ويبدو لنا، أحياناً، أننا الوحيدون الذين يلمسون هذه الهشاشة التي يتعمى عنها الآخرون، مما يخلق تلقائياً رباطاً حميماً بيننا وبينه. فإذا لم يتسرب شيء من هشاشته، لا يمكن عندها تلمس تعقيد كيانه، مما قد يدفعنا بسرعة إلى الابتعاد عنه. وحتى لو لم يسقط الآخر القناع كلياً، يتعين أن يُمكننا من تلمس بعض أوجه كيانه الحقيقي كي نرغب في اللقاء معه.



أن نثير الصدفة من خلال فعل تلقائي، وأن نكون متوفرين ومنفتحين لما لا نعرفه، وأن نجرأ على إسقاط القناع من دون الخوف من رد فعل الآخر، تشكل كلها أفعال تتطلب الثقة. لقد بيّنتُ في عملي بعنوان الثقة بالنفس، فلسفة حياة هائلة، إلى أي حد يجب أن نفرّق ما بين الثقة والاعتداد بالنفس. فأن نشق بأنفسنا، يعني أن ننطلق رغم الشك، وأن نتعلم قبول حالة عدم التأكد بل وحتى تبنيها رغم ما ينتابنا من هواجس، وأن لا نحاول طمأنة أنفسنا من خلال استبعاد حالة عدم التأكد هذه.

فالشروط الثلاثة الكبرى للقاء التي عرضناها في هذا الفصل

- أي الخروج من القوقعة الذاتية، والتوفر والانفتاح، وإسقاط القناع - تقود جميعها إلى الحقيقة التالية: يجب الثقة بحالة عدم التأكد ومجابهتها.

الخروج من القوقعة الذاتية من دون التأكد من النتيجة، يعني الثقة بالفعل، وبقدرته على إعادة تشكيل الواقع. التوفر والانفتاح على المفاجئ لا يعدو كونه شيئاً آخر سوى تعريف للثقة: أي الاستعداد للتوجه نحو ما لا يمكن توقعه مسبقاً. فإذا كنا لا نثق إلا بما نعرفه، وحيث تجري الأمور كما هو متوقع، نكون عندها بصدد الكفاءة والمهارة، وليس بصدد الثقة.

أخيراً، أن نُظهر قابليتنا للانكشاف، وأن نُظهر على حقيقتنا، وألا نتقدم ونحن مقنعون، يتطلب كله الثقة بأنفسنا وبالأخر كي نجرأ على الكشف عن خبايانا لمن هو غريب عنا. في نهاية هذا الدرب حول شروط اللقاء، نشعر جيداً أن أفضل طريقة للقاء الآخرين يتمثل في أن نثق بهم.

القسم الثالث

الحياة الحقة لقاء

إننا حيوانات غريبة حقاً: إذ نحن بحاجة إلى اللقاء مع أعضاء آخرين من نوعنا كي نصبح نحن ذاتنا. نحن لا نكتفي بحالنا؛ ونطمح طبيعياً إلى اللقاء مع الآخر، ليس كمجرد ملحق بنا، وإضافة لكياننا الأول، وإنما بمثابة عنصر جوهري، وجزء مكوّن وملازم لحياتنا ذاتها، وضروري لتحقيقنا لكياننا.

يستحيل أن نعرف، من دون لقاء الآخرين، ما الذي يحركنا حقاً، وما نحن قادرون عليه، ومن المستحيل كذلك أن نخرج من سجن هويتنا، ومن قواقعنا الاجتماعية أو الذهنية، كما يستحيل أن نكتشف ذلك النسغ الأخلاقي، وذلك الاستعداد لتقديم الآخر على ذاتنا أحياناً.

التقيتك، وأذهلتني فرادتك المشعة، ولقد أصبحنا أصدقاء، أو ربما محبين وعشاقاً، لقد فاجأتني على كل حال، وحوّلت كياني، كما غيّرت نظرتي للعالم، فهل يا ترى أنت من ابتسم لي عندما لم تعد الحياة تبسم لي، أو أنا من هبّ لنجدتك وانتشيت

في مسؤوليتي الجديدة، أياً يكن الأمر، فلقد اكتشفتُ بفضلك، ومن خلالك جزءاً من ذاتي كنت أجهله. أنا أعرف الآن بشكل أفضل من أنا. ولست أنت من علمني ذلك، وإنما أنا أكتشفته من خلالك؛ لقاءنا كان مفتاح كل ذلك.

يمكن أن تكون بعض اللقاءات كاسحة، بمعنى سلبي أو إيجابي. ومن خلال كنس كل شيء خلال مرورها، تنتزعنا هذه اللقاءات الاستثنائية من صيغة من كياننا لا تساعدنا على الانطلاق والتفتح، أو هي تنتزعنا من حياة من الملل أو العذاب، أي من وجود دون ما نطمح إليه، والذي نملك مقوماته غير المستغلة. فأن ندعها تفوتنا يعني أن نترك حدثاً تأسيسياً من حياتنا يفلت منا. قد يعني ذلك أن نخسر فرصة لقاء شخص كان بإمكانه أن يحبنا كما لم يسبق لنا أن خبرنا الحب، أو يقودنا أخيراً إلى تذوق عذوبة الحياة، أو كائن يمكن أن يفتح عيوننا، ويشير مذاق الدهشة، ويوقظ صفاتنا الكامنة. أن نخسر مواعيد من هذا القبيل، يعني في النهاية، أن نخسر الكثير من ذواتنا، وأن نجانب حقيقتنا، ورغبتنا، وسعادتنا. فهل «قَدَرْنَا» هو ابن الصدفة إلى هذا الحد؟ ولماذا يتعين علينا أن نلتقي مع ما ليس نحن كي نصبح نحن ذاتنا؟ هناك ما هو أكبر من سؤال: إننا بصدد لغز.

إنه لغز يستحق التقصي عنه، وتسليط الأضواء عليه من منظورات متعددة: أنثروبولوجية، ووجودية، ودينية، وتحليلية

نفسية، وكذلك جدلية. وفي كل من هذه المنظورات يتعيّن الرجوع إلى مؤلّفين مرجعيين. وبين هؤلاء مَنْ هم ملحدون من مثل آلان، وآخرون مؤمنون من مثل مارتن بوبر. وسوف نلتقي في هذا الاستقصاء محللاً نفسياً، أي فرويد، وخصماً لهذا المذهب، وهو سارتر. وسوف تتمثل الفلسفة الغربية بهيغل، كما سيكون معارضه هو فرانسوا جوليان. ولكنهم كلهم يمكن أن يُجمعوا على تأكيد مارتن بوبر القائل: «الحياة الحقة لقاء».

1

اللقاء خاصة إنسانية

قراءة أنثروبولوجية

الحيوانات تلتقي بدورها: إما لقاءً مصيرياً مع مفترس، أو لقاءً عاطفي لدى الإوز أو البيغاوات المسماة «طيور الحب» والتي تعيش كثنائي زوجي وتهلك بعد موت «قرينها»، وكذلك لقاء «رفيق» عند الحمير التي لا تتحمل الوحدة فتنتقي حماراً آخر، أو حصاناً، أو خروفاً أو ماعزاً، يترافقان معاً معظم الوقت. وبالإمكان الإكثار من الأمثلة التي تنتشر على شبكات الحيوانات الاجتماعية مقدمة تحالفاً أو رباطاً حميماً يبدو كأنه إنساني تقريباً. إلا أن اللقاء، مهما كان أساسياً، يبقى ذا تأثير محدود عليها. فإذا كان بإمكان الحيوان أن يجد الارتياح والرغبة في العيش من خلال اتصاله مع بني جنسه، ويجد الثقة والسكينة، فإن اللقاء لن يغيره في العمق كما هو الحال لدى البشر. وأما من حيث تأثيره على تطور النوع، فمن الواضح أنه يظل محدوداً. أما الكائن الإنساني فقد يرى حياته قد انقلبت من خلال لقاء أستاذ، ومفهومه عن العالم تحوّل من خلال لقاء غرامي، مما يدل على أنه يبقى عجينة مطواعة، وقابلة للتشكل، يمكن للآخر أن ينفخ

فيها شكلاً جديداً. أما الحيوانات فيبدو أنها مكوّنة من عجينة مغايرة. فغريزتها أكثر ثباتاً من غرائزنا، وحواسها أكثر تطوراً من حواسنا. فما جدوى اللجوء إلى الآخرين عندما يمكن أن نوجه أنفسنا بقوة ووضوح من خلال الغريزة؟

تجعل هذه الغريزة، تبعاً لروسو، الحيوانات أقل قابلية للتحسن والتطور منا بني البشر، وبالتالي تجعلها أقل حساسية لتأثيرات اللقاء: «عندما تترك الصعوبات التي تحيط بهذه القضايا، مجالاً للجدال حول هذا الفارق بين الإنسان والحيوان، تبقى هناك خصلة نوعية جداً تميزها عن بعضهما البعض، والتي لا يمكن الجدال حولها، وهي ملكة القابلية للتحسن؛ وهي ملكة تُطوّر، بمساعدة الظروف، كل الملكات الأخرى وتبقى مستمرة وفاعلة لدينا أفراداً ونوعاً إنسانياً، بينما أن الحيوان يصير خلال أشهر ما سيظل عليه طوال حياته، كما يظل نوعه، بعد ألف سنة، على ما كان عليه في أولى هذه السنوات الألف». ذلك ما يكتبه روسو في الجزء الأول من خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر. وبعد مضي قرن من الزمان على ما ذهب إليه روسو، ها هو داروين يبيّن أن كل الأنواع الحيوانية تتطوّر، وأنها «لا تظل بعد ألف سنة على ما كانت عليه في أولى هذه السنوات الألف». كما يشير علماء دراسة الحيوان في بيئته الطبيعية إلى أن الحيوانات قادرة بدورها على «التحسين والارتقاء»، وإنما بمعدلات لا تُقارن بتقدم البشر، وبوتيرة أقل استمراراً بكثير، وبحيث تظل لأفكار روسو بعض المصداقية. وحتى لو دعا الأمر

إلى تعديلها على ضوء الاكتشافات العلمية اللاحقة، فإنها تقوم على بَيِّنَةٍ لا مرأى فيها: نحن البشر نتغير أكثر بكثير، من خلال علاقتنا بالبشر الآخرين، مما يحدث عند الحيوانات في علاقتها مع بني جنسها، كما أننا نتطور بوتيرة أسرع بكثير من الحيوانات، وسواء أكان هذا التطور للأحسن أم للأسوأ. وهكذا يتساءل روسو: «لماذا الإنسان وحده معرض لأن يصبح أحمق؟ ألا يعني ذلك أنه يعود إلى حالته البدائية، وأنه بينما يحتفظ الحيوان الذي لم يكتسب شيئاً، وليس لديه ما يخسره، بغريزته على الدوام، يخسر الإنسان، بسبب التقدم في الشيخوخة، أو بسبب حادث تعرض له كل ما أنجزه من تحسّن وتطور، وينتكس بالتالي إلى ما دون حالة الحيوان ذاته؟». قابلية الإنسان «للعودة إلى حالته البدائية» هي، تبعاً لروسو، المقابل لقابليته للتحسّن والتطور، وكلاهما تصوّران الحيوان الإنساني ككائن حر. فلأننا أقل خضوعاً لغريزتنا من بقية الحيوانات، لدينا الحرية في أن نصبح شيئاً آخر، أي أن نتحسن ونتطور أو ننتكس ونتراجع. ويتوقف هذا المصير، جزئياً، على اللقاءات التي سنقوم بها. «فمصيرنا» الوحيد هو الذي تمنحه لنا اللقاءات.

لا يوجد ما بين الإنسان والحيوان إلا فارق في الدرجة وليس في الطبيعة؛ فنحن لا نختلف جذرياً، وجوهراً ليس مختلفاً قطعاً. إلا أن الشقة كبيرة بحيث يبدو لنا أنها تشير إلى تعارض نوعي. ومن هنا الإغراء في أن نرى في اللقاء خاصية إنسانية نوعية.

طوال القرن العشرين، جعلت اكتشافات علماء دراسة الحيوان في بيئته الطبيعية نظرتنا إلى الحيوان تتطور: إذ أظهرت بعض الثدييات العليا أنها قادرة على تعلُّم اللغة، كما أبدت سلوكيات غريبة [تعاون ومساندة]، وقدراً من الفكاهة، وعبرت عن وعيها وخوفها من الموت، حتى أن بعضها تقوم بدفن أقربائها... وبحيث يصبح من المخاطرة تعريف الإنسان بمثابة كائن فريد من نوعه. وكما بينته إليزابيث دو فونتنيه في كتابها الرائع بعنوان صمت الحيوانات؛ الافتراض المسبق وبشكل قاطع بأن هناك خصائص تُمّت إلى الإنسان تتضمن خطراً مزدوجاً: يتمثل الخطر الأول في إنكار القرابة المذهلة ما بين الإنسان والحيوان، ويتمثل ثانيها في استثناء كل من لا يتطابقون، رجالاً كانوا أم نساءً، مع بعض تعريفات الإنساني - من قبيل المعاقين عقلياً، إذا اتخذنا الذكاء معياراً للإنساني، والبكم، إذا ما جعلنا من الكلام الخاصية المميزة للإنسان... وهكذا فالقول بأن اللقاء هو خاصية إنسانية، كما سبق أن كان يتردد سابقاً عن الوعي، أو اللغة، أو الضحك، أنها من خواص الإنسان وحده، يعني أن نكرر الخطأ ذاته، وأن نرفض المكانة الإنسانية لكل هؤلاء من الجنسين الذين ينزلون.

إلا أنه، كما تبين أيضاً إليزابيث دو فونتنيه، فإن هذا الرفض القاطع لتحديد خصائص تُمّت إلى الإنسان - بمعنى وجود فارق طبيعي حاسم ما بين الحيوانات وبيننا - لا يجب أن يؤدي بنا إلى إنكار أننا لسنا من الحيوانات. فالحيوان، تكتب قائلة، يقف على

«مسافة جد بعيدة وجد قريبة» منا. نشعر بذلك حين نكون أمام فيل، أو كلب، أو حتى غوريلا: فنحن لسنا مثلهم، رغم كل شيء. إننا نعرف ذلك، ولو لم نجد له تفسيراً. ويبقى هذا الفارق نوعاً من اللغز. إذ تتمتع الحيوانات بدرجة من الوعي، إلا أن درجة وعينا أكثر تقدماً بكثير. والحيوانات تبدي تعاطفاً أحياناً، وإنما ليس بقدر ما نبديه نحن. إنها قادرة على اللعب والضحك، ولكنها تعجز عن إنتاج مسرحيات هزلية كبرى. وكون هذا الفارق بيننا ليس جوهرياً وإنما هو في الدرجة فقط يجعله أكثر إثارة للدهشة. فمن أين يأتي ذلك؟ وكوننا ننتمي إلى العالم الحي ذاته، فلماذا إذاً تطور الإنسان العاقل (Homo sapiens) الذي يميز البشر بهذه السرعة؟

الإنسان، ذلك الحيوان غير المكتمل

تتمثل إحدى أكثر الإجابات تكراراً، المُقَدِّمة منذ القدم، في الفكرة القائلة بأننا قد نكون كائنات مولودة قبل الأوان: فنحن نولد في فترة مبكرة من النمو غير المكتمل، مما يدعو إلى الاعتماد على الجماعة الاجتماعية والاندماج فيها، ويتوقف بقاؤنا على المساعدة والمساندة التي توفرها لنا، وبالتالي تساعدنا على التقدّم بشكل أكثر فاعلية. ولأننا نولد قبل الأوان، ولأن غرائزنا لا تسعفنا ويتعين علينا تعلّم كل شيء، فإننا نتقدم في النهاية بوتيرة أسرع من الحيوانات الأخرى الخاضعة لغرائزها. ومن دون الآخرين، من المستحيل أن نعيش ونبقى.

فمنذ خروج المولود الجديد من بطن أمه إذا به يصرخ طالباً المساعدة، ومعبراً عن توقه إلى الروابط الإنسانية، معتمداً عليها في حسناتها كما في قسوتها. إنها حسنة لأنها تصنع منا كائنات قائمة على العلاقات والانفعالات. وهي قاسية لأنها تولد نقصاً يترك أحياناً أثراً لا تُمحى. تقدم هذه الأطروحة إضاءة كاشفة على قوة اللقاءات، وتتيح بشكل أفضل أن نفهم لماذا تغيرنا أكثر من بقية الحيوانات، التي تولد مكتملة النمو. فإذا لم تلبيني غريزتي، يتعين عليّ أن أتعلم كل شيء من الآخرين، أو من تجربتي الذاتية: وهكذا يصبح اللقاء مع الآخرين، ومع الواقع، أمراً مصيرياً.

الإنسان، تبعاً لأرسطو، هو كائن غير مكتمل النمو، كائن غني بالإمكانات الكامنة التي يتعين أن تتفتح، إلا أن هذه الاستعدادات تحتاج إلى أن «تتجسد» عملياً. كما يُعرف أرسطو الإنسان أيضاً باعتباره «حيواناً سياسياً». إلا أنه عند الميلاد، لا يمتلك هذا البعد السياسي إلا من حيث «الإمكان»، والذي لم يتجسد عملياً بعد. إنه قادر من حيث المبدأ أن يصبح كائناً اجتماعياً وأليفاً، ومن خلال استعمال عقله ولسانه يمكنه الإسهام في الصالح العام، ويشعر بالتعاطف مع مواطنيه. سوف تتجسد هذه الاستعدادات شريطة اللقاء مع الآخرين: الساحة العامة التي تم إنشاؤها وسط المدينة من أجل التبادل والتفاعل المدني، كانت مكرّسة منذ البدء لهذا النشاط، وكان من واجب المواطن

أن يرتادها بانتظام. وهكذا فالممارسة السياسية، والتفكير حول العيش المشترك، وتبادل الحجج، تسهم كلها في تنمية الذهن وفي تطوير اللغة واتقانها، إذ يستعمل اليونانيون القدماء تعبير لوغوس (Logos) للدلالة على كل من العقل واللغة، في آن معاً. كما أن عواطفنا، من قبيل التعاضد، تنمو كذلك من خلال هذه الممارسة. خلاصة القول، إنه في الساحة العامة يصبح المواطن كائناً إنسانياً مكتملاً، أي حيواناً سياسياً حقيقياً. حتى يمكننا القول إن الطبيعة تركت عملها غير مكتمل كي تترك للتفاعلات الاجتماعية مسألة الاهتمام باستكمالها.

اللقاء، بالنسبة لأرسطو، هو إذاً أكثر من مجرد مجاملة: إنه يشكّل شرط اكتمالنا ذاته كبشر، وتجسيد إمكانات طبيعتنا. إلا أن التقدم للقاء الآخر ليس أكثر يسراً مع ذلك: هنا أيضاً يتعيّن أن نخرج من قوقعتنا للذهاب إلى الساحة العامة وقبول السجال العام، والمجادلات المضادة، والتحديات والصراعات الممكنة. إلا أن المكافأة ستكون كبيرة: إذ من خلال تنمية عقلنا، ولغتنا، وتعاطفنا، فإن أهم جزء من كياننا هو الذي ينمو ويكبر في الإطار الاجتماعي.

في العام 1796، لخص الفيلسوف الألماني فيخته هذه النظرية كالتالي: «موجز القول، فكل الحيوانات تولد مكتملة الكيان، بينما أن الإنسان يولد في ملامحه الأولى فقط [...]». لقد أنجزت الطبيعة كل منتجاتها، إلا أنها تركت الإنسان وأوكلت

أمره لذاته»... «لذاته» وللآخرين من بني جنسه بالطبع: فبفضل اللقاء مع الآخر، فإن «الملامح الأولى» للإنسان التي رسمتها الطبيعة يمكن أن تتشكل وتتخذ صيغتها النهائية.

كان يتعين الانتظار حتى حلول القرن العشرين لإثبات فرضية ولادة الكائن الإنساني قبل الاكتمال. ففي العام 1926، وصف العالم البيولوجي الهولندي لويس بولك النوع الإنساني بأنه يتميز بهذه الولادة قبل اكتمال النمو. وسوف يؤكد علماء أنثروبولوجيا من أمثال ستيفن جاي غولد أعمال العالم الهولندي، كما أثبت علماء أجنة من مثل جافين ريلاندز دي بير أن خلايا الجنين الإنساني بحاجة إلى ثمانية عشر شهراً على الأقل لكي تصل إلى كامل نموها. وهكذا فبعد الحمل والميلاد، لا نزال نحتاج إلى تسعة أشهر للوصول إلى شكلنا المكتمل. فنحن نوع حي يتصف بالولادة قبل الأوان. وقد يعود السبب إلى وضعية الانتصاب على قدمين: فمن خلال الوقوف على قدمين، حررنا دماغنا، وحنجرتنا وبصرنا، الذي نمت على حساب حاسة الشم لدينا؛ إلا أننا عجلنا في توقيت الولادة، إذ يمارس الجنين ضغطاً أكبر على الرحم منذ أن أصبحنا ننتصب واقفين. عواقب هذا الميلاد قبل أوان النضوج هائلة. فالميلاد في حالة هشاشة بالغة ومن دون وسائل التدبر الذاتي، يلقي بنا في أذرع الآخرين. إذ نكون بحاجة إلى الحماية والتغطية والأمان. يحكم علينا قصور غريزتنا بالعجز وباستخلاص دروس هذا القصور، ويدفعنا إلى التصرف

بالمحاولة والخطأ أكثر بكثير من سوانا من الحيوانات اللبونة، وإلى التعلّم من الآخرين، سواء والدينا أو أجدادنا أو أساتذتنا، ومن دروس التاريخ، كما يدفعنا إلى التخيل. فالولادة قبل اكتمال النمو تلقي بنا في مغامرة اللقاء بطريقة خاصة جداً، أي في الحاجة والإلحاح، والانتظار لقدم الآخر وضرورة الذهاب إليه، حفاظاً على سلامتنا وخلصنا؛ حيث يتعيّن علينا اختراع الكثير للتعويض عن قصور الغريزة. إذ إن إجراء لقاءات جيدة ليست من قبيل التسلية، وإنما هي مسألة بقاء وحياة أو موت، كما أنها تشكّل شرط نمونا وتطورنا.

لو لم تكن حيوانات تولد غير مكتملة النمو وبالتالي حيوانات لها فرصة التقدم، ولو كانت غريزتنا تقودنا بوثوق محتوم، عندها لن يكون للقاءاتنا الوزن ذاته. ولو كنا ككل الحيوانات الاجتماعية الأخرى - من قبيل الذئب، والطيور المهاجرة، والنحل، والنمل - والتي تتلاقى في أعشائها وأوكارها وتعيش حياة منظمة معاً، وإنما هي محكومة بغريزتها، بحيث إن لقاءاتها لا تؤثر على طبيعتها الفردية وحتمية أدوارها ضمن الجماعة إلا قليلاً. يهاجر البجع جماعياً في رحلة الشتاء، إلا أن قوة الغريزة التي تملي عليها هذه الهجرة وتوجهها إلى الطرف الآخر من العالم تجعل من هجرتها الشتوية هذه أمراً محتوماً، حتى قبل لقاء بني جنسها التي تهاجر معها. وإذا حدث اللقاء، وقامت علاقات سفر بين أعضاء الجماعة، فإن هذه

العلاقات تبقى رهناً بهذه الهجرة وضرورتها، كما هي رهن بالتراتبية فيما بينها. كذلك هو الحال بالنسبة لبعض البطارق التي تمشي عشرات الكيلومترات على الجليد الساحلي كي تصل إلى مكان تكاثرها؛ وإذا هي أقامت ثنائيات زوجية فيما بينها، إلا أن كل منها يبقى على حاله بمثابة فرد، قبل التزاوج وبعده، وقبل اللقاء وبعده. ذلك هو الفارق الكبير بينها وبين الحيوانات غير المكتملة التي هي البشر، كما عرّفها أرسطو، وهم الجديرون بفضل الحوارات في الساحة العامة أن يحققوا كامل كيانهم بمثابة «حيوانات سياسية».

إننا نولد غير مكتملي النمو تماماً، ونُلْقَى مبكراً في الوجود، وبالتالي فإن هؤلاء الآخرين الذين نتوجه إليهم، معلقين آمالاً ورغبات كبرى عليهم، يبدوون لنا بمثابة أنصاف آلهة. ففي كل من لقاءاتنا المفصلية، نعيد لعب حقيقة شرطنا الإنساني. فكل من هذه اللقاءات يحمل دمغة ميلادنا. ولهذا فإن كل لقاء هو بمثابة ولادة جديدة.

2

أنا ألقاك، إذاً أنا موجود

قراءة وجودية

أنا نُلقي في العالم، ليس «مبكراً جداً» كما يؤكد أصحاب نظرية الولادة المبكرة، وإنما من دون «جوهر»، ومن دون تعريف ولا حقيقة مسبقة، ذلك ما يؤكد سارتر في عمله الهام بعنوان الوجودية: مذهب إنساني. فوجود الإنسان غير محدد مسبقاً بشكل كلي، وحر بشكل مطلق في آن معاً. تكمل هذه الفلسفة الوجودية المنظور الأنثروبولوجي.

يعني سارتر، من خلال تأكيده على أن «الوجود يسبق الجوهر»، بأننا نبدأ بأن نُوجد أولاً، ونصير من دون أن يُحدّد ذلك من قبل الإله وبشكل مسبق. وعلى كل حال، إذا كان «الوجود يسبق الجوهر»، فهذا يعني أن هناك جوهرًا سوف يتمثل في مجمل خياراتنا وأفعالنا السابقة لموتنا، الذي يعني «فناء كل ممكناتنا». ويكتب سارتر قائلاً: «الإنسان لا يعدو كونه مجموع أفعاله». وحيث إنه لا يوجد إله، ولأنه لا يمكن لأي كائن سماوي وسام أن يملّي علينا ما نكونه، فلا يبقى سوى آثار أفعالنا

على العالم، وعلى أنفسنا والآخرين. فنحن لا نعيش تحت عين الإله، وإنما تحت نظر كل الآخرين: ومن خلال الآخرين، وفي قلب علاقاتنا، أي ما يسميه سارتر البين-ذاتية، سوف نصبح ما نحن عليه.

يراودنا أحياناً الشعور، وخصوصاً خلال المراهقة، حين تتدفق فينا طاقات الحياة والطموحات على اختلافها، بأننا نعيش أياماً مملة، ودون توقعاتنا، وتتابع أيام تتسم بالرتابة. وإذا بالحب أو الصداقة ينبثقان فجأة ويبددان كل انطباعات الرتابة والملل. فتصبح الحياة فجأة مثيرة ونابضة. نخرج من قوقعتنا، ونوجد أخيراً في حالة من الامتلاء. يعرف سارتر الوجود الإنساني بمثابة «مشروع» (Projet) بالمعنى اللغوي للكلمة، من اللاتينية (Pro و Jacio) التي تعني الانطلاق إلى الأمام. فالوجود هو أن نكون على الدوام مدفوعين «إلى الأمام»، إلى ما يتجاوز الذات، وما يخرج عنها.

واللقاء هو ذاك الحدث الفريد، الذي يلقي بي إلى ما يتجاوز ذاتي، والذي يدعوني إلى الخروج من ذاتي كي أنخرط في المستقبل، وفي العالم، ولكي أصير، بما يتجاوز مجرد الوجود. فلقاء أحدهم يعطينا ذلك الانطباع بأننا موجودون بكثافة لأننا نجد في هذا اللقاء حركة الوجود الإنساني ذاتها، وهو ما يميزها، تبعاً لسارتر، عن حياة الحيوان. فنحن لا «نوجد» كما «يوجد» الحيوان، بل إننا نصير. ذلك هو تحديداً معنى عمل

سارتر الأكبر الذي يحمل عنوان الوجود والعدم. فالحيوانات، كالأشياء هي ما هي عليه، وتمت إلى «الوجود». إنها تكون، بينما أن الإنسان يمت إلى ما يسميه سارتر «العدم». فالعدم لا يعني أنه لا شيء؛ وإنما على العكس تماماً، إنه يمكن أن يصير أي شيء وأي كيان، إنه صيرورة. وهكذا يكتب سارتر قائلاً: «الإنسان هو ذاك الكائن الذي هو ما ليس هو عليه، وهو ما سوف يكونه ويصيره». إنه يمكن أن يصير كل ما هو ليس ما هو عليه بعد. ولا يمكن اختزاله بالتالي إلى مجرد جوهر ثابت من أي نوع كان. وهكذا فإن نُمْتُ إلى «العدم» وليس إلى «الوجود» لا يحمل أي معني سلبي؛ وإنما يعني أن الإنسان حر في أن يصير ويصنع ذاته. ولكن لكي نخبر هذه الحرية، يتعين أن نخرج من قوقعتنا، وأن ننشط ونفعل، وأن نخترع كياننا، ونعيد اختراعه، وأن لا نترك أنفسنا تُعرَّف من خلال مفهوم مختلف لكياننا أو أي «جوهر» مفترض، سواء أكان وراثياً، أو اجتماعياً، أو جنسياً... ذلك ما تدعونا إليه اللقاءات: أي أن تجعلنا ندهش من ذاتنا، وأن تدفعنا إلى تجاوز ما نحن عليه، وتتيح لنا إدراك أننا لسنا ما نعتقد أننا نكونه؛ إذ إننا أكثر حرية بكثير مما نعتقد أننا نكونه. فيذَّكرنا كل لقاء بأننا لا نكون فقط، وإنما نصير على الدوام.

فحين يَخْلُبُ عالم الآخر لُبَّنَا، ويمس الاضطراب قلب هويتنا ذاتها، وحين يثير فينا المشروع المشترك مع الآخر حماسنا المتقدم، ونشعر أنه قد أصبح لنا جناحين نحلق بهما، وتجتاحنا،

الرغبة بأن نفعل، عندها نكون بصدد صناعة وجودنا، بالمعنى الوجودي للكلمة. وهكذا فالوجود (Exister) يعني على صعيد أصل الكلمة باللاتينية (Ex-sistere) الخروج من الذات، والارتفاع والولادة من جديد. الوجود هو أن نخرج من حيث نحن عليه، أن نكون خارج ذاتنا، منطلقين إلى الأمام، ونحو الآخر.

وهكذا نفهم بشكل أفضل اضطراب سيلفيا في مسرحية لعبة الحب والصدفة، حين تقع في حب ذلك الذي اعتقدت أنه خادم: إذ لا تبالي مشاعرهما في كونه خادماً، وتجد ذاتها وقد انتزعت من مكانتها الاجتماعية، إنها تخرج من هذه المكانة، وتشعر أنها موجودة بكثافة.

كما نفهم بشكل أفضل الدوار الذي ألمّ بأديل في ذلك المشهد من فيلم كشيخ، حين تصادف إيما في وسط الشارع. إنها تشعر بالوجود بشكل كثيف؛ إنها تُختطف خارجاً عن ذاتها، وخارجاً عن هويتها الجنسية.

سيلفيا وأديل توجدان أخيراً: إنهما تخرجان من ذاتهما، وفي هذه الحركة التي تحملهما إلى ما يتجاوز ذاتهما، وفي قلب هذا الخفقان، تصلان إلى تلك الكثافة التي تشكل علامة الحياة التي تعاش بكل زخمها.

وإذا كانت اللقاءات تتيح لنا إعادة اختراع ذاتنا كلياً،

والاستلاء على حريتنا في أن نصبح كيانات أخرى، فذلك لأنه ليس لنا جوهر ثابت: إذ إننا لسنا مجرد تجسيد لحقيقة جامدة تحدّدنا بشكل نهائي، وليس هناك من مخطّط مسبق يتحكّم بتحقيق ذاتنا، وليس هناك قالب محدّد يشكّلنا مسبقاً. وذلك لأن وجودنا يسبق جوهرنا، بمعنى أن وجودنا هو ما نصنعه ونصيره.

تلك قراءة وجودية للقاء من وجهة نظر سارتر، تدعونا إلى أن نتحرّر من كل السجون التي تسجن هويتنا، حتى ولو كانت سجون مُذهّبة. هناك نوع من الدعة في الاكتفاء بما نحن عليه. والحرية تتطلب منا التخلي عن هذه الدعة. ربما ذلك ما أراد رينيه شار قوله من خلال هذه الكلمات فائقة الشاعرية: «يتعيّن أن نستقر خارج ذاتنا»، على حافة الدموع وفي مدار الفاقة، إذا أردنا أن يحدث شيء خارج عن المألوف، والمخصص لنا وحدنا حصراً. «أن نستقر خارج ذاتنا»...؟ قد يبدو ذلك متناقضاً، ومستحيلاً. إلا إذا تبّينا منظور سارتر. إننا من خلال الخروج من قوقعتنا الذاتية، يتعيّن تحديداً أن «نستقر» في حريتنا، في حقيقتنا الإنسانية الفعلية، وفي حركة دائمة من إبداع ذاتنا. إننا بصدد أن نجد أنفسنا من خلال الآخر، وبفضل اللقاء معه.

ويستكمل آلان ذلك من خلال القول: «أن نكون، يعني أن نعتمد على الآخرين»، مديناً بذلك الفلسفة الفردانية. نعتمد على الآخرين لأننا نولد قبل اكتمال نموّنا، ونعتمد على الآخرين لأنه

ليس لنا جوهر محدد سلفاً، ونحن مجبرون على اختراع أنفسنا من خلال العلاقات بين-الذاتية، وفي صلب لقاءاتنا، وعلاقاتنا. وهكذا يصبح من الأصح القول: الوجود هو الاعتماد على الآخرين، بل «حب هكذا اعتماد»...؛ ومُعَانَقَة من دون حدود حياة «خارج ذاتنا». ذلك هو الدرس الجميل الذي تعلّمنا إياه اللقاء، وهو درس الحب في آن معاً: فحقيقتنا ليست في ذاتنا الفردية، وإنما هي فيما بيننا.

3

لقاء السر الخفي

قراءة دينية

كذلك فإن الوجود، بالنسبة لكيركغارد، هو خروج من الذات، ليس من أجل كسب الحرية الذاتية، وإنما من أجل التوجه إلى الإله.

تعارض هنا رؤيتان للوجودية: الأولى ملحدة، مع سارتر، والأخرى مسيحية، مع كيركغارد الذي غالباً ما قُدِّمَ باعتباره «أب الوجودية». تُلقِي هذه المقاربة الدينية الضوء على بعد جوهرى لكل لقاء حقيقى، لم تأخذها المقاربة الأنثروبولوجية أو الوجودية السارترية بالحسبان: أي أن اللقاء مع الآخر هو في المقام الأول لقاء مع سره الخفى.

بالنسبة للمؤمن، ليس الإله كائناً يمكن اللقاء معه بنفس طريقة اللقاء مع الآخرين، بل هو يتطلَّب فعل إيمان حقيقى؛ فاللقاء مع الإله هو ذلك اللقاء مع سره الخفى. إذ إن التجربة المباشرة مع الإله مستحيلة. فأن تكون مؤمناً، يعنى بالتالى أن تشعر بوجود هو فى الآن عينه غياب [أي غير مجسّد أمامك]؛ إنه

ذلك الشعور الخالص بحضوره من دون التمكن أبداً من رؤيته أو ملامسته. يرى المؤمن الآخرين والعالم بطريقة فريدة، بمثابة كائنات يتجلى خالقها من خلالها ويحورها. إنها نقطة انطلاق جيدة للقاء الآخر، من دون تحيزات أو أحكام مسبقة، وإنما من خلال قبول سره الخفي.

يجد المؤمن في كل لقاء حبه للإله، وكل من هذه اللقاءات تكلمه عن الإله. يُعبّر هذا اللقاء عن شطر من معجزة هذا الكائن الذي من دونه لا يوجد شيء، والذي من خلال خلقه وحبه، جعل اللقاء مع الآخر ممكناً. يتعرّف المؤمن، في الآخر، على مخلوق من مخلوقات الإله، والحب الذي يكتنه له أو يتلقاه منه، وكذلك فإن نوعية رباط الصداقة أو الثقة التي ينسجها فيما بينهما، تصبح إشارات دالة على الحب الإلهي.

يمكن إدراك الوجود الأكثر زخماً وعمقاً، تبعاً لكيركغارد، في ذلك القرار الحر المتمثل بالإيمان، تلك «القفزة المتجاوزة للعقل» والتي من خلالها «يستقر المؤمن خارج ذاته»، أي أنه يستقر في الإله وفي ملكوته. يندرج ذلك ضمن قرار لاعقلاني، بعيد عن مجرد خيار عاقل. فمن خلال الانخراط في الإيمان، أنا ألقى بنفسي في ملكوت الإله، كما يقول هذا الفيلسوف الدنماركي؛ وأقفز في المجهول. ومن خلال هذه الحركة المتحررة من كل تحفظ أو حيطة، أحقق وجوداً مليئاً، وأصبح ذاتي. إننا نتفهم كل ما يدين به سارتر لكيركغارد، حتى ولو أسبغ

على فلسفته الوجودية صبغة ملحدة، مستبدلاً الإله بالآخرين .
يتطلب الوجود الفعلي، بالنسبة للوجوديين، الملحدين منهم
كما المسيحيين، قفزة في المجهول، وذلك الانفتاح الجذري
على الآخر - أكان إنساناً أم إلهاً .

يكتب مارتن بوبر في عمله بعنوان أنا وأنت قائلاً: «لأنه
يوجد أنت، تجد الأنا معناها، وتعيش حياتها الحقّة». يبقى هذا
الفيلسوف المولود في النمسا في العام 1878 شبه مجهول رغم
التأثير الكبير الذي مارسه على فلسفة القرن العشرين، وخصوصاً
على كل الفكر الذي يقول بالغيرية، والذي طوّره كل من
هوسرل، وليفيانس، وسارتر، ولاكان.

فبالنسبة لبوبر، لأنه يوجد هذا الآخر الكبير، أي الإله،
تصبح الصلة بالآخر مُكوّنة لإنسانيتنا، ولحقيقتنا الإنسانية، بهذا
القدر. فأنا أوجد كلياً في تعبير «الأنت» هذا، أكان موجهاً إلى
الإله أو إلى فرد آخر. أدرك نفسي بمثابة شخص منذ اللحظة
التي أخاطب فيها الآخر. وهكذا فإن «أنا أفكر، إذاً أنا موجود»
التي قال بها ديكارت، تصبح: أنا أتوجّه إليك، إذاً أنا موجود.
فأنت تسألني، وتجذب اهتمامي، وتمسني، إذاً أنا موجود. فأنا
بحاجة إلى هذه العلاقة معك كي أعرف تماماً من أنا، وماذا
أعيش. وعندما أنفتح هكذا عليك، وعلى هذا كحوار معك، فإن
هذا الفعل يجعلك تبرز بكل حضورك ويجعلني في الآن عينه أعني
أنني شخص.

لا يمكننا فهم أطروحة مارتن بوبر هذه دون أن نَعْرِفَ أحد المفاهيم الذي يقع في قلب فكره. أي «الماهية الروحية». لا تحليل الماهية بالنسبة إليه إلى جوهر يشكّل لب كياننا. هذه «الماهية الروحية» موجودة فينا بالطبع، إلا أنها خارجة عنا في الآن عينه؛ إنها «تلك الحركة ذاتها التي تحملنا خارجاً عن ذواتنا»، بمثابة قوة أو اندفاع تدفعنا نحو الآخرين. إنها إذاً لا تشبه الجوهر بقدر ما تشبه ما سوف يسميه سارتر... الوجود.

يقول مؤلف أنا وأنت أننا نعبر عن هذه «الماهية الروحية» حين «نتوجه إلى» الآخرين. إلا أنه يتعيّن لفهمها إعادة الاستماع ثانية للمعنى الأول لذلك التعبير: فالتوجه نحوك هو إجراء نشط ينتزعنا أنت وأنا في الآن عينه من حالة اللامبالاة، واللاتحديد. فالتوجه نحوك هو بمثابة وسيلة لأن أوجد ولأجعلك توجد بدورك. تتيح لنا لقاءاتنا، ومن خلال التوجه إلى الآخرين، أن نوجد في أقصى حالات الوجود بواسطة الوعي المشترك الذي يكونه أحدنا عن الآخر.

نرى هنا أن فلسفة ليفيناس الأخلاقية تدين لمارتن بوبر: أن أشعر أنني مسؤول عن الآخر، ذلك الآخر الذي لا أعرفه، والذي لا يمت إلى عائلتي، يعني أن أتوجه، بكل إنسانيتي، وكل قلبي، وكل روحي، إلى وجهه. لا تعرف الحيوانات ذلك، أو ليس إلى هذا الحد على كل حال. أستطيع أن أتوجه إليك بكل حرية وبكل بساطة وبحب عميق، لأن الله أطل يوماً كي يخلقنا.

ينطبق تعريف «الماهية الروحية» هذا على الإله أيضاً، إذ إنه عَبَّرَ عن ذلك من خلال خلقنا إلى الوجود.

يؤكد بوبر قائلاً: «في البدء هناك العلاقة». وهي طريقة تجعلنا نفهم بشكل مختلف الصيغة الإنجيلية القائلة «في البدء كان الكلمة». فلإن الكلمة تتوجه دوماً إلى آخر، ولأننا نكلم دوماً شخصاً آخر، تطرح هذه الآية من الإنجيل للقديس جان أولى العلاقات كلها. وهكذا لا تظهر هذه «الحياة الحقة» التي قال بها بوبر إلا بالعلاقة، والتي يجعلها اللقاء ممكنة: أشعر بها تخفق في قلبي حين أتوجه إلى ما ليس أنا - أي الإله، وكذلك الطبيعة أو الناس الآخرين.

نستطيع أن نحس أيضاً بالنسبة لبوبر، في قلب اللقاء مع رجل أو امرأة، بالرغبة في لقاء الإله، «الأنث الأزلية». فمن خلال التواصل الحميم مع الآخر، نكتشف أننا مرتبطون وقادرون على الحب، والفضول، والاهتمام، والمسؤولية - وكلها عبارة عن حركات انفتاح - نعبر عندها عن «ماهيتنا الروحية». وذلك هو السبيل المثالي للقاء مع الإله.

يلخص غاستون باشلار هذه الأطروحة في تقديمه لكتاب أنا وأنت قائلاً: «ماهيتنا الروحية لا تكون في ذاتنا إلا إذا أمكنها أن تذهب إلى خارجنا. يتعيّن عليها أن تقدّم ذاتها إلى شخص آخر، وأن تخاطب أنت». حتى ولو لم نكن مؤمنين، فإننا نشعر أن هذه «الماهية الروحية» تختلج فينا.

وهكذا يتجلى لنا الفهم المزدوج لكلمة «معنى» في تأكيد مارتن بوبر القائل: «لأنه يوجد أنت، تجد الأنا معناها، وتعيش حياتها الحققة». المعنى هنا بمثابة دلالة، ولكن أيضاً بمثابة اتجاه. فمن خلال مخاطبتي لك «أنت»، ومن خلال مخاطبتك، سأوجد أنا من خلال الذهاب في اتجاهك، أنت الرجل أو أنت الإله.

يقدم الإيمان في إله خالق إطاراً مثالياً للتفكير بقوة اللقاء: إذ من المستحيل، إذا رجع فضل وجودنا إلى آخر كبير (إله)، أن نستمر في تعريف أنفسنا انطلاقاً من الأنا الذاتية، واستقلالنا. هذه الدعوة إلى التواضع هي أيضاً دعوة إلى اللقاء: فمنذ اللحظة الأولى، يشكّل الآخر شرط كينونتنا. إذ غالباً ما تفاجئنا لقاءاتنا بآثارها على حياتنا... إلا أن سر هذا الانقلاب الذي يولّده الآخر فينا يصبح بديهياً عندما نعتقد عن قناعة جوانية أننا لسنا أحياء إلا بإرادة آخر كبير (إله).

«الحياة الحققة لقاء». بذلك نستوعب بشكل أفضل تأكيد مارتن بوبر. وإذا كانت طبيعتنا الأكثر عمقاً، والأكثر روحانية تتجلى حين نتوجه إلى من ليس نحن، عندها يصبح اللقاء هو شرط وجودنا الحقيقي. إنه الإشارة إلى أننا وُجدنا بالمعنى الأكثر قوة، وأننا أيقظنا «ماهيتنا الروحية» أو أعدنا إيقاظها من جديد. يصدق ذلك سواء أ كنا مؤمنين، أو عقلايين، أو ملحدين.

4

لقاء الرغبة الذاتية

قراءة تحليلية نفسية

ويُطرح سؤال إضافي: ما الذي يجعلنا نتغير إلى هذا الحد أثناء لقاء حقيقي؟ من خلال إثباته على وجود هذه الطاقة الحيوية المسماة «ليدو»، الجاهزة دوماً إلى التثبيت على موضوعات جديدة، يقدم فرويد تفسيراً غير مسبوق لقوة التحول هذه، والخاصة بالإنسان.

سبق لأفلاطون أن أشار في عمله بعنوان المأدبة إلى موضوع لاواعٍ لرغبتنا أي الألفية. كما أشار ليبنتز، في عمله بعنوان أبحاث جديدة في الفهم الإنساني إلى «ملاح إدراكية لاواعية». وأما نيتشه، فسوف يقول على لسان زرادشت، وذلك قبل عدة سنوات من أوائل كتابات فرويد، أن جل النشاط النفسي لاواعٍ. وهكذا فإن اكتشاف فرويد الحقيقي لا يتمثل باللاوعي، وإنما باكتشافه لللاوعي النشط - الذي حدس به نيتشه بدوره. يعطي فرويد لهذه الطاقة النفسية اللاواعية اسم ليدو. وهي تنتج، تبعاً لفرضيته، من خلال كبت نزواتنا اللااجتماعية، سواء الجنسية

منها أو العدوانية. يحدث هذا الكبت أساساً خلال سنوات طفولتنا الأولى، ولكنه يستمر طوال حياتنا، خلال اجتيافنا وتمثلنا للممنوعات التي تفرضها حضارتنا. وكون هذه النزوات قد كُبتت - تعرضت للرقابة، كما يذكر فرويد - لا يعني أبداً أنها زالت، وإنما هو يعني أننا لا نعود نسمح لأنفسنا بأن نعيها [ندعها تصبح واعية]. إنها تظل دائمة الحضور، على شكل طاقة تبحث عن التعبير عن ذاتها، وإنما تظل محجورة، وكأنها سجين في طنجرة ضغط: وهي لا تتوقف عن المطالبة بحقها في البروز. فالليبدو يظل فاعلاً فينا ويشغلنا منذ أن أصبحنا أشخاصاً متحضرين وتخيلنا عن شطر هام من عدوانيتنا الطبيعية.

عندما نلتقي أحداً ما، يمكن للليبدو الخاص بنا أن يتجلى بطرق متعددة، إما مباشرة، على شكل رغبة جنسية، أو بطريقة غير مباشرة، على شكل اهتمام شخصي، أو فضول، أو على شكل اندفاعات حب ممثلة. يتكلم فرويد، في هذه الحالة الأخيرة عن التسامي.

يتمثل تسامي الليبدو في توفير إرضاء غير جنسي لنزوات جنسية مكبوتة، أو إرضاء غير عدواني لنزوات عدوانية مكبوتة. كما يمكننا تسامي طاقتنا اللبديدية في الإبداع الفني، أو التذوق الجمالي، أو حتى في الاستثمار الفكري، كما يمكننا التعبير الشديد عنها في بعض المشاعر السامية تجاه بعض الناس: من قبيل الحب الجنوني الذي جمع جورج ساند وألفرد دي موسيه،

أو الصداقة «السامية» على غرار تلك التي ربطت بين بيكاسو وإيلوار، أو حتى التفاني تجاه الآخر، أو الاندفاع الروحية نحوه، وكذلك الفضول الولهان تجاه عالمه...

يفسّر هكذا تسام في الآن عينه كلاً من الافتنان الذي نشعر به تجاه الآخر - والمشاعر الأكثر ارتقاءً التي يمكن أن ترافقه - والتحوّل الداخلي الذي نخبره من خلال الاحتكاك به. فالليبدو هو قوة تحوّل. فباعتباره نتاج الكبت وتحوّلنا إلى كائنات حضارية، فإنه ينتظر العثور على موضوعات يمكن أن يتثبت عليها، ويستثمر فيها طاقته. وعندها يُولّد هذه التغيرات فينا.

توضح الفرضية الفرويدية تلك التحولات النشطة الناتجة عن لقاءاتنا: إذ حين ننمي مواهباً من خلال احتكاكنا بالآخرين، وحين نفتتح على رؤى جديدة للعالم، ونصبح أكثر روحانية أو رومانسية، وأكثر حضوراً أو التزاماً، يعود الفضل في ذلك إلى طاقة الليبدو المتسامية الخاصة بنا. وهنا تتكشف «حياتنا الحقة» كحيوانات متحضرة: ليس من خلال نزواتنا، وإنما من خلال طريقة تسامينا لها.

وإذا كانت قوة الليبدو تدفعنا نحو الآخرين، مع خطر تحويلهم أحياناً إلى مجرد موضوعات لإشباع نزواتنا، فإن التسامي يتيح لنا إعادة اختراع ذاتنا من خلال الصلة معهم، وكتابة تاريخ جديد سويّاً، وباختصار تتيح لنا اللقاء معهم حقاً.

«كن ذاتك، فالآخرون غير متوفرين»

ومن ناحية أخرى، سلّط فرويد الضوء على ظاهرة حاسمة أخرى في العلاقة مع الآخر: أي ظاهرة التماهي. إذ كي نصبح نحن ذاتنا، نحن بحاجة إلى التماهي بشخصيات بارزة متتالية غيرنا.

يكتب فرويد قائلاً أن الطفل الصغير «يتماهى» أولاً مع أمه: إذ يظل لصيقاً بها، على صدرها وثدييها، ويعتبر ذاته أنه هي ويمتزج كيانه بكيانها. التماهي يتجاوز مجرد المحاكاة: إنه يقارب حالة الذوبان، وإنما المؤقت. إذ تأتي فعلاً اللحظة الحاسمة حيث يتميز الطفل عن أمه، و«يقلع» عنها، كي يتماهى بشخص آخر، كالأب على سبيل المثال. وخلال توالي اللقاءات، يمحو كل تماهٍ مع شخص جديد ما سبقه. وهكذا يمكن أن يتتالي كل من الأخت الكبرى أو الأخ الأكبر، والصديق المفضل، والأستاذ المحبب، وسواهم من الأشخاص المرجعيين... وتحدث نفس الصميمة مع كل تماهٍ بشخص جديد وإنما بشكل لاواعٍ: إذ يعتبر الطفل ذاته أنه هو الشخص الذي يتماهى معه، ويصبح وكأنه هو، قبل أن يدرك أنه ليس هو ذاك الشخص. وكلما تكررت هذه التماهيات وتحوله من شخص إلى آخر، يصبح هو نفسه بشكل متزايد. وهكذا فالأنا تنبني بمثابة فرادة وحيدة من خلال لعبة هذه التماهيات المتتالية والقطيعة المتتالية معها، وتدرجياً يتكون كذات لها كيانها الخاص. ويستنتج فرويد قائلاً أن «التماهي هو شكل هام جداً في الرباط

مع الآخر، وقد يكون الشكل الأكثر أصالة»، وذلك في عمله بعنوان محاضرات تمهيدية جديدة في التحليل النفسي.

إذ من دون لقاء الآخرين، يستحيل أن نصبح نحن ذاتنا: تتجلى هذه الفكرة بوجه جديد على ضوء مفهوم التماهي الفرويدي. إذ كي أصبح ذاتي، يتعين قبلاً أن أعتبر نفسي شخصاً آخر، وقبل أن أفهم أنني ليس هو. فأنا ألتقي في آن معاً الآخر (الذي أتماهى به) وذاتي (حين أفهم أنني لست هو). حين تماهى سيروولنيك بإميل، حبيب عمته دورا، ظنّ لبعض الوقت أنه إميل. ففي لاوعيه، وفي قلب هذا التماهي، أصبح إميل. إذ إنه تبنى اهتمامات إميل ذاتها (العلوم، ورياضة الروغبي...) وأسقط ذاته عليها، حيث أصبحت هي ذاتها طموحاته الشخصية. ولكن مع تقدمه في السن، ومن خلال متابعة سلسلة من التماهيات وخصوصاً برفاق صفه، أصبح بوريس بحد ذاته. أخذ يلعب الروغبي، وإنما بمهاراته الخاصة، وبدور في الفريق يختلف عن دور إميل. واتخذ المنحى العلمي في عمله، وإنما في اختصاص آخر، وهو الطب العقلي. لقد أصبح هو ذاته لأنه كان من المستحيل عليه أن يكون إميل.

نعرف تماماً قول أوسكار وايلد المعروف: «كن ذاتك، فالآخرون غير متوفرين». إلا أن فرويد يبين لنا، أنه حتى يكون المرء هو ذاته، لا ضرر من أن يعتبر نفسه شخصاً آخر لبعض الوقت.

يُميّز مارتن بوبر في عمله أنا وأنت ما بين «الفرد» و«الشخص». يطلق تسمية «الفرد» على ذلك الجزء من ذاتنا المستقل عن علاقاتنا مع الآخرين (فنحن نولد «أفراداً»)، وأما «الشخص» فإنه تلك الذات التي تنبني في العلاقة مع الآخرين، وتعبّر بالتالي عن «ماهيته الروحية». وبالتالي، «فالأفراد» الذين هم نحن عند ميلادنا يحتاجون للتوجه إلى الآخرين، والارتباط معهم على صعيد عواطفهم واهتماماتهم، كي يصبحوا «أشخاصاً». نشر بوبر كتابه أنا وأنت في العام 1923. وفي العام ذاته نشر فرويد كتابة بعنوان الأنا والهو. كانا يعيشان كلاهما في فيينا وكانا حتى جيراناً. وعلى الرغم من الاختلاف في وجهات نظرهما الذي عبرا عنه في مراسلاتهما - إذ إن بوبر كان مؤمناً بينما أن فرويد كان يُعرّف الدين بمثابة «عصاب وسواسي كوني» - تلاقى هذان المفكران بشكل ملفت للنظر حول مسألة العلاقة مع الآخر. إذ بالنسبة لبوبر المتصوف، كما بالنسبة لفرويد المحلل النفسي، يقع اللقاء مع الآخرين في قلب المغامرة الإنسانية.

يمكننا، بفضل أعمال فرويد، فهم هذا الانجذاب الغريب الذي نشعر به أحياناً تجاه بعض الأشخاص، وخصوصاً من خلال ما تقيمه لقاءاتنا من صلة مع طفولتنا، وحتى مع طفولتنا المبكرة.

كتب ديكارت بتاريخ 6 يونيو من العام 1647 رسالة إلى

شانو يقول فيها ما يلي: «عندما كنت طفلاً، كنت أحب بنتاً من نفس عمري، تعاني من شيء من الحَوْل؛ وبهذه الطريقة، فإن الانطباع الذي ترسّخ في دماغي عندما كنت أنظر إلى عينيها المصابتين بالحول، ارتبطت بشدة بالانطباع الذي كان يحدث كي يشير فيّ وله الحب، بحيث أنني بعد مرور سنين طويلة، كنت أشعر بالميل إلى حب الأشخاص المصابين بالحول أكثر من الآخرين، لمجرد أنهم كانوا يعانون من الحول؛ ولم أكن أعرف أن ذلك كان هو السبب».

كلنا متأثرون بلقاءاتنا الأولى. إنها تنطبع في نفوسنا بشكل دائم وتؤثر على لقاءاتنا اللاحقة. حساسيتنا تجاه الآخرين لها تاريخ تكون فيه البدايات حاسمة. يشرح فرويد قائلاً إننا نعيد في حياتنا الراشدة، لعب سيناريوهات وانفعالات طفولتنا، وإنما مزاحة على أشخاص آخرين. إننا ننجذب إلى ما يشبه عالم سنواتنا الأولى، المتصفة بالألفة والارتياح، وبشكل لاواع، تماماً كما لاحظ ديكارت بصدد تعلقه في طفولته بالبنت التي تعاني من الحول حين يقول: «ولم أكن أعرف أن ذلك كان هو السبب».

حين نكون أطفالاً، تثبت طاقة الليبدو على أشخاص بيئتنا المحيطة: قد يكون ذلك وجه تلك البنت في حالة ديكارت، وقد تكون الأشياء المتحركة المعلقة فوق سرير طفولتنا، أو قماش ستارة في غرفتنا، أو استدارة ثدي أمنا... وهو ما يمكن أن

يشرح انجذابنا، في سن الرشد، لبعض الأشكال تحديداً، أو لبعض أنماط الجمال أو حتى بعض أعضاء الجسم التي أصبحت تشكل وسواس إثارة شبقية. إننا نحاول إقامة الصلة من جديد مع خفقاتنا الانفعالية الأولى، أي تلك الأشياء التي تثبتت عليها الليدو الخاص بنا.

كما توضح أطروحة عقدة أوديب هذه الآثار القوية لخبرات سنواتنا الأولى. إذ نحن ننجذب، تبعاً لفرويد، إلى الوالد من الجنس المقابل وندخل في تنافس مع الوالد من نفس الجنس، والذي نتمنى موته رمزياً وعلى الصعيد اللاواعي، كي يمكننا التمتع بالحب الحصري مع الأول. وتُحل عقدة أوديب هذه عندما نقبل، بشكل لاواعٍ كذلك، «باقتسام» حب الوالد من الجنس المقابل: إذ يمكنه أن يغمرنا عاطفياً مع محبته لوالدنا الآخر، بطريقة مختلفة. وفي لقاءاتنا في سن الرشد، كما في حالات ولها الغرامي، أو حتى الصداقة، نجد أنفسنا، ومن دون أن ندري، في هذه الوضعية الأوديبية وقد نتعرض لأن يجتاحنا عنف انفعالاتنا. ولقد أخذَ على فرويد، عن حق، كونه أراد أن يجعل من عقدة أوديب حقيقة كونية للشرط الإنساني، في حين أن هذه العقدة ليس لها أي صدى في بعض الثقافات حيث لا تتشكل الأسرة حول شخصي الأب والأم. إلا أن فرويد يبقى رغم ذلك، رائداً في صياغته النظرية لما عايشه العديد من الكتاب والمفكرين، من أمثال ديكارت: إذ تحمل لقاءاتنا الأولى آثار

البدايات التي قد لا نحتفظ بذكرى واعية عنها. ومن هنا ذلك الإحساس بالغربة، وبالتلاقي الغامض مع شيء مألوف مسبقاً، والإحساس بعدم الفهم الذي يصاحبه أحياناً.

كما حَدَسَ فرويد كذلك بالعنف الذي يصيب الطفل المنفصل عن أمه، كما أثبتته الأعمال اللاحقة لكل من ميلاني كلاين ولاكان. يعيش الطفل النهاية العنيفة لهذا الذوبان الأولي مع الأم الذي يتطابق، تبعاً للاكان، مع دخول الطفل في عالم اللغة، بمثابة انتزاع قاسٍ. تخلق هذه الحالة إحساساً بالنقص لا يمكن ملؤه أبداً، ويطلق بحثاً دائماً عن موضوع رغبة يُمكنه أن يحمل له الإشباع. يسمي جاك لاكان ذلك الموضوع الهوامي الذي لا يُطال، والمخصص لملء ذلك النقص فينا الشبيه بالدمغة التي يتركها الانفصال، يسميه بـ «الموضوع a الصغير» (Objet petit a). ومن خلال هذه الفرضية، يجعل منا لاكان كائنات مدفوعة بالرغبة، ومربوطة بحاجةٍ لحب مستحيل الإشباع، ولكنه يجعل منا كذلك كائنات فضولية، مبدعة، متوجهة نحو الآخرين ونحو العالم، ونحو كل اللقاءات التي يمكن للحياة أن توفرها. يحدث لنا أحياناً، حين الوقوع في الحب على سبيل المثال، أن يتكوّن لدينا الانطباع بأننا نعيد الصلة مع ذلك الذوبان الأصلي؛ مما لا يمكننا أن نمنع أنفسنا عن الاعتقاد فيه. ومع ذلك، يتعيّن علينا أن نقر بأنه ليس هكذا يُحب الإنسان الراشد، أو يُحب. ومع أن لقاءاتنا مصطبغة بهذا البحث الدائب عن «موضوع a الصغير»، إلا

أن واقع عدم وجوده يمثل خبراً ساراً؛ إذ إن غيابه هذا يجعل حياتنا مثيرة، ويجعل تعطينا للآخر غير قابل للارتواء.

يمكن تلخيص فرضية فرويد في الصيغة التالية: نحن أبناء طفولتنا وطفولة والدينا. وهكذا يمكننا وراثته صمائم نفسية آتية من ماضينا الأسري، وهي صمائم قد تتكرر أحياناً على مدى عدة أجيال. تتأثر طريقة معاشتنا للقاءاتنا بهذا الماضي بشدة، أي بقاءاتنا مع والدينا عند الميلاد، وحتى إلى ما يتجاوزها، وصولاً إلى الأحداث التي عاشها أجدادنا، والتي تشكل موروثنا النفسي الداخلي. فقد لا يفهم رجل ما، على سبيل المثال، لماذا يخون باستمرار النساء اللواتي يقع في غرامهن، وبحيث يخسرن بسبب هذه الخيانة. قد يأتي هذا السلوك «الفطري» من علاقات جدّه، الذي قد لا يعرفه إلا بالكاد، بالنساء... غالباً ما تفلت منا دلالة وآثار لقاءاتنا لأنها تعود إلى موروث لاواع. تلك هي كذلك، «الحياة الحقة» للحيوان الإنساني: حياة فردية، لكنها محكومة بتاريخ أسري، وبسلالة وراثية.

ويذهب لاكان إلى أبعد من ذلك، لدرجة أنه يجعل من طموحاتنا الخاصة، ومن رغبتنا الحقيقية، من «قضيتنا» حسب تعبيره، ميراث ماضينا، حيث يُفرض علينا تاريخ أسرتنا بقوة القدر المحتوم. وهكذا فإن رغبتنا العميقة - من قبيل التطلع إلى النجاح المهني، أو الحصول على الاعتراف بمكانة جيدة، أو

تحقيق نجاح فني... - لا تتوقف عندها على لقاءاتي وعلى إرادتي الواعية، بقدر ما تتوقف على كل ما جرى في ماضي، وفي طفولتي المبكرة، وحتى قبل ميلادي. فنحن نقع في شباك قدر عائلي يحددنا بقوة بحيث أن أكثر لقاءاتنا تميزاً لن تتمكن من تحويل مسارنا عنه. جلّ ما يمكن أن تقدمه هذه اللقاءات يتمثل في فرصة تقربنا من هذه الرغبة، ومن الاستماع إلى رغبة موجودة سلفاً، والتي غرسها ماضينا العائلي في لحمنا - أو بالأحرى في لاوعينا. وهكذا فخلال المرور بقصة حب، لن يكون للقاء فرادة الآخر من وزن في مواجهة تكرار صميمة علائقية آتية من الماضي، ومحمّلة بتاريخ أسري كامل. فإذا ورث كل منا رغبته بمثابة قدر محتوم، وإذا كان كل منا محكوماً بلاوعيه إلى هذا الحد، عندها يكون اللقاء مستحيلاً.

يمكننا الرد بأن قراءة من هذا القبيل لأعمال فرويد تبدو مبالغاً فيها: لقد تبين لنا أن لقاءاتنا تحولنا، وأن بإمكانها أن تولّد لدينا رغبات جديدة. فماضيها يؤثر بالطبع فينا، إلا أنه لا يحددنا بشكل جامد. فمعرفة ماضيها، وتاريخ أسرتنا، وتحليل الكيفية التي يؤثر علينا بها هذا «القدر» المفترض، يمكن في الحقيقة أن ييسر لقاءاتنا، ويتيح لنا العيش بطريقة أكثر وضوحاً، وبالتالي أكثر حرية. يشكل تحليل وفهم تأثيرنا الشرطي هذا الخطوة الأولى نحو التحرر الذاتي. فلنعد ثانية لمثال ذلك الرجل الذي يخون نساءه والذي يكرر دون أن يدري، الصميمة العائلية الموروثة عن جده. فإذا هو اكتشف من خلال عمل تحليلي نفسي

عملية التكرار اللاواعية التي يقع ضحية لها، وإذا أدرك إلى أي حد هو رهينة هذا الماضي الذي يعاود الانبثاق في نزواته الخاصة، ويحدد أعراضه المرضية، وإذا تمكن من تفكيك خيوط تاريخه، سوف يكون بإمكانه الخلاص منه، والانطلاق في عملية تغيير. فقد يكتشف عندها أن رغبته الحقيقية تتمثل في الحب الوفي - أو على عكس ذلك في تعدد حالات الحب، أو في الارتباط الحر. وعندها ستكتسب علاقاته الغرامية مقداراً من النوعية والصدق، لأنه أصبح أكثر وعياً لما يعتمل في أعماق نفسه.

يتمثل أحد أفضل التحليل النفسي في أنه يذكرنا بأننا لسنا وحيدين في مواجهة رغباتنا. فما بيني وبين رغبتني، يوجد الآخرون: أي كل أسلافي في السلالة العائلية وكل أولئك الذين سوف أتماهى معهم. فرغبتني تركز في البداية على المحاكاة. فأنا أرغب ما يريده الآخرون، قبل أن أتبين أن رغبتني مغايرة لذلك وبالتالي أقترب شيئاً فشيئاً مما يهمني، أي من تطلعاتي الشخصية. تتيح معرفة الذات أن نعي ما يشغل خلال اللقاءات، وبالتالي تتيح في أن نعيشها بكامل مداها، منفتحة على المستقبل، ومتحررة من الماضي. غالباً ما يتم انتقاد التحليل النفسي بأنه يركز بشكل مفرط على الماضي. إلا أنه يتعين علينا قلب الصفحة والانطلاق إلى الأمام، كما يكرر معارضوه المنافسون. ولكن كيف يمكن التوجه إلى المستقبل إذا لم نعرف

من أين أتينا؟ تستدعيننا لقاءاتنا الكبرى بشكل مزدوج: فهي
تجرفنا مع كل ماضينا، وتستعيده بشكل لاواع غالباً، ثم تعود
فتدفعنا نحو المستقبل. وتقدم لنا الفرصة لفهم أفضل لرغبتنا،
وطبيعتها المعقدة دوماً. فهي نتاج جزئي لماضينا من ناحية،
وننتاج جزئي للقاءاتنا من ناحية أخرى. فهي ميراث إلا أنها أيضاً
تأسيس. فكل لقاء حقيقي هو لقاء مع رغبتنا.

5

لقاء الآخر كي نلتقي مع ذاتنا

قراءة جدلية

يمثل اللقاء، بمثابة قوة تغيير، فكرة جميلة دافعنا عنها مع كل من أرسطو، وسارتر، وبوبر، وفرويد. إلا أنه يتعين مع ذلك وضعها موضع النقد: إذا كنت أرى في الآخر وسيلة لتقديمي الشخصي، ألا أكون عندها بصدد تحويله إلى أداة في خدمة قابليتي للتحسن والإتقان؟ ألا أكون بصدد استيعابه، وجلب الخير لذاتي من خلال العلاقة معه، بدلاً من لقاءه في اختلافه الأصيل عني، وفي غيخته؟ وباختصار، ألا أكون بصدد تفويت فرصة لقائنا معاً؟

نجد هذا النقد بقلم فرانسوا جوليان في عمله بعنوان لماذا يجب الإقلاع عن قول «أنا أحبك»: «إذ عندما يترسخ اللقاء، فإنه يتحول إلى علاقة: فالآخر لا يعود آخر غريباً؛ بل هو يترك ذاته يُستوعب من قبلي، إذ إنه يندمج عندها في منظوري أنا. اللقاء توارى تحت العلاقة. عرفت الروايات الجيدة كيف تحلله: عندما يستقر اللقاء في علاقة، تضيع الغيرية [...] ولهذا، ففي

اللقاء يحافظ الآخر على غيريته. تتمثل خاصية اللقاء في أن الآخر يتجاوز حدودنا الذاتية. ولهذا ربما لم تفكر الفلسفة الكلاسيكية بمسألة اللقاء: إذ إنها تمسكت بالتفكير باستقلالية الذات - التي يسلبنا اللقاء إياها تحديداً.

وهكذا يميّز فرانسوا جوليان ما بين اللقاء (مع غيرية لا أستوعبها) والعلاقة (ذات المنفعة، والتي أتغذى بواسطتها من الآخر). إذ يشير اللقاء، بالنسبة إليه، فقدان السيطرة على هويتنا؛ فأمام انبثاق اختلاف الآخر، لا نعود ما نحن عليه. وهكذا فلا يعني الأمر «الدخول في علاقة» بقدر ما يعني تجاوز اللقاء لحدودنا الذاتية، وتلقي صدمة اكتشاف غيرية جذرية تتركني مذهولاً. بذلك يتضح عنوان كتابه لماذا يجب الإقلاع عن قول «أنا أحبك»: إذ من خلال ظاهرة اللقاء، لا تظل «الأنا» هي ذاتها. فالانبهار، والانقلاب هما من القوة بحيث تضيع معهما هويتي: إذ لا تعود «الأنا» تحيل إلى واقع معروف.

إلا أن الفكرة القائلة بأن علاقتي مع الآخر تغذيني وتحمل لي المزيد من معرفة ذاتي، هي التي قادت تحديداً تفكيرنا الفلسفي في هذا الكتاب؛ وهي ما يعترض عليه فرانسوا جوليان على وجه التحديد. إذ من خلال قوله إن «الآخر لا يعود آخر غريباً» لأنه «ترك ذاته تُستوعب من قبلي»، فإنه يستهدف الفلسفة الغربية الكلاسيكية عموماً وفلسفة هيغل على وجه الخصوص.

ففي فلسفة هيغل الجدلية، يصبح اختلاف الآخر مندمجاً في مصير الذات: إذ ينتهي به الأمر بأن «يُدمَج في منظورها» لأن هذه الذات تنبني وتشكل من خلال الاحتكاك بهذا الاختلاف.

بجانب الآخر، بجانبه تماماً

عندما جعلنا من التغيير العلامة الأكثر موضوعية للقاء، كنا إذاً هيغليين حقاً. إذ إننا فسرنا لقاءات كلٍّ من ماريا كازاريس مع ألبير كامو، أو إيلوار مع بيكاسو كما كان ليفعله مفكر مدينة يينا [هيغل]. كامو يتحوّل من خلال احتكاكه بماريا: فالذهول تجاه غيريتها ليس سوى المرحلة الأولى لعلاقتها التي سوف تغذيه، وتجعله يكبر. كما يتغير بيكاسو من خلال علاقته مع إيلوار: حيث كان قد أُعجب باختلافه، إلا أنه دمجها فيما بعد في ذاته، من خلال التزامه بمثابة فنان وإنسان، وابتكار نسخة أفضل من كيانه الذاتي. الخط الموجه لتفكيرنا هيغلي بامتياز، أي أنه جدلي: يتعين أن نلتقي ما ليس ذاتنا كي نصبح نحن ذاتنا. يستعمل كاتب فينومينولوجيا الروح تحديداً تعبير «العودة إلى الذات»: فالإله، بعد أن مرّ بتجربة الغيرية مع الطبيعة، يعود إلى ذاته مع وعي متزايد بحقيقته. وإذا كان اللقاء أولياً، محكوماً بهذه الحركة خارج الذات، فحتى ولو بقيتُ مبهوراً بك لبعض الوقت، إلا أن اللحظة سوف تأتي حيث أعود إلى ذاتي، حيث أدمج هذا اللقاء في تاريخي، وحيث أجعل منه شيئاً لذاتي، داخل ذاتي.

هذا المفهوم للقاء، تبعاً لفرانسوا جوليان، ينتسب إلى فلسفة غربية متمحورة بإفراط على صيرورتنا بمثابة ذات مستقلة الكيان، ساعية من دون كلل إلى «إسباغ الطابع الجدلي» على اللقاء، وتحويله إلى أداة في العلاقة. يتعذر علينا نحن الغربيين الحفاظ على الآخر في كامل غيخته، ومنحه مكانته الحقيقية.

نَقْدُ فرانسوا جوليان الجذري له الفضل في الإضاءة على محدودية الفكر الغربي الكلاسيكي. فتعريف الذات الإنسانية بمثابة وعي مستقل وسيد نفسه لا تشكل فعلياً دعوة إلى لقاء الآخر. فالتفكير الديكارتي القائل «أنا أفكر، إذاً أنا موجود» لا يترك عملياً إلا مكاناً محدوداً للآخر، كما سبق وأن رأينا. كما يمكننا أن نأخذ مثال سقراط «أبو الفلسفة» كما قدّمه أفلاطون في محاوراته. إذ لا يبدو عندها أن سقراط قد يلتقى مع غيرة الآخر فعلياً، وإنما قدّم ببساطة حججاً مفيدة لتقدّم تفكيره الخاص.

إنما من الصعب أن نحاكم هيغل على هذا الغرار. إذ تحتل تجربة الغيرية مكانة مركزية في فلسفته، واختلاف الآخر هو عنده أبعد ما يكون عن مجرد عنصر يتعين إدماجه أو استيعابه. إذ نجد عند هيغل فكرة النقص التكويني في إنسانيتنا. فموضوعه ليس الأزلية كما هو الحال عند أفلاطون، ولا الحب كما هو الحال عند فرويد، وإنما موضوعه هو الغيرية ذاتها. إذ إن أحدى

خصائص الإنسان تتمثل بتلك الحاجة الحاكمة للقاء الآخر. يسهم هذا اللقاء بالتأكيد في عملية معرفة الذات والاعتراف بها، مما يؤدي إلى «العودة إلى الذات»، إلا أن فرانسوا جولييان يتجاهل شيئاً جوهرياً: فهذه «العودة إلى الذات» لا يمكن أن تتم إذا لم يكن لقاء الآخر عبارة عن صدمة، وانقلاب، وتجربة حقيقية في الاختلاف.

كما يبدو أيضاً من الأكثر صعوبة أن نقيم هذه المحاكمة لكل الكتاب الذين توقفنا عندهم - أي كل من بوبر، وفرويد، وليفيانس، وسارتر... - والذين تأثروا جميعاً بهيغل. فكلٌ منهم، تبعاً لمنحاه الخاص، يدعونا إلى التأمل بمسألة مكانة الآخر المركزية في حالات وجودنا. وكلهم يذهبون بالأحرى إلى القول بنهاية الشخص المستقل والمتركز حول ذاته. فبالنسبة لمارتن بوبر، نحن نعتمد على الآخرين كي نتمكن من التعبير عن حقيقتنا الروحية؛ وبالنسبة إلى ليفيانس، نحن نعتمد على تجربة وجه الآخر كي نتمكن من اكتشاف أننا مسؤولون؛ وأما بالنسبة إلى سارتر، نحن نعتمد على نظرتهم لابتكار حريتنا... فنجد عندهم كلهم قراءة جدلية تمثل علامة تأثير هيغل على فكرهم: أي ضرورة المرور من خلال الآخر كي نصبح على مستوى إنسانيتنا. فبالنسبة إلى كل من بوبر، وفرويد، وليفيانس، وسارتر، وكذلك هوسرل، وميرلو بونتي، ودريدا...، فمن خلال الاحتكاك بالآخر، وبجانبه تماماً، يمكننا أن نأمل في اكتشاف ذاتي. موجز القول، فالفلسفة الغربية، منذ هيغل، لم

تعد تلك الفلسفة القائلة باستقلالية الشخص، والتي ينتقدها فرانسوا جولييان. يبدو أن هذا هو الدرس الأكبر لفلسفة القرن العشرين والقائل: إن أقصر الطرق نحو الذات تمر من خلال الآخرين.

فعندما التقت أديل بإيما في بداية فيلم كشيث، ارتبكت تماماً، وفقدت السيطرة على ذاتها: إذ عاشت لقاءً بالمعنى الذي يقترحه فرانسوا جولييان. إلا أن هذا الحدث سوف يتحوّل إلى علاقة من النوع الذي يقول به هيغل، فستتغذى من اختلاف إيما، وفي خضم تجربة الغيرية هذه، سوف تصبح هي ذاتها. ولن تضع هذه العلاقة اللقاء الأولي أبداً موضع الشك. والأمر ذاته ينطبق على إيما، التي سوف تتغير بدورها من خلال الاحتكاك بأديل. فإدماج اختلاف الآخر في الذات، واستخدامه في التاريخ الشخصي، لا يعني بحال إنكاره، وإنما يعني على العكس تقديره والاعتراف به. يكتب فرانسوا جولييان قائلاً: «عندما يستقر اللقاء في علاقة، تضع الغيرية». تُبيّن لنا أجمل قصص الحب أو الصداقة، على العكس من ذلك، أن هذه الغيرية تبقى وتستمر، وإنما بشكل غير صافٍ، إذ يتم إدماجها في حياة الشخص.

تبين التعابير التي يستعملها فرانسوا جولييان لوصف اللقاء من قبيل - «فقدان السيطرة»، و«الانقلاب» و«تجاوز الحدود الذاتية»

- صدمة اللقاء. وهو يشكو من أن لقاءً من هذا القبيل يتحوّل إلى علاقة يتوقف فيها الآخر عن الإفلات مني، و«يندمج في منظوري الشخصي». ولكن إذا لم يتحوّل اللقاء إلى علاقة، لا نرى عندها كيف يمكنه الاستمرار. إذ من المستحيل البقاء مع مرور الوقت على تلك الحال من الانقلاب الذاتي وفقدان السيطرة أمام الآخر كما كان الحال في اليوم الأول للقاء. إلا أن ذلك لا يعني أن اختلاف الآخر لا يستمر في إثارة الفتنة لديّ. إنه يولّد الفتنة لديّ بمقدار ما أعرفه بشكل أكثر وأعمق، ومن دون أن يقلل ذلك من مقدار لغزه. في الواقع، إذا لم أفهم شيئاً عن الآخر، فسوف ينتهي بي الأمر بإدارة الظهر له. وكوني أتغذى من اللقاء مع الآخر، وأقيم علاقة معه، لا يمنعني البتة من الاستمرار في الاندهاش من غيريته، و«الإحاطة باختلافه» بصبر، كما يقول آلان باديو.

ولأنني ألقاك، لا أعود أعرف من أنا، يؤكد فرانسوا جوليان.

ولأنني ألقاك، سوف يمكنني أن أصبح أنا ذاتي، وأعرف من أكون، يؤكد هيغل.

لا تتعارض مواقفهما بالضرورة. إذ هناك ببساطة وقت لكل شيء.

هناك وقت لصدمة اللقاء الأولي، ووقت لاستيعابها. وقت

لفقدان السيطرة على الذات، ووقت للفعل والإقدام في المغامرة الحياتية الذاتية. وقت لنسيان الذات، ووقت للعودة إليها.

ونعاود العثور على هذه الحركة الزمنية في مختلف علامات اللقاء التي قمنا بتحليلها. يشير الاضطراب إلى مرحلة اللقاء الأولي، أي تلك الصدمة التي أفقد خلالها ذاتي. تبين تجربة الغيرية، وكوني قد تغيرت، أن اللقاء تحوّل إلى علاقة. إنه لا «يستقر» في علاقة كما يذهب إليه فرانسوا جوليان بمعنى سلبي: وإنما هو مستمر، ويتحوّل إلى علاقة. وإذا انتهى هذا الانبهار أخيراً إلى علاقة تحوّلني، ألا يشكّل ذلك حدثاً جميلاً واستثنائياً يوازي الصدمة الأولى؟

وبإمكاننا أن نوقع فرانسوا جوليان في فخ حججه ذاتها: فإذا لم أتغير، وإذا لم أستوعب اختلاف الآخر، ألا يعني ذلك تحديداً أنني لم أضطرب بما يكفي تجاه اختلافه عني - أي أنني لم ألقه حقاً؟

إن الآخر يهمني بالتأكيد بالمعنى الأكثر نبلاً للكلمة؛ إنه حتى يهمني بشكل مزدوج. أولاً بمثابة آخر، تبعاً لوصف فرانسوا جوليان، آخر يبهرني، ويفلت مني. وثانياً بمثابة فرصة للتقدم، كما يبيّنه فكر هيغل الجدلي. إننا نهتم بالآخر كما نهتم بالوجود وإمكاناته: من قبيل التذوق، والانجذاب، والفضول.

أنت تهمني كونك كائناً آخر، ولأنه من خلال الاحتكاك بك

يمكنني أن أصبح كائناً آخر: فكيف يمكن تمييز الأمرين؟ الحياة الحقة هي هكذا إذاً: يستحيل أحياناً أن نُفَرِّق، في لبّ اللقاء، ما بين الافتنان غير المغرض بالآخر، والشعور بأن حياتي سوف تتغير بفضلها.

استنتاج عام

يكتب غاستون باشلار في تقديمه لكتاب مارتن بوبر بعنوان
أنا وأنت قائلاً :

«بماذا تهمني الأزهار والأشجار، والنار والحجارة، إذا
كنتُ بلا حب وبلا بيت! يجب أن نكون اثنين - أو على الأقل
ويا للأسف يجب أن سبق لنا أن كنا اثنين - كي نفهم زرقه
السماء، وكي نسمي الفجر! إذ لا تجد الأشياء التي لا نهاية لها
من مثل السماء، والغابة، والأنوار اسمها إلا في قلب محب».

تلخص هذه الكلمات الجميلة برقة شاعرية الأطروحة التي
دافعنا عنها في هذا الكتاب: فاكشاف الآخر، أو حتى إعادة
اكتشافه الدائمة في لقاء يتجدد كل يوم، هو موعد مع الذات
ولقاء مع العالم في آنٍ معاً. عندما نقع في الحب، حين تتفتح
صداقة، لا نعود عندها نرى الأزهار، والأشجار، والنار،
والحجارة كما كنا نراها سابقاً. فهي تظهر لنا بحلة جديدة لأننا
ننظر إليها من خلال عيني الآخر، ولأنها تصبح ملكاً لنا. فهذا
الحب، وهذه الصداقة جعلتنا نصبح أكثر حضوراً. فالعالم كله

يبدو لنا في حلة جديدة. ويتكوّن لدينا، حرفياً، الانطباع بأننا وُلدنا من جديد.

ليس هناك من معجزة في هذا المقام. نقول أحياناً عن لقاء معين «إنه يغمرنا» وكأن الآخر ملأ لتوه فراغاً في كياننا، أي ملأ ذلك النقص الذي يحدثنا عنه الفلاسفة في تعريفهم للإنسانية: أي عدم الاكتمال بالنسبة لأرسطو، والحاجة إلى إله بالنسبة لكيركغارد أو بوبر، والحاجة إلى الحب بالنسبة لفرويد أو لاكان، والرغبة في الاعتراف بنا بالنسبة لهيغل. إننا مكونون من حالات النقص هذه، ومن حالة عدم اكتمال أولية ومن الحاجة إلى إيجاد الحل لها. فلقاءاتنا، مهما كانت قوتها، ومهما كان ما تحدثه في النفوس من اضطراب، لن تتمكن أبداً من ملء هذا النقص كلياً، وذلك لحسن الحظ: إذ سوف نستمر بأن نرغب، وأن نحب، وأن نعيش «الحياة الحقة».

هذه «الحياة الحقة»، التي نعيشها بكامل زخمها، والتي أصبحت أكثر ألفة لنا، والتي نعرفها بشكل أفضل، نستوعب كل ما تدين به لقوة لقاءاتنا. إنها تتمثل كاملة في هذا التحرك نحو الآخر، وهذا الانفتاح على العالم، وهذا التعطش لجلاء لغز الغيرية أو اكتشاف رغبتنا الذاتية، من خلال الآخر. إنها حياة من المفاجآت، والانبهارات، والانقلابات: فاختلاف الآخر يتركنا مذهولين، وأحياناً فاقدين للبوصلة. إلا أن نداء المغامرة أقوى

من مخاوفنا ، إذ يتعيّن علينا أن نتقبّل عدم اليقين ، وأن نجرؤ ، أو نرتجل : فليس هناك من أمل في أن نصبح ذاتنا من دون الخروج من قوقعتنا الذاتية والذهاب للقاء الآخرين .

ففي كل مرة يتكون لدينا هذا الانطباع ، حين اكتشاف شخص آخر ، بأننا نعاود الانطلاق ، ونعاود العيش من جديد ، نشعر ، في قلب الواقع ذاته ، بحضور تلك القوة النابضة والتي هي الحياة ذاتها .

إذ إننا لسنا شيئاً ، حين نكون وحيدين ، ولا نصبح شيئاً ، أو نساوي شيئاً . ولكن يكفي أن ألقاك ، وإذا بكل شيء يبدأ .

المراجع التي قام عليها هذا الكتاب

القسم الأول علامات اللقاء

الأعمال المذكورة:

Aristote, *Éthique à Nicomaque*

Alain Badiou (avec Nicolas Truong), *Éloge de l'amour*

Karen Blixen, *La Ferme africaine, Anecdotes du destin*

Christian Bobin, *Pierre*

Albert Camus, *Carnets, L'Été, L'Étranger, L'Homme revolté, La Chute, Noces*

Albert Camus et Maria Casarès, *Correspondance*

Emmanuel Carrère, *Le Royaume, D'autres vies que la mienne*

René Char, *La Parole en archipel, « Nous avons »*

Émilie du Châtelet, *Discours sur le bonheur*

Christophe, Alain Bashung, *Les Mots bleus*

Albert Cohen, *Belle du seigneur*

Boris Cyrulnik, *Sauve-toi, la vie t'appelle*

Gilles Deleuze, *Abécédaire*

Clint Eastwood, *Sur la route de Madison*

Paul Éluard, *Donner à voir*
 France Gall, *Viens, je t'emmène*
 Hegel, *La Phénoménologie de l'esprit*
 Iggy Pop, *The Idiot, Lust for Life*
 Abdellatif Kechiche, *La Vie d'Adèle*
 Emmanuel Levinas, *Difficile Liberté*
 Marivaux, *Le Jeu de l'amour et du hasard*
 Platon, *Ménon*
 Sydney Pollack, *Out of Africa*
 Marcel Proust, *À la recherche du temps perdu*
 Keith Richards, *Life*
 Jean-Paul Sartre, *La Nausée*
 Wladyslaw Szpilman, *Le Pianiste*
 Léon Tolstoï, *Anna Karénine*
 Voltaire, *Candide*

إلهامات أخرى:

Ô mon George, ma belle maîtresse, la correspondance entre George Sand et Alfred de Musset ; le catalogue de l'exposition « Picasso/Éluard une amitié sublime », édité par les musées Picasso de Paris et de Barcelone ; *Seconde Considération intempestive*, de Nietzsche ; *Disgrâce*, de J. M. Coetzee ; *Thelma et Louise*, de Ridley Scott ; *Le Choc amoureux* et *L'Amitié*, de Francesco Alberoni ; *Correspondance* entre René Char et Albert Camus ; *Rusty James*, de Francis Ford Coppola ; *Éléments de philosophie*, de Alain ; *Alain le grand voleur*, d'Olivier Pourriol ; *Un démocrate*, Mick Jagger, 1960-1969, de François Bégaudeau ; *Il n'y a pas d'amour parfait*, de Francis Wolff ; *Et si de l'amour on ne savait rien*, de Fabrice

Midal ; *L'Itinéraire de Platon*, de Gilbert Ryle ; *Les Transformations silencieuses*, de François Jullien ; *Méditations métaphysiques*, de Descartes ; *Critique de la raison pratique*, de Kant ; *Émilie, Émilie, l'ambition féminine au XVIII^e siècle*, d'Élisabeth Badinter ; *Quand Harry rencontre Sally*, de Rob Reiner...

القسم الثاني شروط اللقاء

الأعمال المذكورة:

Theodor W. Adorno, *Minima Moralia*

Giorgio Agamben, *L'Amitié*

Louis Aragon, *Aurélien*

Christophe, *Les Mots bleus*

Christopher Chabris et Daniel Simons, *Le Gorille invisible*

Leonard Cohen, *Anthem*

René Descartes, *Discours de la méthode*

Paul Éluard, *Les Yeux fertiles*

Philippe Gabilliet, *Éloge de la chance*

Eva Illouz, *La Fin de l'amour*

Clara Luciani, *Nue*

Fernando Meirelles, *Les Deux Papes*

Lou Reed, *Transformer*

Jean-Paul Sartre, *L'Être et le Néant*

Simone Weil, *La Pesanteur et la Grâce*

إلهامات أخرى:

Problèmes aristotéliens, philosophie pratique, de Pierre Aubenque ; *Lettre à Ménécée*, d'Épicure ; *Bowie*, de Jérôme Soligny ; *David Bowie, a Life*, de Dylan Jones ; *Philosophie de la volonté*, de Paul Ricœur ; *La Faiblesse de la volonté*, de Ruwen Ogien ; *Trois Amis en quête de sagesse*, de Matthieu Ricard, Alexandre Jollien et Christophe André ; *Le Désir*, séminaire de Jacques Lacan ; *Une saison chez Lacan*, de Pierre Rey ; *Comment est ta peine*, de Benjamin Biolay ; *La Promenade du sceptique*, de Diderot ; *Nadja* et *L'Amour fou*, d'André Breton ; *Comment vivre quand on ne croit en rien ?* d'Alexandre Lacroix ; *À une passante*, de Baudelaire ; *Les Passantes*, de Georges Brassens ; *Critique de la faculté de juger*, de Kant ; la reprise des *Mots bleus* par Bashung ; la reprise des *Mots bleus* par Papaconstantino ; *Matière et Mémoire*, de Bergson ; *Les Morsures de l'aube*, de Tonino Benacquista...

القسم الثالث

الحياة الحقة لقاء

الأعمال المذكورة:

Aristote, *Les Politiques*

Martin Buber, *Je et Tu*

Élisabeth de Fontenay, *Le Silence des bêtes, La philosophie à l'épreuve de l'animalité*

Sigmund Freud, *Nouvelles Conférences d'introduction à la psychanalyse*

Johann Gottlieb Fichte, *Fondements du droit naturel*

François Jullien, *Pourquoi il ne faut plus dire « je t'aime »*

Søren Kierkegaard, *Ou bien.. Ou bien..*

Jacques Lacan, *L'Éthique de la psychanalyse*

Jean-Jacques Rousseau, *Discours sur l'origine et les fondements de l'inégalité parmi les hommes*

Jean-Paul Sartre, *L'existentialisme est un humanisme, L'Être et le Néant*

إلهامات أخرى :

Sartre et la psychanalyse, de Betty Canon ; *Le Scénario Freud*, de Sartre ; *Devant la beauté de la nature*, d'Alexandre Lacroix ; *Plaidoyer pour les animaux*, de Matthieu Ricard ; *Les Animaux dénaturés*, de Vercors ; *Le Peuple migrateur*, de Jacques Perrin ; *La Lutte initiale*, de Philippe Nassif ; *Être soi, une introduction à Kierkegaard*, de Philippe Chevallier ; *Ordet*, de Carl Theodor Dreyer ; *L'Avenir d'une illusion*, de Sigmund Freud ; *Le Banquet*, de Platon ; *The Encounter*, de Simon McBurney ; *Ainsi parlait Zarathoustra*, de Nietzsche ; *Lettre à Chanut* du 6 juin 1647, de Descartes ; *L'Amie, la mort, le fils*, de Jean-Philippe Domecq ; *L'Homme sans gravité, jouir à tout prix*, de Charles Mel-man ; *L'Amant de Lady Chatterley* de D. H. Lawrence...

تشارل بيبان اللقاء

«كنتُ خائفاً من الانطلاق لأنني لم أكن أرى إلا ذاتي في مقابل العالم،
إلا ذاتي ومسؤولياتي، وذاتي وقلقي... ولقد نسيْتُ أن الجوهرى يمكن أن يأتي
من خارج ذاتي. ونسيْتُ أن الطبيعة العلائقية هي الطبيعة الحقة المميّزة للإنسان.
ونسيْتُ أنه لا تنقصني المهارة أو الخصال القادرة، ولا حتى الشجاعة... وإنما ما
ينقصني، بكل بساطة، هو أنت. أنت ذلك الكائن الذي ليس هو أنا، وإنما الذي من
دونه لا يمكنني تحقيق ذاتي».



«كتبْتُ هذا الكتاب كي أبين أن بالإمكان جعل الصدفة حليفاً لنا، وأن بالإمكان
الاستعداد لاستقبال غير المتوقع».

شارل بيبان

«كتاب شارل بيبان عن اللقاء، الذي بين أيدينا، يتسم بالتشويق وبساطة العرض
والإكثار من الأمثلة التوضيحية للموضوع المطروح. ويعود ذلك إلى كونه مهنيّاً
أستاذاً للفلسفة في نهاية المرحلة الثانوية، يُقرّب موضوعات بحثه إلى أذهان طلابه،
في ابتعاد كبير عن تعقيد العروض الفلسفية المجرّدة. وممّا يزيد من قدرته على
العرض المشوّق أنه روائيٌّ، كتب عدة روايات واسعة الانتشار، ممّا أعطى لنصه
المعروض في هذا الكتاب مسحة وجودية روائية قريبة للأفهام، وبعيدة عن التنظير».

الدكتور مصطفى حجازي

ISBN 978-9920-657-37-2



9 789920 657372

المركز الثقافي العربي



الدار البيضاء: ص.ب. 4006 (سيدا)
markaz.casablanca@gmail.com